

عبد العزيز سيد الأهل

الخليفة تراثر الهدى

عمر بن عبد العزيز

إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ
وَيَذْكُرُ مَعَاسِنَهُ وَيُنْشِرُهَا فَاعْلَمْ أَنَّ
وَرَاءَ ذَلِكَ خَيْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

أحمد بن حنبل

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة



كانت مدة عمر بن عبد العزيز سكينه للناس وأمناء ، وهدأة
للخواطر واطمئنانا ، ثم مرت المدة ولم تعد ، لأن الزمن وهو
متشابه الأجزاء والدوران لم يجد لعمر بن عبد العزيز شبيهها ،
وصارت كلمة « المدة » علماً على عهده كلما ذكرت المظالم المردودة
والعدالات المفروضة .

وكان الناس يلتقون في زمن الوليد بن عبد الملك فيسأل
بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع . فلما ولي سليمان ، وكان صاحب
زواج ونهم ، جعل الناس يتساءلون عن الجوارى والطعام ، فلما
ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما
ورِدُك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وما تصوم من الشهر ؟
وامتلأت المدة على قصرها بالرجال وتحصنت بالأعمال وكان
الله لم يدع لعمر بن عبد العزيز قولاً الا جعل عليه دليلاً يصدقه ،
فلم يسمع الناس منه قولاً قط إلا وافق عمله قوله ، ولم يقل لهم

أحد رويداً حتى يَصْدُقَ أو يكذبَ فيستبين . وأصاب عمر بذلك في تاريخ البشرية حظاً موفقاً سعيداً .

وبات عمر بما عمل في حياته في مكان الرضا من الناس عامة حتى تسابقوا على القول فيه . فقال الامام الباقر : إن لكل قوم نجبيةً وإن نجبية بني امية عمر بن عبد العزيز ، وإنه يبعث يوم القيامة امةً وحده . وقالت فاطمة بنت الحسين : لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده الى شيء . ثم قال فيه الحسن البصري وأحمد بن حنبل وكثير من الحكماء الأعلام .

ولقد صار الترحم على هذا الخليفة تقليداً بين الناس . ومن عجيب ما حكى أن رجلاً جاء إلى هشام بن عبد الملك . في خلافته فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان ، حتى اذا استخلف عمر رحمه الله نزعها . فقال له هشام : أعد مقالتك . فقال واعاد قوله : حتى اذا استخلف عمر رحمه الله نزعها ، وترحم عليه ولم يترحم على من أقر له القطيعة . فقال هشام : والله إن فيك لعجيباً ! إنك تذكر من أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه ، وتذكر من نزعها فتترحم عليه ، وإنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله !



ونحن مع الناس ننخرط في تقليدهم بالترحم عليه ، فنصنع له كتاباً نُقرأ فيه التفاصيل التي ذكرها له المؤرخون ، ويُعطى بعضُ الرأي الذي اقتدرنا عليه ، ويُجمَعُ شمل الأخبار التي كانت متفرقة شتى ، ولعلنا نرجو بذلك ان نكون بهذا من المترحمين عليه !

وقد جعلت الكتاب ثمانية أبواب وراء كل باب فصوله التي
تجتمع وتأتلف. وسيرى القارىء انني أجتهدت في ذلك ما وسعني
الجهـد وما وسعني الزمن الذي يأبى إلا أن يملأ بياضه وسواده
بأعمال أخرى تجهد وتضني .

وإني لأسأل الله أن يجعل من سببي بعمر بن عبد العزيز أسهما
تدغمي قلب الظالم وتروساً ترد عني المظالم .

عبد العزيز سيد الازل

نبعة السهام

•

عمر بن الخطاب

بينما كان عمر بن الخطاب يحج في خلافته ذات عام مرّ بجبل يقال له « ضجّنان » على بريد^٢ من مكة في طريق عرفات ، فوثبت إلى خاطره ذكرى شقاء أليم كان قد ألم به من سياط أبيه ، فوقف يتأمل المكان والذكرى ويسترسل في تأمله ويمدّ نظره إلى الوادي ويرجع به إلى القمة ، حتى إذا استمكن قال : لا إله إلا الله العظيم ، المعطي من شاء ما شاء ، كنت في هذا الوادي في مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظّاً ، يتعبنى إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة وليس بيني وبين الله أحد !

وقف عمر هكذا يتأمل ويتذكر ويقول ذلك القول ليُشهد الناس على ما كان من حاله في أَسْر الشقاء طفلاً وصبيّاً يلهب أبوه

(١) النبع شجر للقسي والسهام ينبت في قم الجبال.

(٢) البريد فرسخان أو اثنا عشر ميلاً — معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٦

الخطاب جلده بسوطه ليرعى الابل في منأى عن مكة ، وكان عليه ألا يقصّر ، بل عليه ألا يستريح . ثم نظر عمر وهو يعيد بصره من حضيض الوادي ويصعده الى قمة الجبل فاذا هو قد ارتفع خليفة على الناس وصعد فوقهم جميعاً كما صعدت قمة « ضجنان » ، وأشرفت في عزة وعلو على حضيض الوادي . وارتمى في خاطر عمر منظران قد تباينا ، ودارت فيه على عجل خيالات حزن وعجب ، فشهد بما كان فيه من شقاء الطفولة وظلمة الشرك ، ثم عجب لما أصابه من النعيم حين أسلم فصار على رؤوس الامكنة وفوق هامات الناس وليس بينه وبين الله احد .

ولم ينكر عمر بن الخطاب فضل ابيه الخطاب حين ذكره بالقسوة ، ولكنه أشار الى يده عليه حيث ألهم فيه - منذ كان طفلاً وصديقاً يرعى له إبله - جذوة إحساسه وهيج حداثته حين أتعبه في العمل وأمضه وأوجعه ولم يمهّد لجنبه ليستريح ، فشب الراعي الصغير حمياً متحمساً ذا حدة وسطوة يحسن رعاية الابل ويلين قيادها ، ويصبر على عيش البادية متمدرعاً في صوف في مكان قصي عند وادي « ضجنان » .

فلما نقل الاسلام عمر من الظلمات الى النور ، وصعد عمر به الى حكم الناس وجدّ العرب كالابل الآنفة ^٣ ، تتبّع قائدّها ، وعليه أن ينظر أين يقودها ؟ وظلّت في عمر من سياط ابيه فزعة من القسوة وبقية من الحدة في صبر لا ينفد وجهه لا يمل ورأي لا يتردد ، وكأنما تحول فيه هيج الحدة وخوف العقوبة الى طبع

(٣) الجمل الآنف الذي وضعت في أنفه البرة وحلقة الحديد فاشتكى أنفه منها .

دافع بحجته على العدل والمضيّ والتنفيذ ، فلما صار إليه أمر الناس
رحم فأطمع وقسّاً فزجر ، وفيما بين الرحمة والقسوة ساق الناس
سوق الابل ورعاهم رعيّتها فاستطاع ان يحملهم على الطريق .

اولاد عمر

وتدلى هذا العرق والميراث من عمر بن الخطاب في قوة يدّنة
إلى أولاده ، وكانت له فيهم مظاهر تختلف وتبّان ، غير انها
كانت كلها تنحرف نحو الحدة وتنطبع بطابع عمريّ ، فاذا اراد
بنو عمر شيئاً أقدموا واقتحموا فلم تمنعهم قوة ولم تكسرهم مخافة ،
وإذا امتنعوا عن شيء صدّوا عن طبع وأمسكوا دون اصطناع
حيلة . وحين حرّم عليهم أبوهم أن يكونوا خلفاء تجافت عن الخلافة
جنوبهم وغضّت عن لمعتها قلوبهم وأبصارهم ، وامتنعوا عن اقتناع
كأنه طبع في العرق ودم من الميراث ورثوه من هيبة نفس أبيهم
إلى الخير والعدل في حماسة واندفاع . ولم يكن هذا المظهر من
أولاد عمر إلا دلالة على الحدة الموروثة بدت في لون سلبيّ وصوت
ساكت ، وكانت الدلالة أتم صمتاً وأسكّن حركة في ابنه عاصم
ابن عمر بن الخطاب .

عاصم بن عمر

وكانت مرّت سنون خمس على موت رسول الله صلى الله عليه
وسلم حين ولد عاصم بن عمر بالمدينة ، فلم يقدّر له أن يكون صحابياً
ولكنه سمع حديث النبي من أبيه فرواه عنه . فلما شبّ وأيقع
انتظم في جند إفريقية تحت راية عبد الله بن أبي سرح ، ودخل

اليها مجاهداً فاتحاً سنة سبع وعشرين ، فلما أدى ما كتب عليه من القتال وما تطوَّع له من النصره رجع إلى أهله بالمدينة وأقام بها .^(٤) وتعاضم عاصم بن عمر عن العبث كله في حياته ، ولم يرَ الناس أحداً منهم إلا أنه تكلم ببعض ما يريد غير عاصم ، فقد كان نثر الكلام من حياء وعفة وحب للمسالمة وإيثار للخير ، فإذا حدث بينه وبين أحد شيء وخاف عاصم أن يحتدم الغضب وتشتد الخصومة ترك مجلسه وطرح حجته حتى تهدأ الثائرة ، ثم يعود إن رأى أن يعود . وورث أبناؤه منه خالص صفاته تلك ، فأطفأوا في نفوسهم ثأر الغضب ، وبرّوا عنهم نيران الأحقاد .

وقد رووا أنه حدث بين عاصم وبين رجل من قريش كلام في أرض قد تنازعا فيها : فجعل القرشي يغالي في خصومته حتى تهدد عاصماً قائلاً له : ان كنت صادقاً فادخلها ! فقال له عاصم : أو قد بلغ بك الغضب كل هذا ؟ هي لك ! فاستحيا القرشي من قوله وقال له : بل هي لك ! فتركها جميعاً لم يأخذها واحد منهما حتى ماتا ، ولم يتعرض لها أولادهما ، وبقيت طليقاً حلالاً للفقراء والمساكين .^(٥)

فناء بني همدان

وجرى القدر لعاصم بحظ حسن فكان زواجه — حين أراد أن

(٤) قيل انه مات بين خلافة يزيد وخلافة عبد الملك بن مروان ، فقيل انه مات سنة ٦٣ وقيل سنة ٧٠ أي انه مات بعد مولد عمر بن عبدالعزيز وفي طفولته — رياض النفوس ج ١ ص ٨٩ — النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨٥ — شذرات الذهب ج ١ ص ٧٧ .

(٥) رياض النفوس ج ١ ص ٧٧

يتزوج - الى فتاة من بني هلال ، كانت ذات وعي وفهم وحكمة
وتدين ، زوّجها له أبوه عمر بن الخطاب . وقد كان عمر يريد هو
أن يتزوج منها لولا أنه كبير ولم تبق فيه رغبة ، لأنه رآها أحق
النساء بأن ترتفع من خيمتها في حواشي المدينة الى بيوت الخلفاء .
فبينما كان عمر يعُسّ في حواشي المدينة وهو خليفة أصابه
الاعياء فاتكأ على جانب جدار ، فاذا امرأة تقول لفتاة لها - وقد
أمنت من يسمع قولها - : قومي إلى ذلك اللبن فامدقيه بالماء .

فقلت الفتاة : أو ما علمت بما كان من عزيمة أمير المؤمنين اليوم ؟

قالت المرأة : وما كان من عزمته ؟

قالت : انه أمر مناديه فنادى ألاّ يشاب اللبن بالماء .

قالت المرأة : قومي الى اللبن فامدقيه ، فانك بموضع لا يراك
عمر ولا مناديه .

فقلت الصبية : والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه

في الخلاء !

وطارت المقالة الى سمع عمر فعجب لما دار فيها ، وكان عجبه
أشدّ لرعي فتاة فقيرة من وراء الحيام تستجيب لنداء الخير من
غير تردد . ولم يحفّ خلق المنادي من ندائه بالأمر على الناس ،
وهي في أشد الحاجة لمذاق اللبن ليكثر فيكثر الربح ، ولم يكن
عمر يعلم أن تلك التي تحضها على المذاق أمّها ، ولو علم لذهب في
تعجبه أكثر مما ذهب ، لأنّ الفتاة تغضب أمّها من حيث لا ينالها
من رضا الخليفة شيء ، ومن يعلمه بأمرها ، وهو منها رفيع الشأن
عالٍ بعيد ؟

وودّ عمر من فوره لو تزوّج هو نفسه هذه الفتاة ، وإنها
لخليقة ان تكون له زوجا، إلا انه كبر وعلت سنّه وفاتته الرغبة
والميل . وكان معه مولاه « أسلم » فقال له بصوت خافت
لا يُسمع في الخيمة : يا أسلم ، علّم الباب واعرف الموضع ، ثم
مضى في عسسه . فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض الى ذلك الموضع
فانظر من القائلة ومن المقول لها ، وهل لهما من بعل ؟

قال أسلم : فأتيت الموضع فنظرت ، فاذا الفتاة أيم لا بعل
لها ، واذا نيك أمها واذا ليس لهما رجل ، وكانت امرأة من بني
هلال ، فأتيت عمر بن الخطاب ، فدعا ولده جميعا فقال : هل
فيكم من يحتاج الى امرأة أزوّجه ؟ ولو كان بأبيكم ميل ما سبقه
احد منكم الى هذه الجارية ! فقال له عاصم ابنه : يا أبت ، إنه
لا زوجة لي فزوجني ، فقال له : اذهب يا بنيّ فتزوجها ، فما أحرأها
أن تأتي بفارس يسود العرب ! فذهب عاصم فتزوجها ٦ .

ام عاصم

ولكن الفتاة الهلالية ذات الانقياد والطاعة لم تلد لعاصم
ذكراً ، وإنما ولدت أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، فلما ولدتها
أسمتها « أم عاصم » . ونبتت أم عاصم نباتاً حسناً ، وتعلمت حين
سببت رواية الحديث عن أبيها عن جدها ، وأثّر عنها بما روته من
الحديث « نعم الادم الحل ! » ٧ ، وكأنا اصطبغت أم عاصم

(٦) ابن الجوزي ص ٦٥ - ابن عبد الحكم ص ١٧ - شذرات الذهب

ج ١ ص ١١٩

(٧) الاغانى ج ٨ ص ١٥٥

بصبغة بيت عمر فاتجهت نحو النقشف والزهد ، فكان هذا الحديث أشهر ما أثر فيها روته ، ولم يكن في بيت عمر بن الخطاب ما هو أعظم من العبادة والزهد ولا أكثر دورانا في الكلام من الحديث عن الخل والزيت !

ثم بدرت من أم عاصم حين كانت صبية وزوجة بوار من المروءة والبر ، وهزتها فَعَلَّات الكرم والمودة ، وحدثوا عنها أنها يوم مرت بأيلة^٨ وهي في طريقها الى زوجها عبد العزيز بن مروان والى مصر جاءها رجل معتوه فقدم إليها هدية فقبلتها منه وأثابته عليها فرضي . فلما ماتت أم عاصم وتزوج عبد العزيز بأختها حفصة ومرت بأيلة تريد مصر في طريق أختها جاءها المعتوه نفسه فأهدى إليها فلم تثبه كما فعلت أختها من قبل ، فغضب المعتوه وقال : لست حفصة من رجال أم عاصم ! فذهبت قولة المعتوه مثلاً مضروباً شروداً^٩ .

عبد العزيز بن مروان

وكانت نشأت في الأروم الأموية فروع^{١٠} قد طابت ومالت عن السرف ورغبت في القصد ، وكانت هذه الفروع - وهي ترف في ثياب من العز وأبهة الملك - ذات جوهر يجري مع الصفاء . وكان من بين هذه الفروع ذات النضرة عبد العزيز بن مروان : نشأ في المدينة فطبّـمته على خيرها وروى عن بعض رجالها الحديث كأبي هريرة وغيره^{١٠} ، فلما رحل الى مصر وتولى أمرها

(٨) أيلة حين تنتهي أرض الحجاز وتبدأ الشام: معجم البلدان ج ١ ص ٣٩١

(٩) الأغاني ج ٨ ص ١٤٦

(١٠) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٥

خالطت قلبه الحشية لركة أهلها وحسن طاعتهم ، وحين ابتعد عن أهله مال نحو العفة وقصد الاعتدال .

ورق ذوق عبد العزيز ، وبلغ من الترف حداً رفيعاً ، وتأثر بما رأى في الشام ومصر من الدور والأبنية والآثار ، فجمعل يسابق الخلفاء والأمراء من أهله في البناء وإعلاء الجدران وضرب الدنانير ، ثم جعل يتخير الأمكنة لسكناه ، ويشترى عشرات من الدور يزخرفها وينجدها ثم يهبها لأولاده ١١ . فلما عصف طاعون الجارف بأهل مصر القديمة (فسطاط عمرو) تحول عبد العزيز إلى مكان طيب الهواء قد استحسن موضعه فاشتراه من قبض مصر بعشرة آلاف دينار ، واختط به مدينة حلوان ، بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل ، ثم بنى داره بها وزخرفها وموّهها بالذهب ووضع قريباً منها مقياس -لوان ١٢ . وطالت الأبهة بعبد العزيز وامتدت مفخرته فبنى دار الاضياف ١٣ وضرب حولها قباب الجود وادار فيها الموائد ودعا الى طعامه ، فكثرت بداره الضيفان وكثر رماد النار ، اذ كان له في كل يوم الف جفنة من الف قدر لقرى الناس .

كل يوم كأنه عيد اضحى عند عبد العزيز او يوم فطر
وله الف جفنة متوعات كل يوم يدها الف قدر ١٤

(١١) انظر باب « ذكر الخطط » في فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم

(١٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨٥

(١٣) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٣

(١٤) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٢٦

وكما كان عبد العزيز بن مروان كثير قرى الضيفان كان جواداً على أصحابه الذين وفدوا عليه من المدينة والحجاز فبنى لهم الدور وغرس لهم النخيل في حلوان وجيزة الفسطاط^{١٥} ، وكان يرد على الجليل الذي يوهب له بما ليس في حسابان احد ، وكان مع ذلك كله على نية طيبة وناحية من الورع ، يميز الحبيث من الطيب ، ويفرق بين الحلال والحرام ، فحين أراد ان يتزوج اراد ذات عرق ، فان العرق دساس ، واراد الا يتزوج من حسناء في منبت سوء كما فعل بعض اهله من بني مروان ، ثم رأى أن يكون مهر زوجته من أنقى ماله الحلال وأبعده عن الشك ، فقد كان بعض ماله مختلطاً مجلوباً من المظالم ، ولعرفانه به وخوفه منه قال لقيّمه : اجمع لي اربعمائة دينار من طيب مالي فأني أريد ان اتزوج الى اهل بيت لهم صلاح ، فجمع له قيّمه ما اراد ، فتزوج به ام عاصم^{١٦} . وفرح عبد العزيز وفرح اهله بهذا الزواج فرحاً عظيماً ، وأقبلوا عليه بالمنح والهدايا حتى انهم ليقولون انهم أوقدوا المصابيح ليلة زواجه بطيب الغالية بدل الزيت .

عمر بن عبد العزيز

وكانت قايت مظنة عمر بن الخطاب وبشارته لابنه عاصم حين لم تلد الهلالية ذكراً ، وولدت انثى ، ثم رجعت بشارة عمر فتاقت مرة اخرى حين تزوجت ام عاصم عبد العزيز بن مروان وولدت له اشقاء اربعة : ابا بكر وعمر ومحمدا وعاصما ، ولكن مواريث

(١٥) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠٣

(١٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٣

الأبوين اخذت تجتمع في عمر أكثر مما تجتمع في اخوته ، فورث منها صفاتٍ تتفق وتختلف : ورث منها معاً جوهر التقوى وحب المروءة والميل الى الانصاف . وورث من ابيه خاصة ذوقه الرفيع وادراكه الدقيق . وورث من امه خاصة حديثها وحماستها ولسانها وقصدها في الكلام .

فانه حين استقرت حدة عمر بن الخطاب في ابنه عاصم عادت فظهرت في حفيدته ام عاصم ، فلم تكن تدع امرأً يهيجها إلا اهتمت له ، ولم تترك غلطة ولا هفوة الا حاسبت عليها حساباً عسيراً . ولو كان المخطيء زوجها لم تغف له ولو كان هذا الزوج والياً واقفاً على رؤوس الناس .

وارسل عبد العزيز بن مروان والي مصر الى زوجته ام عاصم - وكانت في زورة لأهلها بالمدينة - ان تقدم عليه بجحوان مصر ومعها ابنها عمر ، فأخبرت عمها عبد الله بن عمر بن الخطاب بما رغب فيه زوجها ، فطلب اليها ان تلي فتسافر ، وتبقي ابنها عمر بالمدينة لينشأ ويعلم ، وقد صار آل الخطاب حوله يتعشقونه وينعطفون عليه بالحببة والترضية ، لأنه ولد أكثر الناس شبهاً بأبيهم عمر ، فخلفته ام عاصم كما اراد عمها ، وقصدت مصر وحدها تريد حلوان .

فلما قدمت ولم يكن معها ابنها سألتها عبد العزيز عنه فأخبرته ، فسر لبقائه بالمدينة في عطف اخواله آل الخطاب الذين آثرهم فتزوج منهم . وكانت وراء هذه الفرحة الظاهرة فرحة أخرى ابلغ منها ، فان بني امية كانوا يتوددون لآل الخطاب ويرجون

رضاهم عسى ان يؤثر ذلك في اهل المدينة فيرضوا لمكان آل
الخطاب فيهم . ورأى عبد العزيز من فوره ان يوظف لابنه من
يخدمه ومن يعلمه هناك ، ثم اسرع فكتب بما علم وعمل الى اخيه
عبد الملك الخليفة في دمشق ، فانطلقت نفس عبد الملك ، وفرح
لهذه البادرة التي تقربه من المدينة باتصال حبله بآل الخطاب ،
واجرى على ابن اخيه في كل شهر من مال الفيء الف دينار .

نشأة عمر

ونشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة في مطارف النعمة
ومبازل الجود ، ولجأت به نعمة أعمامه وحنان أخواله فمضى في
الأرض وكأنما يكون لنفسه طبقة وحده ، هي بين السادة من
أهل المدينة وبين السادة من أمراء دمشق ، غير ان مظاهره كلها
كانت تميل إلى أن تكون صنعة أموية من أن تكون مطبوعة
بطابع آل الخطاب .

شبَّ عمر أبيض جميلاً حسن اللون دقيق الوجه متمليء الجسم
ريان لا يصرف الرأي عنه بصره إذا رآه ١٧ ، فاذا اذّهن بالطيب
عصفت في طريقه رائحة طيبة فتشم من بعد ، فاذا جاوز الطريق
بقيت رائحته مستقرة في المكان الذي يمرّ به ، وقد يتطيب بالعنبر
فتبتل يده به ، فاذا طبع بخائمه طينة الكتاب ورقعة القرطاس
اتسخت الطينة من العنبر ١٨ . وينتظر الناس ثيابه بباب الفسّال

(١٧) ابن عبد الحكم ص ٥٣ - شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩ - ابن

الجوزي ص ١٤٦

(١٨) ابن عبد الحكم ص ٢٢

فاذا ارسلها تسابق الناس اليه يعطونه دراهم كثيرة حتى يغسل ثيابهم في إثر ثيابه من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من غبر وطيب ١٩

وإذا مشى عمر راح متبخترًا متكبراً يتصنع له مشية ، هي له وحده ، يخترعها بين الكبر والتبختر ، كأنها مشية الجارية إذا كعبت . وقد أعجبت مشيته تلك جوارى المدينة وكواعبها فأخذن يقلدن المشية العمرية ، ويسرن على خطتها وموازينها حتى يرشقن اذا سرن وتجمل رشاقتهن في العيون ٢٠

وأرخص عمر شعره ورجله ، ولبس في إصبعه خاتماً له فصّ ثمين ، أعطاه إياه ابن عمه الوليد ، كان جاءه من ارض المغرب وفتوح افريقية ٢١ ، وارتدى أغلى الأزرق ، ولبس أثمن الأردية ، حتى كان يشتري الازار الواحد بمائة دينار ، ويشترى مطرف الحز بمائة درهم ، ويضع يده عليه يحسّه فيستخشنه ولا يعجبه ، ويلبسه مكرهاً ، وصار الثوب لا يكون بالياً في نظره اذا بلى او مرّ عليه زمن طويل ، ولكنه صار يكون بالياً عنده متى لبسه فوقعت عليه لأول لبسة أنظار الناس . وقد غلا عمر في ذلك وتمادى حتى أوشك ألا يعجبه ثوب ، وكاد يجعل ماله كله في زينة الأثواب ثم لا يقنع حتى قال ذات مرة : لقد خفت أن يعجز رزقي عن كسوتي ! وما لبست ثوباً قط فرآه الناس عليّ الا خيّل لي

(١٩) الأغاني ج ٥ ص ١٥٠ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

(٢٠) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢١) ابن الجوزي ص ١١١

انه قد بلي ٢٢

وبدت على عمر مظاهر التكبر والتف الأُموي الصارخ ، فاذا سار لم يسر الا في جماعة من غلمانه وعُبدانه ، واذا دخل طرف ازاره الثمين في نعله جذب الازار فشقه ولا ينحني على نعله فيخلعها لينطلق الازار ، واذا سقط أحد شقي ردائه عن منكبه تكبر ان يرفعه ، واذا انقطعت نعله لم يعرج عليها ، فاذا لحقه بها احد من خدمه عنقه وردّها ٢٣ . وظل عمر هكذا يزيد مظاهره غلواً وتنادياً حتى رماه بالكبر كثير من الناس ٢٤

ولقد عاد عليه هذا الغلو بالخطأ والعقوبة ، فمذعني بترجيل شعره وتسكينه وهو مسرف في السكون الى مرّجلته لثم له جماله ، حتى تأخر مرة عن الصلاة ، وكان مؤدبه صالح بن كيسان ينتظره بباب المسجد ، فلما جاء بأخيرة من الوقت سأله صالح عن سبب ابطائه ، فقال له : كانت مرّجلتي تسكن شعري ؛ فقال له : بلغ بك حبك تسكين شعرك ان تؤثره على الصلاة ؟ وكتب بذلك الى أبيه في مصر ، فأرسل عبد العزيز رسولاً الى المدينة لم يكلمه حتى خلق شعره ٢٥

ولم يملك عمر نفسه من ميراث الحدة الطاغية التي ورثها من امه وكأنا عادت فدوت في دمائه صرخة عمر بن الخطاب ، وكثيراً

(٢٢) ابن الجوزي ص ١٤٦

(٢٣) ابن الجوزي ص ١٥٠ — ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢٤) ابن الجوزي ص ١٧٤

(٢٥) ابن الجوزي ص ٩

ما جرّته الى الزلل ، وقد خافه عبيده منها مخافة شديدة فأولوه طاعة عمياء ، وحين اجتراً عليه عبد له أسود وكان عمر في عنقوان حدائته أمسك عمر بتلابيبه وطرحه ، وجعل يضربه والعبد يستغيث ، وهو يثقل عليه بالضرب ، فتركه العبد يفعل . ثم رأى العبد أن يكسر فيه نخوة الحدّة ، فتربص لهدأة منه ذات يوم ثم قال له : هل جنيت جناية قط غضب بها عليك مولاك ؟

قال عمر : نعم .

فقال العبد : فهل عجل عليك العقوبة ؟

قال : اللهم لا

قال : فلم تعجل عليّ ولم يعجل عليك ؟

فاستحيا عمر ، وعاودته الرقة ، وتركه قائلاً : قم فأنت حر

لوجه الله تعالى ! ٢٦

رؤيا صادقة

وقد كرّم آل الخطاب عمر بن عبد العزيز وانحنت عليه ضلوعهم مع ان عبد العزيز بن مروان كان له عشرة أولاد ، هم : أبو بكر وعمر ومحمد وعاصم ، وامهم أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب . والأصبع وسهل وسهيل والريان وأم الحكم وأم البنين وأمها تهم مختلفات ، بعضهم من أم عبدالله بنت عبدالله بن عمرو بن العاص وبعضهم من أم ولد أخرى رومية يقال لها مارية ٢٧ . فلعمر من أم عاصم أشقاء ثلاثة ، ولكن آل الخطاب أفردوا عمر

(٢٦) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢١

(٢٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١١٢

بالتكريم من بين أشقائه لأنه كان شبيه أبيهم ، ولأنهم رأوا فيه
مخايل أمل يكاد يتحقق تأويلاً لرؤيا كان رآها أبوه عمر بن الخطاب ،
وكانت رؤيا يتمناها الناس أن تسرع فتولد ، فلما ولدت قويت
وصارت فراسة عرفت من الخلق والخلق والحركة والمزاج ، ثم
كانت كائناً حياً ينبض في ذات عمر بن عبد العزيز .

كان ابن الخطاب قد رأى رؤيا ، فقام منها بمسح النوم عن
وجهه ويعرك عينيه ويقول : مَنْ هذا الذي يكون أشج من
ولدي ، ويسير بسيرتي ؟ ٢٨ ، ويقول : إن من ولدي رجلاً بوجهه
أثر يملأ الأرض عدلاً ٢٩ . وقد طوّفت هذه الرؤيا بعين ابن الخطاب
فتعجب لها ، لأنه كان قد أصرّ على حرمان ولده جميعاً من الخلافة ،
حتى من يكون كفتاً لها منهم كابنه عبد الله . ولعل ابن الخطاب
ودّ ألا يرى - حتى في منامه - مَنْ يلي الخلافة من ولده أو
أحفاده . قد اشفق على أهله فلم يشأ أن يحمل أحد منهم إصراراً ،
ورجاء أن يخرجوا جميعاً من الدنيا ، قد حظوا منها بالكفاف
لا عليهم ولا لهم .

ولكن عمر برغم نفسه وأمانيه صدّق الرؤيا . فلما قصّها على
أهله صدّقها أهله ، وانتظروا تأويلها . ودأب عبد الله بن عمر يقول
قولة أبيه : ليت شعري ! من هذا الذي من ولد عمر في وجهه
علامة ، يملأ الأرض عدلاً ! ٣٠ . وانتقلت القولة من فم إلى فم ؛

(٢٨) ابن عبد الحكم ص ١٨

(٢٩) المعارف ص ١٠٨

(٣٠) ابن الجوزي ص ٧

ونشت في أولاد عمر وأنسابهم ، وفي بني أمية والناس ، وعرفها الشيخ والصبي والطفل ، فانتظروا جميعاً الأشجّ الذي يحكم ، وكانوا على ثقة من أن رؤيا عمر بن الخطاب لم تكن إلا حقاً وصدقاً .

وحتى الحجاج بن يوسف الثقفي وقف في المنتظرين المصدقين ٣١
ثم حان لعمر بن عبد العزيز أن يزور أباه في مصر وهو غلام ، فارتحل اليه ، حتى اذا جاء حلوان انطلق يتدال ويتنقل كما شاء له هواه ليرى بجلوان مصر ما لم يَرَ بالمدينة . وخرج ذات يوم يتفرج بما شاء ، واصطحب أخاً له غير شقيق هو « الأصبع » فأتيا معاً اصطبل الخيل ، وبينما عمر يلعب بلا حذر ، ويمضي في غفلة من وراء الخيل ومحته بغلة ، فأصابته الرحمة جبينه - وكانت شديدة - فشجت رأسه ، فصاح الأصبع ضاحكاً حين رأى ما أصاب أخاه ، وجعل يقول : الله أكبر ! هذا أشجّ بني مروان الذي يملك ! ٣٢
كان الدم يسيل من عمر ، وعمر يتألم ، والأصبع فرح يضحك ويصيح ويكبر ثم يقول : هذا أشجّ بني مروان ! والأصبع أموي ، ولكنه يرى أخاه أشبه ببني الخطاب منه ببني أمية ، بل كان إخوة الأصبع وأهله جميعاً يرون ذلك ، وكانت لحاظهم ترمق عمر وقلوبهم تطيف به كلما درج وخطا واتضحت فيه السمات ، فلما رمحته البغلة فشجته لم يملك الأصبع أن صاح بما صاح به ، وطغى شعوره عليه فاستعلن وصاح بما أيقن ضاحكاً مكبراً .
وبلغ الخبر دار الأمير فأسرعت أم عاصم الى ابنها وبلغت

(٣١) ابن عبد الحكم ص ١٤٢

(٣٢) المعارف ص ١٥٨ - ثمار القلوب ص ٨٨

مكانه في جماعة من خدمها قبل ان يبلغه أبوه ، وأقبلت عليه تضمه اليها وتمسح الدم عن وجهه ٣٣ ، ثم لم تسك عليها حديثها حين علمت ان الأصبغ كان يضحك ، فأقبلت على زوجها تعذله وتلومه وتقول له في علانية حين جاء : أما الكبير فيُخدم ، وأما الصغير فيُكرم ، وأما الوسط فيضيع ! لم لا تتخذ لابني حاضناً حتى اصابه ما ترى ؟ وجعل عبد العزيز يغضي ويمسح الدم عن وجه ابنه وهو مغتاظ على الأصبغ لما بلغه من ضحكته عند سقوط عمر ، وقال له : يسقط أخوك فتضحك سروراً منك بما اصابه ؟ فقال الأصبغ : ليس ذلك أيها الأمير ! لم تضحكني شتماته به ، ولا سرور بسقوطه ، ولكني كنت ارى العلامات من أشج بني أمية مجتمعة فيه إلا الشجرة ، فلما سقط وشج سري ذلك لتكامل العلامات فيه فأضحكني ، وهو والله أشج بني أمية ٣٤ ؛ فسكت عبد العزيز عن الأصبغ وتأمل شجرة عمر فمال الى زوجته أم عاصم يقول لها : ويحك ! انه أشج بني مروان ، وانه لسعيد ! ٣٥

وقيل لعمر منذ ذلك الحين : أشج بني مروان ، وأشج بني أمية ، وأشج قریش . وصار بهذه العلامة موضع الحسد من أمراء أمية واولاد عبد الملك خاصة ، وقد قالوا إنه لما صار عمر غلاماً ادناه عبد الملك منه وجعل يؤثره ويرق له ، فاذا دخل عليه رفعه فوق ولده جميعاً إلا الوليد ، فعاتبه احد ابنائه على ذلك ، فقال له : او ما تعلم لم فعلت ذلك ؟ قال : لا ، فقال عبد الملك : إنه

(٣٣) الطبري ج ٥ ص ٣١٩

(٣٤) ابن عبد الحكم ص ٢٠

(٣٥) ابن الجوزي ص ٧ - الاغانى ج ٨ ص ١٤٩ - ابن عبد الحكم ص ١٩

سبيلي الخلافة يوماً ، وهو أشجّ بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً
بعد أن تملأ جوراً ، فما لي لا أحبه ولا أدنيه ! ٣٦

الجوهر السليم

ولكنّ أمة عمر ومظهره لم يكن لهما كل الطغيان على جوهره
وقلبه ، فإن قلبه - منذ طفولته - كان معلقاً بأخواله اولاد عمر
ابن الخطاب ، يحبهم ويتوسم طريقهم ويتمنى لو أصبح مثلهم .
يرى فيهم القدوة الصالحة والمثل الكامل . وكانت اذا زار
خاله عبد الله ثم رجع من عنده وجع وقلبه مشغول به ،
فيقول لأمه : يا أمة ، أحب ان اكون مثل خالي عبد الله ، فتوقف
به امه ، وتستكثر عليه هواه ، وتقول له : اغرب اغرب ! انت
تكون مثل خالك ؟ تقول ذلك وتكرره له ٣٧ . ولم تكن أم
عاصم مخطئة فيما توقف وتستكثر ، فإن عبد الله بن عمر كان اعظم
آل الخطاب بعد ابيه ، وما من احد الا مالت به الدنيا ومال بها
ما بخلا عمر وابنه عبد الله ، ولم يعلق قلب رجل بالعبادة والخير كما
علق قلب عبد الله حتى قال سعيد بن المسيب : لو شهدت لاحد
انه من اهل الجنة شهدت لعبد الله بن عمر ٣٨ .

وكذلك استتر وراء مشية الحياء والتبختر ونخايل الأنفة
والكبر جوهر سليم ، واختبأ وراء حجاب خفيف ، فقد كان عمر -
مع حدته على بعض غلمانة حين يخطئون - سهل الحجاب على

(٣٦) الاغانى ج ٨ ص ١٤٦

(٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٩

(٣٨) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٣٤

أخوانه ، كريم المودة لهم ، ينتغي بمعرفة أهل الحاجة منهم .
ولم يكن بينه وبين الغلمان الذين هم مثله ما يفرق بينه وبينهم أو
يفضله عليهم ، فتناولوا منه ما يتناول الأخ من أخيه الذي لا
سلطان له عليه ٣٩ .

علم عمر

ثم أقبل عمر منذ رجع إلى المدينة بعد شجته على حفظ القرآن ٤٠
وعلى دراسة الحديث ، عفيفاً مطيعاً سليم النفس ، حتى إذا تم له
الحفظ أخذ يحدث عن بعض الصحابة وأعلام التابعين ويروي عنهم :
فيحدث عن عبدالله بن جعفر وعن أنس وأبي بكر بن عبد الرحمن
وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود . وقد روى عمر عن ابن
عتبة هذا أكثر مما روى عن جميع الناس ٤١

ولم يكن يضاهي ابن عتبة عند عمر غير القاسم بن محمد بن أبي
بكر ، أحد الثلاثة الذين ولدوا من فتيات فسادوا أهل الأرض
عبادة وزهداً ، وصاروا في زمانهم زينة الدنيا ، ففتنوا أهل
المدينة بالزواج من الفتيات بعد أن كانوا عنهن راغبين ٤٢ وهم
القاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وعلي بن الحسين زين العابدين .
أما ابن عتبة فقد أحبه عمر وآثره ، وجعل يختلف إلى مجلسه
كثيراً إذا كان مجرأً من مجور العلم ٤٣ ذا رأي وفقه وعفة ووقار ،

(٣٩) ابن الجوزي ص ٣٣ ، ١٧٤

(٤٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩

(٤١) ابن الجوزي ص ٨

(٤٢) زين العابدين ص ٤٦

(٤٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٧

وكان يمنح العلم لتلاميذه كما يريد فان أحب أذن لهم فدخلوا عليه وجلسوا ، وان لم يحب تفرقوا ورجعوا . وعمر نفسه كان مع ابن عتبة واحداً من هؤلاء التلاميذ ، يذهب اليه مرة فيأذن له ويعلمه ، ويذهب اليه أخرى فيرده ولا يأذن له ، ويرجع عمر عن ابن عتبة راضياً اذا رده كما لو أذن له ٤٤

ولقد خفَّ ابن عتبة على قلب عمر وصار يملأ عليه نفسه وزمانه ، وسيطر عليه سيطرة قوية وثبتت صورته في خاطره ثم لم تزل ابداً . وصار يراد في مخيلته دائماً ويقظان . وما كان الخطب يصيب عمر حتى يرى ابن عتبة في منامه او يحوه بوصيه ويعظه . ولقد قال لامرأته ذات مرة : فوالله يا فاطمة ما أكاد اغضب الا كأنني انظر الى عبدالله قائماً يخاطبني ٤٥ ، ولم يكن ذلك من عمر الا لانه ألف ابن عتبة وصيغت روحه به ، ونزعت عروقه اليه ، ثم اوشك عمر ان يكون كاهن عتبة ، ورشيكاً سيكون .

ثم روى عمر الحديث عن خاله عبدالله بن عمر وعن عبد العزيز ابيه وعن عمر بن ابي سلمة والسائب ويوسف بن عبدالله بن سلام وعبادة بن الصامت وتميم الداري والمغيرة بن شعبة . ثم روى عن عائشة وام هانيء وخولة بنت الحكم ، ثم روى عن سعيد بن المسيب وعبدالله بن ابراهيم بن قارظ وعروة بن الزبير وعامر بن سعد بن ابي وقاص وابي بردة ، وعن عراك بن مالك والزهرى ومحمد بن كعب ومطور الحبشي وابي حازم ، وعن خلق غير

(٤٤) ابن الجوزي ص ٩ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٧

(٤٥) ابن الجوزي ص ٢٤٩

هؤلاء كثير ٤٦

أسند عمر الحديث ورواه عن جماعة من الصحابة وجماعة من التابعين ، ثم لم يلبث ان اشتغل عن الرواية فقلّ حديثه ، ولكنه كان قد بلغ مبلغاً كبيراً من العلم بالسنن ، وصار ثباتاً حجة حافظاً ، يرى ويستنبط ، بالغاً مرتبة الاجتهاد ، وأقبل عليه كثير من الفقهاء يأخذون عنه ٤٧ ، وعاد اليه بعض الذين أخذ منهم يأخذون منه ٤٨ ، حتى اذا ذهب الى الشام بعد جعل الفقهاء من اهلها واهل الحجاز يستفتونه فيفتيهم ٤٩ ، بل كان كل من ظنّه محتاجاً الى العلم فامتحنه وآه مستغنياً ، حتى قال ميمون بن مهران أحد اصحابه : أنبنا عمر فظننا انه يحتاج الينا فاذا نحن تلاميذه ! ٥٠ .

فاطمة بنت عبد الملك

فلما استوى شبابه تآقت نفسه الى مصاهرة عمه عبد الملك والزواج من ابنته فاطمة ٥١ ، وتآقت نفس عبد الملك الى مصاهرة عمر وتزويجه ابنته . فلما أذن القدر وحن الموعد ، وكان عمر في زورة لعبد الملك بالشام ، وهو في العشرين او دونها ، لم يتردد الخليفة ان يعرض عليه الزواج من ابنته ، فقبل عمر ووفى لعمّه جزاء ما اكثّر له من بره ، وما اغدق عليه من هباته .

(٤٦) ابن الجوزي ص ١٢ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٧١

(٤٧) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨

(٤٨) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢

(٤٩) ابن الجوزي ص ٢٨

(٥٠) ابن الجوزي ص ٢٧

(٥١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١

قال عبد الملك لعمر وهو يزوره : قد زوجك أمير المؤمنين بنته فاطمة . فقال عمر : وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد اجزلت وكفيت ! فسر عبد الملك وأعجب برده وجوابه وأبدى له استحسانه . وثار الحسد في بعض أولاده فقالوا له : هذا كلام تعلمه فأداه !

ولم يرَ عبد الملك بدأً من أن ينتهز فرصة المفاجأة ليظهر أولاده على ذكاء عمر ويحمد غضبهم عليه ، وظل يترقب حتى دخل عليه عمر يوماً وعنده أولاده فقال : يا عمر ، كم نفقتك ؟ فقال عمر : الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين . قال : ما هي ؟ قال : «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما .» فقال عبد الملك لأولاده : من علمه هذا ؟ ٥٢

القطائع

رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «جعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزجة رماحها ما لم يزرعوا فإذا زرعوا كانوا من الناس ٥٣ . فلما فتح العرب الفتوح والبلدان لم يؤذن لهم بأن يملكوا الأرض ويزرعوها وإنما ترك ذلك لأهل الذمة أو لمن يُسلم منهم ويؤد أن يظل زارعا .

واختلف الرواة في أول من أقطع العرب أرضاً من الرؤساء . فقليل إن رسول الله أقطع علي بن أبي طالب بئر قيس والشجرة ، ثم أقطع أبو بكر الزبير ما بين الجرف إلى قناة ، ثم أقطع عمر بن

(٥٢) ابن الجوزي ص ٢٧

(٥٣) الخراج للقرشي ص ٨١

الخطاب خمسةً من اصحاب رسول الله : سعد بن ابى وقاص وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت واسامة بن زيد والزبير بن العوام ، ثم باع اسامة ارضه . وكذلك اقطع عمر علي بن ابى طالب ينبيع . وقالوا اقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ارضاً ، فلما كان عمر بن الخطاب ترك في يد الرجل من الأرض ما يعمره واقطع بقيتها غيره ٥٤ .

وقالوا : اول من اقطع الارض عمر بن الخطاب ، فإنه اصفى اموال كسرى وآل كسرى وكل من فر عن ارضه او قتل في المعركة ، وكل مغيض ماء او اجمة ، فكان عمر بن الخطاب يُقَطِّع من هذه لمن اقطع ، وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث ٥٥ . وكان فيمن اقطعهم عمر رجل يقال له ابن سندر ، اقطعه عمر « منية الأصبع » ولم يقطع عمر احداً من الناس من ارض مصر الا ابن سندر ، فلم تزل له حتى مات فاشتراها الأصبع ابن عبد العزيز من ورثته فسميت باسمه ٥٦ . وقالوا انه ليس بمصر قطيعة اقدم منها ولا افضل . وكان سبب ذلك انه كان لزنباع الجذامي غلام نصراني يقال له سندر فوجده زنباع يقبل جارية له فحببه وقطع اذنيه وانفه ، فأتى سندر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى زنباع فقال : « لاتحملوهم ما لا تطيقون ،

(٥٤) الخراج للقرشي ص ٧٧ ، ٧٨ ، والجرف وقاة مكانان قرب المدينة (٥٥) يرى ابو يوسف صاحب الخراج ان للامام العدل ان يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك في موضعه ولا يجازي به : الخراج لابن يوسف ص ٥٧

(٥٦) منية الأصبع في شرقي مصر : معجم البلدان ج ٨ ص ١٨٨

واطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإن رضيتم فأمسكوا ، وإن كرهتموهم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، ومن مثله أو أحرق بالنار فهو حر وهو مولى الله ورسوله . فاعتق سندر واسلم ، ولكنه لم يرَ لنفسه نفعاً ولا قدرة ، فقال أوصي يا رسول الله ، قال : « أوصي بك كل مسلم ! » واقام سندر عند رسول الله يرفق به . فلما اشتد مرض رسول الله قال له سندر : يا رسول الله إنا كما ترى فمن لنا بعدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اوصي بك كل مؤمن !

فلما توفي رسول الله أتى سندر الى أبي بكر فقال : احفظ في وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فعلاه أبو بكر حتى توفي ، ثم أتى عمر بن الخطاب فقال له : احفظ في وصية رسول الله ، فقال : نعم إن رضيته ان تقوم عندي أجريت عليك ما كان يُجرى عليك أبو بكر ، وإلا فانظر اي المواضع اكتب لك . فقال سندر : مصر ، فإنها ارض ريف ، فكتب له إلى عمرو بن العاص : احفظ فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدم على عمرو أقطع له ارضاً واسعة وداراً ، فجعل سندر يعيش فيها ، فلما مات قبضت في مال الله^{٥٧}

اما قطائع عمر في الشام فكانت لأجناد المسلمين حين عسكروا في مرج برّداً ما بين المزة ومرج شعبان^{٥٨} جنبتي برّداً وكانت مروجاً مباحة لأهل دمشق وقراها ليست لأحد

(٥٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٧

(٥٨) شعبان بطن من القحطانية .

منهم ، فأقاموا بها حتى أوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً ، وأحيا كل قوم تحلتهم وهياوا فيها بناء ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم ، فبنوا الدور ونصبوا الشجر ، ثم أمضاه عثمان ومن بعده ٥٩

هكذا قيل . ولكن قوماً آخرين ينكرون ان يكون عمر ابن الخطاب قد اقطع وقالوا : لم يُقطع ابو بكر ولا عمر ولا علي ، وقالوا اول من اقطع القطائع عثمان بن عفان وبيعت الأرضون . وكان بدء ذلك حين هزم الله الروم وهربوا عما في ايديهم من المزارع ، فصارت تلك المزارع والقرى صافيةً للمسلمين موقوفة ، يقبلها ٦٠ والى المسلمين وتدخل قبالتها بيت المال فتخرج نفقةً مع ما يخرج من الخراج .

ثم كتب معاوية في أمرته على الشام إلى عثمان إن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بثون من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمراءهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف معاوية في كتابه المزارع الصافية بالشام وسمّاها له ، وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى اهل الذمة ولا الخراج . فكتب اليه عثمان بذلك كتاباً . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وافضى الى معاوية الأمر ، فأقرّها على حالها ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء اهل بيته والمسلمين .

(٥٩) تاريخ مدينة دمشق المجلدة الأولى ص ٥٩٣-٥٩٧

(٦٠) النقييل : الكفالة والضمان .

قالوا : ثم ان اناساً من قریش واشراف العرب سألوا معاوية ان يُقْطِعَهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان اقطعها اياها ففعل ، فمضت لهم اموالاً يبيعون ويمهرون ويورثون . ثم انتقل معاوية من إقطاع الأرض الى إقطاع القرى والدور ، ولكنه لم يمس الأمر كله اذ ثار الناس وتكلموا فرجع عما نوى .

قالوا : اقطع ابنه يزيد بن معاوية قرية من قرى الفيوم بمصر ، فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه ، فلما بلغه ذلك رهب قاله الناس فردت تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين ، وكان معاوية كالجمل الطنّي^{٦١} يقدم رجلاً وبؤخر آخرى ، يرمي بالكلمة فان ذلت العرب امضاها وان انكروها لم يمضها^{٦٢}

فلما افضى الأمر الى عبد الملك بن مروان - وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية اقطعها احداً - سأل اشراف الناس القطائع منها ففعل حتى لم يبق منها شيء . ثم نظر عبد الملك الى ارض من ارض الخراج وقد باد اهلها ولم يتركوا عقباً فأقطع الأشراف منها ، ورفع ما كان عليها من خراجها ، وراة جائزاً له مثل إخراجها للجواز للخاصة من بيت المال .

ثم سأل الناس عبد الملك والوليد وسليمان قطائع من ارض القرى التي بأيدي أهل الذمة - وكانت تعد ارضاً للمسلمين ولكنها دفعت الى أهل الذمة على ان يأكلوا منها ويؤدوا خراجها وليس لهم بيعها ولا لأحد ان يشتري منها - فأبى ذلك عليهم هؤلاء

(٦١) الطي بالضم وتضعيف الطاء والنون والياء : الجسيم .

(٦٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠١

الخلفاء ، فعاد الناس يسألونهم أن يأذنوا لهم في شري الأرضين من
اهل الذمة فأذنوا لهم . ومن ثمّ صارت الارض والقرى والدور
دولة بين الناس .

وقد استحل بنو أمية الصوافي وشراءها وسبكناها ، ولكن
بني هاشم حرّموها . قال سفيان الثوري : ان كانت لبني أمية
حلالاً فهي على بني هاشم حرام ، وان كانت على بني أمية حراماً
فهي على بني هاشم أحرم وأحرم .

قطائع عمر

اما عمر بن عبد العزيز فلما صار له ان يتصرف في ماله ويتزوج ،
فقد وهب له بنو أمية - غير ما ورث من أبيه - واهل بيته -
هبات كثيرة ، وضياعاً منتشرة غنية في كل الآفاق : صارت له
ارض يغلها في الحجاز والشام وفي مصر واليمن والبحرين ، ونزل
له بعض الخلفاء عن حقه في قطائع غنية ذات غلات ، وقبل عمر
ابن عبد العزيز ما اعطوه راضياً مبتهجاً لم يرده منهم - ما كان مأثاه :
من مواريث او من مظالم ، فليس عليه هو من ذنب - كما ظن -
وانما هو رجل يوهب له ، فان كان هناك من ذنب فانما هو على
غيره من آباءه واجداده . لم يرده عمر شيئاً مما اهدي اليه ، بل لم
يسأل عن اصله ومأثاه ، حتى صار له من الغنى والثروة ما ليس
لغيره من كثير من الأمراء .

صارت له السريداء وخيبر وفدك بالحجاز ، وصارت له
المكيدس وجبل الورس باليمن ، وصارت له بداء وجزين^{٦٣} من

(٦٣) هكذا في تاريخ دمشق ص ٩٨٥ . والمها حزين (بالخاء) لأن التي
بالجيم ليست من أرض بعلبك وإنما من أرض صيداء . وكذلك بدا .

أرض بعلبك بالشام ، وصارت له قطائع متفرقة في مصر واليامة والبحرين ، وكان لبعض هذه القطائع سجلات ، وبعضها ليس له سجل . كانت أكثر من أن يحصوها عمر أو يراها ، وقد وفد عليه منها دخلٌ ضخيم من المال قدره بأربعين ألف دينار تفد عليه من غلتها كل عام .

إمرة خناصرة^{٦٤}

ولما جاوز عمر العشرين من عمره وراّه عبد الملك قد بلغ من المكانة في العلم والاجتهاد والجاه ورفعة الشأن ما يجعله جديراً بامرة الناس رأى أن ينصبه والياً على إقليم قريب صغير ليتعلم ويجرب ويزداد خبرة ودراية . وكان عبد العزيز بن مروان قد مات وصارت ولاية العهد إلى الوليد وسليمان ، ولم يصر لأبناء عبد العزيز وراثته في الخلافة ، فأراد عبد الملك أن يمسح عن عمر حزنه على أبيه ويرضيه بعد إقصاء عرقه ، فولاه خناصرة سنة خمس وثمانين ، فأقام بها عمر والياً حتى مات عبد الملك واستخلف الوليد ، فأرسل إليه الوليد بامرة المدينة بعد أن خلع عنها هشام بن اسماعيل^{٦٥} .

(٦٤) خناصرة بلدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية ذكرها الجعدي وابن الرقاع والمتني وجران العود في اشعارهم وفيها يقول المتني :

احب حصاً الى خناصرة	وكل نفس تحب حياها
حيث التقى خدها ونفاح له	ان وتغري على حياها
وصفت فيها مصيف بادية	شتوت بالمحصان مشتاعا
ان اعشبت روضة رعيها	او ذكرت حلة غزوناها

معجم البلدان ج ٣ ص ٦٧

(٦٥) زين العابدين ص ٧٦

ولاية المدينة

براية الفطنة

تأثر الوليد بن عبد الملك بحبة أبيه لعمر بن عبد العزيز ، وتأثر بما صار لعمر من مكانة في قضاء حاجات الناس وحاجات بني أمية خاصة ، وكانت صارت له به آصرة المصاهرة بزواج عمر من أخته فاطمة ، فلما استخلف الوليد وبلغ عمر الخامسة والعشرين من عمره ولاه أمرة المدينة ، وولاه بعد هشام بن اسماعيل المخزومي الذي كان آذى الناس وابتلاهم ، وخصَّ أهل البيت بالبلاء وأشد الأيذاء . فولاه الوليد ليهدىء به النفوس الثائرة ويرضي القلوب النافرة .

فلما كتب الوليد لعمر بولايته على المدينة أبطأ عن الخروج إليها ، لأنه كان يعلم ما أصاب أهلها من هشام بن اسماعيل ، فأرسل إليه الوليد يسأله : ما باله لا يخرج الى عمله ؟ فرجع إليه الرسول يقول : زعم عمر أن له اليك ثلاث حوائج . فقال الوليد : عجله عليّ . فلما جاء قال : إن أباك ولي من كان قبلي ، فأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم . فلم ير الوليد إلا ان يقبل

لأنه يريد رضا اهل المدينة ، فقال لعمر : اعمل بالحق وإن لم ترفع
الينا إلا درهماً واحداً ٦٦

وقدم عمر المدينة في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين ،
ولم ينس ان يقدم اليها في موكب من زينته فقدمها في موكب
عظيم يتألف من ثلاثين بعيراً . فلما دخل المدينة على حين فرحة
من أهلها دخل دار جده مروان حيث كانت من اكبر دورها
واعزها ، ثم أقبل الناس فسلموا عليه بالامارة ورحبوا به
ترحيباً عظيماً ٦٧

ودخل عمر المدينة كما كان بها غلاماً ، تعصف ريجه ويسترسل
شعره . وكما كان من قبل مسبل الازار ، يجر ذيله متبخترأ في
مشيته العمرية ، لم يترك مما كان فيه شيئاً ٦٨

مشورة الفقهاء

ولكن عمر وقد أخذ على الوليد ألا يسأل عن عمل اهل الظلم
والجور - رأى ان يجرب خطة جديدة لم تتج له في خناصرة ،
او لعله جرّبها هناك في نطاق ضيق ، فرأى ان يبدأ عمله بالشورى
لئلا تقع عليه مسئولية أمر ليس لأهل المدينة رأي فيه ولا
اقبال عليه .

وكانت المدينة تعجّ بأهل العلم والزهد والوعظ ، وقد اشتهر
من بينهم الفقهاء السبعة الذين عاشوا بها متعاصرين ،

(٦٦) ابن الجوزي ص ٣٢

(٦٧) الطبري ج ٥ ص ٢١٦

(٦٨) ابن عبدالحكم ص ٢٠

وعنهم انتشر العلم والفُتيا في الدين بعد الصحابة ، وكلهم من سادات الناس وأعلام التابعين .

ولم يكن هؤلاء الفقهاء السبعة صاغة كلام لا يؤثر كلامهم وإن رِقّ وراق ولا ينفع وعظهم مهمل ولا يبلغ . إنهم لم يكونوا ملبسين ، لأن التلبس وإظهار المموّه وشغل الناس عما في أيديهم لثم الرياسة وتقصّي آراب الدنيا - لم يكن كل ذلك من صنعتهم ، ولكنهم كانوا يخلصون السرّ كما يخلصون العلانية ، وكانت أعمالهم توافق علومهم ، وأقوالهم من نياتهم ، فصاروا أئمة يقتدى بهم ويوثق بكلامهم وتصدّق أحكامهم .

اثنان منهم يتسابقان في الفضل ويتفاضلان في السبق هما سعيد ابن المسيّب بن حزن وسليمان بن يسار ، وكلاهما من الطبقة الأولى من التابعين . أما سعيد فلم يكن قد بقي من هو أعلم بقضاء رسول الله وقضاء صاحبيه منه ^{٦٩} . وأما سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين فكان عالماً فهاً وعابداً ورعاً وثقة حجة . وكان سليمان عندهم أفهم من سعيد ، وقد روى عن خلق كثير منهم ابن عباس وأبو هريرة وأم سلمة ، وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر ، وكان المستفتي إذا أتى سعيد بن المسيّب فسأله عن شيء قال له سعيد : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فإنه أعلم من بقي اليوم ! وكان سليمان أعلم أهل المدينة جميعاً بأحكام الطلاق ^{٧٠} . وأما الخمسة الباقون فكانوا جميعاً من الطبقة الثانية من التابعين ،

(٦٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٤

(٧٠) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٦

وهم : عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشيّ الخزومي ، وخارجة بن زيد ابن ثابت الأنصاريّ ، ثم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وابن خالته سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وابن عتبة راهب قريش عالم ناسك ، لقي خلقاً كثيراً من الصحابة ، وسمع عن ابن عباس وأبي هريرة وأم المؤمنين عائشة ، ثم روى عنه الزهريّ وغيره . وقد قال الزهري فيه حين لقيه ليأخذ منه : سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأني ليس في يدي شيء ! ٧١

وأبو بكر بن عبد الرحمن عالم كثير الصلاة والعبادة ، سمي أيضاً راهب قريش أو راهب المدينة ، روى عن أبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة ٧٢ وغيرهم .

وخارجة بن زيد تابعي جليل القدر ، ورث عن أبيه زيد علم الفرائض ، وكان أبوه من أكابر الصحابة وأعلم الناس بالفرائض وقسمة الموارث . وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرّضكم زيد .

أما القاسم وسالم فكانا ابني خالة ، وأُمّاهما من بنات يزدجرد ابن كسرى . وكان القاسم أعلم من سالم ٧٣ ، رجلاً مهيباً وقوراً لا يقول إلا ما يعلم ، وما كان أحد أعلم بالسنّة منه ، وكان عمر بن عبد

(٧١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٠٠

(٧٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٢

(٧٣) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٢٤

العزيز يقول : لو كان لي من الامر شيء ، لوليتُ القاسم بن محمد الخلافة ^{٧٤}
أما سالم فكان سيداً عالماً ثقة ، روى عن أبيه وغيره ، ثم روى
عنه الزهري ونافع . وكان سالم زاهداً يلبس الصوف ويعالج
بيديه ويعمل ويستغني ، وكان حسن الجسم ، قال : دخلتُ على
الوليد بن عبد الملك فقال : ما أحسن جسمك ! فما طعامك ؟
قلت : الكعك والزيت ، قال : وتشتهيه ؟ قلت : أدعاه حتى
اشتبهه فاذا اشتبهته أكلته . وكان سالم يقول : إياكم ومداومة
اللحم فان له خراوة كخراوة الشراب ^{٧٥}

وكان سالم في وفرة من الغنى والعفة . دخل هشام بن عبد الملك
الكعبة وكان ولياً للعهد فاذا هو بسالم ، فقال له : سألني حاجة ،
فقال له سالم : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غيره .
فلما خرجا قال له هشام : الآن قد خرجت فسألني حاجتك ،
فقال له سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال :
بل من حوائج الدنيا ، فقال سالم : ما سألتُ من يملكها فكيف
أسأل من لا يملكها ؟ ^{٧٦}

رأى عمر ان يستشير ستة من هؤلاء الفقهاء ويترك سعيد
ابن المسيب لما كان من سنه وضعفه ولما كان بينه وبين الوليد وبني
أمية ، وضم اليهم أربعة من سادات العبّاد والفقهاء ، هم عروة بن

(٧٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٩

(٧٥) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٩٤

(٧٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥١

الزبير ، وأبو بكر بن سليمان بن خيشمة ، وعبدالله بن عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، فصاروا عشرة من الفقهاء الاعلام .

ولم يكن في أرض الله أعبد من هؤلاء ، ولا أخشى ولا أعلم ، الا من لم يقدر على الرجوع الى عمر اذا دعاه من سنٍّ او ضعف ، والا علي بن الحسين زين العابدين . فدعا عمر اليه اولئك العشرة ليستشيرهم ويقضي بما يرون .

وجاء الفقهاء فدخلوا عليه فجلسوا ، فأخبرهم بما رأى ، وأنه انما دعاهم لأمر يؤجرون عليه ، ويكونون أعواناً على الحق ، وأخبرهم أنه لا يريد أن يقطع أمراً الا برأيهم جميعاً ، او برأي من يحضر منهم ، وطلب اليهم أن يراقبوا المظالم ويرفعوها اليه ، فخرجوا من عنده وهم يحزونه خيراً^{٧٧}

ميرل عمر

دعا عمر هؤلاء الفقهاء الصالحاء ليعاونوه ويشيروا عليه ، ولكنه لم يكن قد مال كل المبال الى الطريق التي يرسمون والرأي الذي يرون . وقد بدا أن عمر لم يكن يقوى على أن يسمع منهم أو من غيرهم العدل والملازمة ان عدلوا او لاموا ، وبدا أن عمر دعاهم وهو متأثر بهم حين كان غلاماً يتأدب بالمدينة ويتعلم ، فكان المثال الحسن عنده ضخماً ، والقذوة الصالحة في عينه جليلة ذات تقديس ، فكان يرى في ابن عتبة مثال الراعي الشفيق على ابله ، يقسو عليها ليجنبها مواقع الهلكة ، وكان يرى القاسم أحق الناس بالخلافة ،

(٧٧) الطبري ج ٥ ص ٢١٦

ويرى زين العابدين سيد الناس . وللناشئين الشادين والآخذين بطرف من الحياة نظرة الى القدوة والمثال غير ما ينظرون اليها اذا شبوا وكبروا وجربوا ، وقد تبدل الحال اذا صار المقتدي الشادي أميراً وحاكماً على الناس . ومع ان عمر لم يغير رأيه في هؤلاء الفقهاء ، وأقبل عليهم يستشيرهم ، فان التاريخ صمت دون ان يقص هؤلاء مع عمر اخباراً ذات بال .

وإذ بينا مال عمر اليهم هذه الميلة وأرادهم المشورة مال عنهم ميلة أخرى ، وانحرف عن طريقتهم في خاصة نفسه بعض الانحراف ، وظل يروح بين هذه وهذه ولم يسن له طريقاً خالصة يلزمها ، وراح يجمع مع العلم رواية الشعر ، ويجمع الى الفقه سماع الغزل والغناء وصناعة الالحان .

روى عن الأخطل إنشاده بين يدي عبد الملك ^{٧٨} ، وروى عن ابن الخطيم . وأذن للشعراء والرجّاز أن يقصدوه ، فأنشده 'دكين' الراجز وأعطاه عمر خمس عشرة ناقة من كرائم الابل ^{٧٩} . وجاءه نصيب وهو بالمسجد وأراد ان ينشده من مراثيه في أبيه فقال له عمر : لا تقل فتحزنني ، وطلب اليه ان ينشده غزلاً ، فأنشده فأعطاه . ثم دخل عليه 'حميد الأبحي' المسمى « أخا الخمر » لكثرة شربه لها ووصفه اياها فلم يرده وسمع لما ينشده ^{٨٠} وسمع عمر للاصوات وطرب لها ، وتنادى فصفق بيديه ورجليه ،

(٧٨) الموشح ص ١٣٧

(٧٩) الأغاني ج ٨ ص ١٤٩

(٨٠) معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٠

ثم تمادى فغنى ووضع الألحان للغناء ، ولكنه لم يجعل غناؤه ليصل به الى خصائص الامور ، وانما كان إظهار أثر من آثار علمه لحسه ، حتى يتبين النسب التي تتألف في نفسه ويظهر حكمته ، وكذلك كان تماديه جميلاً مستحسناً وإن كان فيه بعض الخروج عن العادة والألف عند صالحى المؤمنين .

وغنى عمر بصوت نديّ حسن التطريب حتى انه كان يلهمي بحسنه من انقطع في المسجد الى الصلاة . وقد رووا أنه دخل المسجد ذات ليلة فصلّى قريباً من سعيد بن المسيب ، ورفع صوته بالتلاوة ، فقال سعيد لغلامه « بُرْد » : يا بُرْد ، نَحِّ عَنَّا هَذَا الْقَارِءَ فَقَدْ آذَانَا بِصَلَاتِهِ . وتمادى عمر في صلاته وتلاوته ، فعاد سعيد لغلامه فقال له : ويحك يا بُرْد ! ألم أقل لك نَحِّ هَذَا الْقَارِءَ عَنَّا ؟ فهاب الغلام أن يقول للامير شيئاً فرفع صوته قائلاً لسعيد : ليس المسجد لنا ! فسمع عمر فأدرك فأخذ نعليه وتنحى الى ناحية من المسجد وصلى ٨١

والتلاوة الجيدة كان عمر يستحسنها ، وقد سمع لمسلم بن جندب ، وكان قاصّ المسجد وقارئه ، سمعه يقرأ القرآن ويجيد ترتيله فأعجبه حسنه فقال : من سره أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب ٨٢ .

ثم كانت في عمر بين الميلتين ميلاً ثالثة إلى الفكاهة والمزاح ، غير أنه كان مقتصداً فيها لا يخرج بها عن القصد وسيا الوقار .

(٨١) ابن عبد الحكم ص ٢٢

(٨٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٦ - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٩٦

غضبية على نفيه

وكان ميل عمر لمشورة الفقهاء خيراً له ، فلم يدعوه يسبح في ميلاته كيف يشاء ، بل أخذوا يلومونه كل من جانبه بقدر ما يرى لعله يُقصر أو يسلك طريقاً سداداً . وقد حدث أن كان ذات يوم - وهو في ولايته - يمر بالمدينة ساحباً ثوبه جاراً ذيله ، فناداه محمد بن كعب القرظي قائلاً : يا عمر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما جاوز الكعابين فهو في النار ! » فالتفت إليه عمر مغضباً وأغلظ عليه في الرد فقال له : اتق الله يا بن كعب ! لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها . ثم افترقا ٨٣

كان عمر يرّ متبختراً في مشيته العمرية في ثوب طويل مجرور الذيل ، ولم يكن عمر قد أثقله التكلف أو أحب أن ينفرد من بين الناس بما يخالفهم لينبّه على موضعه ويشير إلى نفسه ، ولكنها كانت عادة الصغر ، فلم يُجسّم نفسه تكلفاً أو يحمّلها مثونة غليظة ، فكره لذلك ما قاله محمد بن كعب .

وأما القرظي فكان يعرف عمر حق المعرفة ، وإنما أراد له المشاركة في الخير ، وحرص على أن يكون في مظهر أهل الفضل ، كما وضعت لهم السنة وفرضت الشريعة ، ولعل عمر أدرك أن صاحبه أراد خيراً وقال صدقاً ، ولكنه أسرع فاحتد فقال . وهكذا بدا أن عمر ضاق بابن كعب حين نهاه أن يجر ذيله . وغاية الظن أن عمر لم يكن يريد من الفقهاء إلا أن يرفعوا إليه مظالم الناس ويشيروا عليه حين يستشير ، أما التعرض له في خاصة

(٨٣) ابن عبد الحكم ص ١٤٦

نفسه فما كان يريدہ أو يصطبر علیہ .

الأمیر الأمیر

وما فتئ الناس یسمون عمر « بالأمیر » کلما تحدثوا . ولم یکن أحد من یغد علیہ أو یجالسه أو یخبر عنه إلا وهو قائل : « الأمیر الأمیر » حتی کاد اسم عمر یختفی من سوق الحديث ویحل مکانہ اللقب . ولقد ضاقت نفس مزاحم بن أبی مزاحم مولى عمر بما یحدث من هذا الأمر ، حین رأى عمر یغالی لنفسه والناس یغالون له ، فانتظر ربثاً تحین الفرصة . ثم حدث أن حانت مسرعةً إذ حبس عمر رجلاً ، وجاوز فی حبسه القدر الذی یجب علیہ ، فکلمه مزاحم فی إطلاقه ، فقال له عمر : ما أنا بمخرجه حتی أبلغ فی الحیطة علیہ بما هو اکثر مما مرّ ، فوجد مزاحم الفرصة قد سحبت ورأى الأمر قد جاوز حده فقال له مغضباً : یا عمر بن عبدالعزیز ، إني أحذرك لیلۃً تمخض بالقیامة ، وفی صبیحتها تقوم الساعة ! یا عمر ، ولقد کدت أنسى اسمک بما أسمع قال الأمیر قال الأمیر !

قال عمر بن عبدالعزیز : ان أول من أیقظنی لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ما هو الا أن قال ذلك ذکأنا کشف عن وجهی غطاءً ! ٨٤

مسجد المدينة

وجاء أمر الولید الى عمر بأن یوسع مسجد المدينة ، وأمره ان

(٨٤) ابن الجوزی ص ١٤٠

يُدخلُ حِجْرَاتِ الزَّوْجَاتِ بِالْمَسْجِدِ ، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ عَبْدُ الْمَلِكِ
حَاحِلَ ذَلِكَ ثُمَّ كَفَّ عَنْهُ لِأَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ حِينَ عَلِمُوا بِنَيْتِهِ فَزَعَوْا
وَضَجُّوا ، ثُمَّ رَأَى الْوَلِيدُ أَنَّ الْفُرْصَةَ قَدْ سَنَحَتْ وَعَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
عَلَى الْمَدِينَةِ لِمَكَانِهِ مِنْ أَخْوَالِهِ آلُ الْحُطَّابِ وَمَكَانُ آلِ الْحُطَّابِ مِنْ
أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ إِنَّ عَمَرَ يَجْمَعُ الْفُقَهَاءَ حَوْلَهُ ، وَكُلَّ أَوْلَئِكَ كَفِيلٌ
بِأَنْ يَرْضَى مِنْ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا مَتَى هُمْ عَمَرُ بِهِ ، فَصَدَعَ عَمَرُ بِأَمْرِ
الْوَلِيدِ ٨٥

وَبَيْتُ النَّبِيِّ كَانَتْ تَسْعَةُ ، بَعْضُهَا مِنْ جَرِيدٍ مَطْيَنٍ ، وَبَعْضُهَا
مِنْ حِجَارَةٍ ضَخْمَةٍ قَدْ رُضِمَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ٨٦ ، وَسَقُوفُهَا مِنْ
جَرِيدٍ وَقَدْ دَنَتْ بِحَيْثُ يَنَالُ الْغَلَامُ النَّاشِئُ السَّقْفَ بِيَدِهِ . وَكَانَ
لِكُلِّ بَيْتٍ حِجْرَةٌ قَدْ جَعَلَتْ مِنْ أَكْسِيَةِ مِنْ شَعْرِ مَرْبُوطَةٍ فِي خَشَبِ
السَّرْوِ . فَلَمَّا تَوَفَّى أَزْوَاجَ النَّبِيِّ وَأَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يَخْلُطَ الْحِجْرَاتِ
بِالْمَسْجِدِ ضَجَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالْبَكَاءِ كَيَوْمِ مَاتَ النَّبِيُّ ، فَأَمْسَكَ عَبْدُ
الْمَلِكِ وَرَجَعَ عَمَّا رَأَى ٨٧

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ الْوَلِيدِ جَمَعَ عَمَرُ إِلَيْهِ وَجُوهَ الْمَاسِ وَالسَّرَوَاتِ مِنْ
الْفُقَهَاءِ ، فَرَأَوْا مَا رَأَاهُ وَمَا رَأَى الْوَلِيدُ . وَشَرَّ عَمَرُ وَشَرُّ مُعَاوَنُوهُ ،
وَتَقَدَّمُوا مَعَهُ يَدُلُّونَهُ عَلَى أَعْلَامِ الْمَسْجِدِ وَيَقْدُرُونَهُ وَيَضْعُونُ
أَسَاسَهُ ٨٨ . وَأَدْخَلَ عَمَرُ الْحِجْرَاتِ بِالْمَسْجِدِ ، وَاشْتَرَى مَا بَنَوَاحِيهِ ،

(٨٥) الطبري ج ٥ ص ٢٢٢

(٨٦) الرضمة عملية في البناء ساذجة لا يراعى فيها نحت الأحجار وانتظامها.

(٨٧) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٢٦

(٨٨) الطبري ج ٥ ص ٢٢٢

ثم بنى ووسع وزخرف ، وقدم القبلة ، وجوّف المحراب ، ورفع
المئذنة ، فكان أول من أحدث تجويف المحارب في المساجد ^{٨٩} .
وحين بنى المئذنة ازدادت المآذن انتشاراً من بعده في بلاد المسلمين
تسبّها بمآذن الشام ^{٩٠}

وكان أن بدأ عمر البناء بعمال من أهل المدينة ، ومدّ يده
لمعونته في أول من مدّ مؤدبه الفقيه المحدث ذو المروءة والدين
صالح بن كيسان ، وظلوا يدأبون حتى جاءهم المدد من فعلة أهل
الشام ، ثم جاءت معونة صاحب الروم من الفعلة ومثاقيل الذهب
وأحمال الفسيفساء ^{٩١}

إصوميات شتى

ثم كتب الوليد إلى عمر أن يسهّل الثنايا ^{٩٢} ، وأن يحفر
الآبار ، وأن ينشيء الفنادق والخانات على طريق الحاج ويكثر
منها على سكة خراسان لتأمين السائرين عليها وتزويدهم بما يريدون
من الشراء ، ثم أمره أن ينشيء فوارة بالمدينة ، فعمل عمر ما أمر
به ، وعمل الفوارة وأجرى الماء في بيتها ، فبدت ذات منظر رائع
وفن معجب أنيق ^{٩٣}

فلما أتم عمر ما أمر بتشيدته وتسهيله وحفره وإنشائه جوزي
من الوليد بأن جعل عاملاً على مكة وعلى الطائف مع إمرة

(٨٩) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٧ ، ٢١٥

(٩٠) تاريخ العرب المطول ص ٢٣١

(٩١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٣

(٩٢) الثنايا جمع ثنية كفضية: العقبة أو طريقها أو الجبل أو الطريقة فيه وأوابه.

(٩٣) الطبري ج ٥ ص ٢٢٤

المدينة، ثم عقدت له عام تسعين راية الامارة على كل أنحاء الحجاز ٩٤

زيارة الوليد

وعنّ للوليد بن عبد الملك أن يحجّ في السنة الحادية والتسعين، فكتب إلى عمر بما أراد، فرحب عمر بما نوى الخليفة وما اعتزم. فلما حان له أن يجيء خرج عمر من المدينة يتلقاه في موكب عظيم، كان فيه من خاصة أهل المدينة عشرون رجلاً من الكبراء. وخرجوا جميعاً حتى بلغوا السويداء إحدى قطائع عمر ومزارعه، وكان موكباً يُلقِي حملاً ضخماً على الابل ومتون الخيل.

وأقبل الوليد راكباً لم ينزل حين رأيهم، إذ كان من عادة الخلفاء أن ينزل لهم الناس إن كانوا ركباناً، ويقوموا إن كانوا جلوساً ٩٥، ولكنّ الناس حين رأوا الوليد لم ينزلوا وأرادوا لقاءه ركباناً، فأسرع حاجب الوليد يدنو منهم ثم صرخ فيهم: انزلوا لأمر المؤمنين! فنزلوا.

ثم أشار اليهم الوليد أن يركبوا، فركبوا. ثم دعا بعمر اليه وحده فسأله حتى نزل بذئ خشب على مسيرة ليلة واحدة من المدينة ٩٦ ثم أحضر عمر أصحابه فدعاهم الوليد رجلاً رجلاً فسلموا عليه، ودعا بالغداء فتغدوا عنده ذلك اليوم.

ودخل الوليد المدينة فغدا من فوره إلى المسجد ينظر إلى بناءه، وكان قد أخلى له قبل أن يصل إليه، ولبى الناس جميعاً

(٩٤) الطبري ج ٥ ص ٢٣٠

(٩٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٩٢

(٩٦) معجم البلدان ج ٣ ص ٤٤٠

أمر عمر في مغادرة المسجد الا سعيد بن المسيب ، فإنه جلس عند القبلة كعادته لا يبالي ، ولم يجرؤ أحد من الحراس أن يخرجوه فقد مضى عليه خمسون عاماً لم تفته في يوم منها التكبيرة الأولى عند كل صلاة . وجلس سعيد في مكانه وليس عليه من الثياب الا ريطتان ما تساويان غير خمسة دراهم ، فجعلوا يتوسلون اليه أن يقوم من مقامه حتى يجيء الوليد ويخرج ، فقال سعيد : لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي أقوم فيه ! وكان بين الوليد وبين سعيد حساب .

سعيد بن المسيب

في سنة خمس وثمانين توفي عبد العزيز بن مروان بعد أن ولي مصر عشرين سنة ، وكانت له ولاية العهد من بعد أخيه عبد الملك ، عقد لهما أبوهما مروان بذلك ، فلما مات عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك من بعده لولديه : الوليد ثم سليمان ٩٧ ، وبعث الى هشام بن اسماعيل الخزومي عامله على المدينة أن يدع الناس لبيعة ولديه ، فبايع الناس غير سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال : لا أباع وعبد الملك حي !

وسعيد بن المسيب بن حزن أبو محمد الخزومي المدني كان حينئذ أحد أعلام الدنيا ، وسيد التابعين ، وواحداً من الفقهاء السبعة ، وقد رأى الدنيا تكفَى مئونتها بأربعمائة دينار ، فلما امتلكها انجر بها في الزيت وجعل يرتزق منها دون أن يقتضي من علمه مالاً ودون أن يمدّ يده للعطاء . ولما مات العبادلة صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي إلا المدينة فكان فقيها سعيد . وقد

(٩٧) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٥

جمع بين العلم والعمل حديثاً وتفسيراً وفقهاً وورعاً وعبادة، وحج
اربعين مرة الى بيت الله الحرام .

ولكن ذلك كله لم يكن ليحمي سعيد بن المسيب من غضب
عبد الملك وسخط هشام بن اسماعيل حين امتنع عن المبايعة . وكان
الشم والجلد والتشهير والقتل عقوبات مفروضة على الفقهاء في هذا
العصر : عصر عبد الملك خاصة ، ولم يكن هناك من يغتفر له
الخطأ لمكانته من الجاه أو العلم أو التعبد إذا لم يرض الخليفة أو
يغض الأمير . وقد ابتدع الحجاج للعصاة - في نظره - وسائل
الملاحاة والتعذيب والحبس والقتل . وقتل الحجاج سعيد بن
جبير بعد أن لاحاه ، وكانت أدنى كلمة بما قال سعيد بن جبير
للحجاج تفتت الصخر وتهت الجبال . وقد أمر الحجاج بضرب عنقه
ووجهه شطر القبلة وبين يدي الصلاة .

وسارت الدولة على هذا النهج . فلما أمر عبد الملك أن يبايع
أهل المدينة لولديه وأبى سعيد بن المسيب - أمر عبد الملك عامله
على المدينة هشام بن اسماعيل أن يضرب سعيداً فضربه هشام ستين
سوطاً ، وطاف به على الناس وهو في 'تبان' من صوف وعليه
مسوح ، وطاف به حتى إذا بلغ الثنية التي كانوا يقتلون عندها
العصاة ردّه حياً ، فحزن سعيد حين ردّوه لأنه ظن أنه مقتول
فلم يعارض لبس المسوح والتبان ، ولو كان علم أنه مردود حياً
لرفض أن يلبس . فلما بلغ الخبر عبد الملك قال : قبح الله هشاماً :
لأنه كان ينبغي أن يدعوّه الى البيعة ، فان أبى يضرب عنقه أو

يكف عنه ٩٨ .

وكذلك جاء الوليد على معرفة بسعيد بن المسيب ،
وجاء يحفظ له إياه لمبايعته له من قبل ، وربما ودّ
الوليد أن يرى في المسجد كل الناس غير سعيد ! وودّ عمر بن عبد العزيز
لذلك لو تنحى سعيد عن طريق الخليفة حتى يذهب ! ولكنه لم
يستطع اذ كان مضى على سعيد تقليد خمسين عاما وعادتها ، لم يناد
للصلاة في فريضة مكتوبة الا وسعيد أسبق الناس الى المسجد قبل
الأذان ٩٩ ، فلما قيل لسعيد ليخرج أو يتنحى عن مكانه عند
القبلة أبى وقال : لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي أقوم فيه !

ودخل الوليد المسجد فلم ير فيه أحدا ، قد أخلي له . ثم
حانت منه النفاتة فرأى سعيدا جالسا عند القبلة . وبلغت الحيرة
بممر مبلغها ، وعرف الوليد أنه أبى أن يخرج ، وحاول عمر أن
يفوّت الأمر . وكل مكان في المسجد كان يهون حين يجلس فيه
سعيد الا القبلة ، فقد كان الوليد مشغوفاً بأن يراها ، لأنها والمئذنة
فنه الذي ابتدعه هو وعمر تشبيهاً بآذن الشام .

قال عمر بن عبد العزيز : فجعلتُ أعذل بالوليد في ناحية المسجد
لئلا يراه ، فالتفت الوليد الى القبلة فقال : من هذا الشيخ ؟ أهو
سعيد ؟ فقلت : نعم . . . ومن حاله كذا وكذا . . . وجعلتُ أعذر
له وأقول : ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك . . . وهو ضعيف
البصر . . . فقال الوليد : قد علمنا حاله ، ونحن نأتيه - وكانت

(٩٨) الطبري ج ٥ ص ٩٠٢

(٩٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٤

سعيد قد ضعف بصره - فدار في المسجد ثم جاءه فقال : كيف
أنت أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد ، فقال : بخير والحمد لله !
فكيف أمير المؤمنين ، وكيف حانه ؟ قال عمر : ثم انصرف
الوليد وهو يقول : هذا بقية الناس ! وانا اقول : أجل يا أمير
المؤمنين ! ١٠٠

خطبة الوليد

وابتهج الوليد بما رأى في ذلك اليوم ، أو حاول أن يظهر
أنه ابتهج ، فقسم بالمدينة رقيقاً من العجم كثيراً ، وآتية من
ذهب وفضة ، وأموالاً . ومضى فوقف على الفوارة التي انشأ
عمر ، فنظر إلى بيت مائماً وتدققها منه فأعجبته ، فأمر لها بقوام
يقومون عليها ، وأمر أن يسقى أهل المسجد منها ١٠١ .

ولكن الوليد ما لبث أن طغى شعوره على مظهره فغطاه
وذهب ابتهاجه ، فقد أدرك ما في نفوس أهل المدينة منه ومن
أهل بيته فغضب ولم يكظم غيظه ، وانتظر الجمعة وذهب إلى المسجد
فصلى بالناس ثم خطب فتوعد أهل المدينة ، وزاد فغيّر التقليد
وخالف العادة فخطب الجمعة على المنبر قاعداً ! ثم ترك المدينة
من قريب .

ولم تكن 'خطبة الوليد الا نفخاً في وقود ، فانكشف بها
الرماد الرقيق عن 'الجمر فالتهب ، وانقلب أهل المدينة يعانون

(١٠٠) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣ - البعقوني ج ٣ ص ٢٩ -

الطبري ج ٥ ص ٩١

(١٠١) الطبري ج ٥ ص ٢٤

الغضب عليه ويزيدون ، وكان غضب أهل المدينة عليه جديداً على قديم ، أما الجديد فإنه خالف التقليد وقعد وهو يخطب تكبراً وغلظة عليهم ، وقد انزل وجوه المدينة الركبان وجرحهم وراءه حتى تفضل فدعاهم للغداء معه بذي 'خشْب' ، وقد طرد الناس عن المسجد حتى يكون له وحده ساعة يزوره ، وحبذا إباء سعيد بن المسيب عليه فلم يخرج .

وقد وهب الوليد الرقيق والذهب والأموال لسادات الناس ليتراضهم ، أما الفقراء فلم يأخذوا شيئاً لأنه لم يبال بهم ، واشتعل لهب الغضب في المدينة ففتحت أبوابها لمن يطردهم الحجاج أو يفرون منه ، فرداً بمد فرد ، ووفداً بعد وفد ، وتلقاهم أهلها يؤثرونهم على أنفسهم كعادتهم ، واندفع عمر ابن عبدالعزيز في تيار النفوس وغضب معها ، فتغاضى عن الوافدين ، ثم مدّ يده اليهم بالاحسان ثم بكى لهم وانحنى عليهم ، وكتب الى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه للدماء ، وخوفه عواقب ما يفعله بأهل العراق ١٠٢

وجاء الموسم الثاني في السنة الثانية والتسعين ، فعقد الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف ، وان يمرّ بالمدينة وهو يغدو للحج . وكتب الى عمر بذلك ، وعرف أهل المدينة فهاجوا ، فكتب عمر الى الخليفة يستعفيه ان يمرّ الحجاج به ، فان النفوس تغلي عليه . وخاف الوليد طغيان الأمر فأمر الحجاج ان يجاوز المدينة في

طريقه ويسلك الى مكة من طريق أخرى ١٠٣

وكذلك نَزَّذ الوليد نصفَ الأمر الذي أرادَه فإنه لم يمنع الحجاج جملة من إمرة الحج ولكنه منعه أن يمرَّ بالمدينة ، ومن ثم أصبح في نفسه شيء من عمر أو ثبت هذا الشيء الذي كان في نفسه منه ، وقد تاجلج به حين زار المدينة في العام السابق ورأى غضب أهل المدينة عليه وعصيان سعيد بن المسيب واعتذار عمر له ، فلما كتب له عمر بما كتب وثق بما تاجلج في نفسه من عمر ، وانتظر له !

وانكشف الحجاج على ما كتب عمر للوليد فاضطغنه عليه ، فجعل يشمَّ أنفاس الحجاز ويقبض صدره لها . فلما رجع كتب للوليد بما اضطغن وانقبض ، وجعل يشكو عمر ويدسَّ له ويحرِّض عليه ويقول له : إنَّ كثيراً من مرَّاق أهل العراق قد جَلَّوْا عنه ولجَّأوا الى المدينة ومكة ، وان ذلك وَهَنَ وضعف ! وما زال الحجاج بالوليد حتى صدَّقه في عمر وأذعن له ، وأرسل اليه يستشيرَه فيمن يوليه الحجاز اذا عزل عنه عمر بن عبد العزيز .

مفتروا الطبري

ولم يفتن عمر للأمر كله وإنما أحسَّ بشيء في نفس الوليد ، فرأى أن يرضيه ليتوكله الوليد يمضي على خطته في الحجاز ، في ظلال هذا الرضا المكسوب . وأخذ الوليد يجرب عمر ليَرَى أينفد كل أمره ويرضيه ؟ فاندفع عمر ينفذ له كل أمره : أرسل اليه الوليد أن يضرب على المدينة بعثاً فصعد عمر بالأمر وأخرج

(١٠٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤

منها ألفي رجل للقتال . ثم كتب الوليد الى عمر أن يضرب رجلاً
مائة سوط فصدع عمر بالأمر وضرب الرجل ولم يرع فيه حقاً ،
وكان له صاحباً وكان الله عليه كرماء .

وأصيب الرجل المضروب او أصيب عمر بحظ سيء ، فقد
كانت في نفس عمر ضغينة عليه ، ولكنه أخذ ناراها حيناً ، لأن
الرجل حين كان أغضب عمر من ذي قبل لم يتعدّه الى احد آخر .
ولكن الرجل اخذ يوغل فيما يغضب ، وتعدّى فأغضب الخليفة
وأغضب بني أمية جميعاً . وجاء امر الخليفة بضربه حين اشتعل
أوار الخصومة بين عمرو وبين الحجاج . وأحسّ عمر ان الهوة تزداد
عمقاً واتساعاً بينه وبين الوليد ، فلم ير عمر بداً من ضربه ليطفىء
ضغينته عليه وليهوّن من جفاء الخليفة ويكذب رأي الحجاج فيه .
وهكذا صار الأمر كله الى الخطأ والحدة وسوء الحظ ، وضرب
عمر الرجل وصب عليه ماء بارداً وجسده يلتهب بالحمى فكزّ
الرجل فمات .

يوم كتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وادخال
الحجرات فيه ثم بنائه وتوسيعه ، وصدّع عمر بأمر الخليفة فبدأ
بهدم الحجرات - حزن أهل المدينة حزناً شديداً . ومع أن عمر
اصطحب معه السروات من الفقهاء فإن أهل المدينة لم يغتفروا لعمر
أن يحو ذكريات الزوجات وبيوت النبي على عجل ، ولكنهم
سكتوا . وجاء خبيب بن عبد الله بن الزبير الى عمر فقال له :
نشدتك الله يا عمر ان تذهب بآية من كتاب الله تقول « ان الذين

ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . « ١٠٤
وقلوب اهل المدينة كانت تحقق مع خبيب ، فإنه مع ما كانت
عليه حجرات الأمهات من ضعف وفقر ، كانت عزيزة على النفوس
ان تزول ، وقد رجوا ان تظل قائمة لا تمس . ويُعْفَر لهم ما
احبوا ، لأنهم اهل زمانها . ولو تركت الحجرات حتى يبعد الزمن
وتنسى الذكريات الموائل — ما كان على الولاة الذين يهدمونها
من لوم ، ولم يتشبث الناس !

ولكنّ الناس حزنوا ، وكان خبيب بن عبد الله اشدّ الناس
حزناً واكثرهم جرأة واقداماً ، فسار الى تعنيف الأمير ، ولم
يقعه ان الامير ذو حدة ، ثم صار بقوله الى التهم به لا العظة له
كما فعل القرظي من قبل ، ولم يخفه ان عمر كان اعرف الناس
بوجوه الكلام والقدرة عليه .

ثم لم يكن في قدرة عمر ان يجتمل اللوم والتهم ، فحين طلب
خبيب الى عمر ان يذهب بآية الحجرات من كتاب الله كان
مسرفاً على عمر ، اذ ضمّ الحجرات الى المسجد افضل لهنّ وابقى ،
ولكن عمر تلقى تمّكم خبيب به بوجه واصطبارة حتى تحين
فرصة للعقاب .

ثم حان لعمر حين اختلط الامر بينه وبين الحجاج ، وبينه
وبين الوليد — حان له ان يعاقب خبيباً ، فضربه مائة سوط كما
امر الوليد .

وكان خبيب اسنّ ولد عبد الله بن الزبيو ، وكان قد لقي

العلماء وقرأ الكتب ، وقالوا انه تعلم علماً كثيراً غريباً لم يكونوا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه ، يشبه ما كان يدّعي الناس من علم النجوم . وكان خبيب يتكهن بالشيء فيقع . وكان مع كل ذلك فاسكاً نزر الكلام طويل الأناة عند الصلاة ١٠٥

ولم يكن عمر بن عبدالعزيز مع استعانته بمشورة الفقهاء حين حكم المدينة ، وحين بنى المسجد ووسّعه - لم يكن عمر يُذكر حين ذلك بكثير عدل ولا زهد ١٠٦ ، بل كان رجلاً يعني إهزئته وكان يمتليء الجسم رِيَّان . قال يونس بن ابي شعيب : شهدت عمر بن عبدالعزيز وهو يطوف بالبيت وان حُجزة ازاره لغائبة في عكته ١٠٧ ، فلما طلب اليه خبيب أن يذهب بآية الحجرات غضب عمر وامسك . واستمر خبيب يغلو حتى حدث عن النبي انه قال : **« إذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولا »** .

وسمع الناس في المدينة قول خبيب فلم يهتموا له ، فعندهم امثاله ، ولكن الخبر طار حتى بلغ سمع الوليد ووطىء فراشه ففزع له ، وخيل للوليد أن الناس قد سمعوه في آفاق الارض فلم يغادره رأيه حتى كتب الى عمر بن عبدالعزيز - وهو مغيط عليه - أن يضرب خبيباً مائة سوط ، ثم يدفع به من بعد الى السجن ، ولو ترك الوليد أمر خبيب دون ان يفزع له لما صار لحديثه من

(١٠٥) ابن الجوزي ص ٣٤

(١٠٦) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢

(١٠٧) حجة الازار معقده ، والعكن ما انطوى وتثنى من لحم البطن . -

صفحة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

الثأن ما صار له من بعد ، فإن عقوبة خبيب ذاعت ، وذاع معها قوله وحديثه ، وصار للناس تسليّة بين الاحاديث .

ولو كان عمر يعرف ما يدور بين الوليد والحجاج ، وما يستشار فيه الحجاج فيمن يتولى الحجاز بعده لما ضرب خبيباً ، ولكنه لم يكن يدري ، فجاء به وضربه مائة فمات خبيب ، ولو راجعَ عمرُ الخليفةَ ، او رجع الى شروطه عليه حين قبيل إمرة المدينة ، او احتال فخفف السياط لما مات خبيب ، ولكنّ خيال القطيعة بينه وبين الوليد بسبب الحجاج كان مجوم حوله ، وتهمة بأنه يؤوي اعداء الوليد من العراق أثارت حدته فوقع في أمرٍ ليليس ، فنسي ، واجتهد ان ينفي التهمة فضرب خبيباً ونفذ فيه العقوبة وقسا عليه .

ورأى عمر حين ضربه انه التهاب بالحمى ، ولكنه دعا به وبرّد له ماء في جرة وصبّها عليه امام المسجد في غداة باردة شاتية فكزّ فيها خبيب وييس وخرّ مغشياً عليه ، ودخل في النزاع ١٠٨ ، ثم أمر عمر به فنقل الى دار عمر بن مصعب ببقيع اهله ، ومضى عمر الى دار مروان .

وبينا اهل خبيب جلوس حول جثته جاءهم رجل من خاصة عمر يقال له الماجشون ، يستأذن عليهم - وخبيب مسجى بشوبه - فقال عبدالله بن عروة : ائذنوا له . فلما دخل قال عبدالله : كأن صاحبك في مربة من موته ؟ اكشفوا له عنه . فكشفوا عنه ، فلما رآه الماجشون ميتاً انصرف الى دار مروان ففرع الباب

ودخل ، فوجد عمر مضطرباً قائماً وقاعداً ، فقال له عمر :
ما وراءك ؟ قال : مات الرجل ! فسقط عمر الى الارض فزعاً ،
ثم رفع رأسه يسترجع ويندم على ما كان !

عزل عمر

ولم يزل الندم بعمر حتى منعه من عيشه الناعم ، فاستشعر
مسحاً سبعين ليلة ، وانتابته نوبة من الجلود والذهول ، وطفى
حزنه عليه وكاد يقتله . أما آل خبيب فلم يعودوا على عمر فيما
فعل وعدوه قتلته خطأ . واما الناس وخصومه منهم فقد عدوها
غلطته الكبرى ، فكان اذا غضب منه رجل ذكرها له فانكسر
عمر ، وكان كلما احسن الى اهل خبيب قال الناس : دية خبيب .
واما عمر فكان كلما صنع خيراً وبشره اصحابه بالثواب والجنة
قال : وكيف بخبيب على الطريق !

فلما كاد عمر يتلف من الجزع ، وعلم القاسم بن محمد بن ابي
بكر بجزعه وتلفه ذهب اليه يخفف من حزنه ويمسح من بلواه ،
واخذ يردّه الى التوبة ويحسن له من التعزية فكان فيما قال له :
أعلمت ان من مضى من سلفنا كانوا يحبّون استقبال المصائب
بالتجمل ، ومواجهة النعم بالتذل ! وكأنما عمر كان يبيت على
لهفة من تعزية وشوق الى سلوى ، فنصل من ثوبه الحزين وراح
من عشية يومه في مقتطعات من حبرة اهل اليمن ، شراؤها
ثمانئة دينار ، وفارق ما كان يصنع^{١٠٩}

وفيما كان يعود الى حاله من الأبهة والزينة جاء كتاب الحجاج

(١٠٩) ابن الجوزي ص ٣٥

الى الوليد يشير عليه برجلين يتوليان إمرة الحجاز بعد عمر ، خالد
ابن عبدالله القسريّ على مكة ، وعثمان بن حيان المرّيّ على
المدينة ، فاستحسن الوليد مشورة الحجاج ومضى في غلوائه
فأرسل الى المدينة بعزل عمر ، فعزل ولم ينفعه موت خبيب !

عمر بن عبد العزيز

وجاء عثمان بن حيان المري يتهدد اهل المدينة ويقول لهم :
ان عندي يا اهل المدينة خبيرة من الخلاف ، والله ما انتم بأصحاب
قتال ! فكونوا من احلاس بيوتكم ، وعضوا على النواجذ ، فاني
قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، وانكم في فضول
كلام غيره الزم لكم ، فدعوا عيب الولاة ، فان الأمر يُنْقَضُ
شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة ، وان الفتنة من البلاء ، والفتن
تذهب بالدين وبالمال والولد ١١٠

ثم التفت عثمان بن حيان الى اهل العراق مؤثراً الهوى ، ولم
يدع احداً منهم تاجراً ولا غير تاجر الا اخرجهم من كل بلد حتى
صاروا في الجوامع والطرقات ، واقسم يقول : إني والله لا اوتى
باحد آوى احداً منهم او اكراه منزلاً إلا هدمت منزله وانزلت
به ما هو اهله ١١١

قال سعيد بن عمرو الانصاري : رايت منادي عثمان بن حيان
ينادي عندنا : يا بني امية ، برئت ذمة الله من آوى عراقياً ،
وكان عندنا رجل من اهل البصرة له فضل ، يقال له ابن سواده ،

(١١٠) الطبري ج ٥ ص ٢٥٩

(١١١) الطبري ج ٥ ص ٢٥٨

من العباد ، فقال : والله ما احبّ ان ادخل عليكم مكروهاً ،
وبلّغوني مأمني . قلت : لا خير لك في الخروج ، ان الله يدفع
عنا وعنك ! قال : فأدخلته بيتي .

وبلّغ عثمان بن حيان فبعث احراساً ، فأخرجته الى بيت
اخيه ، فما قدروا على شيء ، وكان الذي سعى بي عدواً ، فقلت
للأمير : اصلح الله الأمير ! يؤتى بالباطل فلا تعاقب عليه ؟ قال :
فضرب الذي سعى بي عشرين سوطاً ، وأخرجنا العراقيّ فكان
يصلي معنا ما يغيب يوماً واحداً ، وحديث عليه اهل دارنا فقالوا
موت دونك ! فما برح حتى عزل الحبيث .

ولم يكن كلّ ما فعله عثمان قولاً ، وانما بعث الحرس والجلالوزة^{١١٢}
يبحثون عن الناس ويسوقونهم الى السجون ، فاذا ابصروا ومضة
رجل عراقي اختطفوه كالبرق ، واذا جاءوا بنحبر رجل يؤوي عراقياً
دهموه وسجنوه . وكما فعل عثمان بن حيان بالمدينة فعل خالد القسري
بمكة ، وبلغت يد الحجاج الحجاز ، وتمنى الناس يوماً من ايام عمر
فلم يجدوه .

(١١٢) الجلالوزة : الشرطة

منزل السَّوْدِيَّاء

رملة ابل

خرج عمر حين أُعْغِي من المدينة او عزل عنها كأنه يستخفي .
خرج في شعبان من سنة ثلاث وسبعين ، وخرج في غير موكب ذي
الثلاثين بعيراً الذي كان قد دخل به يوم ولي امرها ، واصطحب
معه في خروجه ولأه الفقيه التقي الصالح مزاحم بن ابي مزاحم ، وخرج
عمر والمدينة تتمثل في ذهنه وتترأى امام خاطره وتلهف نفسه
عليها ، ولو كان خروجه نهاراً لما غاب طرفه عنها حتى تغيب في
لجة البادية من خلفه ، ولكنه خرج ليلاً والظلام يغرقها ويمحق
معالمها ، وكانت وهي تغيب عنه في الظلام كأن لم تغب ، فهو
يحفظها في صدره فيراها قوماً قوماً وحياً حياً وداراً داراً ،
الاشراف والموالي والتجار والعمال وباعة الحَبَط والحَمَط ١١٣
وكل الناس .

وما كادت قدمه تنتقل عنها ، حتى تذكر قول رسول الله

(١١٣) الحَبَط ورق ينفض بالخبايط ويحجف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره
ويضرب بالماء حتى يتلذج فتوجره الابل تداوي به . والْحَمَط الحامض أو المر من
كل شيء .

صلى الله عليه وسلم : « والذي نفس محمد بيده ما خرج أحد من المدينة
ورغبة عنها الا ابدلها الله خيراً منه او مثله » ، او تذكر قوله :
« المدينة تنفي خبيثها ، فاضطرب قلبه ومال الى مولاه مزاحم يقول
له : يا مزاحم ، نخاف ان نكون بمن نفت المدينة ! ١١٤

وكان مزاحم متشائماً او نزعت نفسه الى التشاؤم ، فكاد يختلج
في مجور المظنة ، ثم اخطأ فرأى حظه وحظ عمر في معارج القمر
ومطالع النجوم ، وكان الليل قد اطلع القمر مستوي الدوران
باهر الضوء ، ولكنه كان ينزل بدارة من دارته يقال لها الدبران ١١٥
كانوا في الحرافات القديمة يقولون انها مطلع هزيمة ومنزلة شؤم .
وبينا عمر ومزاحم يمضيان في الطريق التي كان مهتداً عمر من قبل
فعُدَّ لثناياها وسوى عقابها - نظر مزاحم الى القمر فعرف المنزلة وظن
الهزيمة ، فارتجف قلبه ، ولكنه كتم ما به ، واحب ان يترفق بعمر فلا
يطلعه على ما عرف ، وخاف ان تأمل عمر القمر ان يتنبه الى منزلة
الدبران فيزيد حزنه ، فأجمع امره على ان يلفت نظره الى ضوء القمر
وتغام استدارته - حسن طلعتة ، ليصرف عمر نفسه اليها ، فقال له :
الا تنظر الى القمر ! ما احسن استواءه في هذه الليلة ! فنظر عمر
فعرف ما وقعت عليه نفس مزاحم .

(١١٤) الطبري ج ٥ ص ٥٦

(١١٥) الدبران منزلة من ثمانية وعشرين نجماً من امات المنازل ، والدبران
الكوكب الأحمر الذي على اثر الثريا بين يديه كواكب كثيرة مجتمعة ، من أدناها
اليه كوكبان صغيران يكادان يلتصقان ، يقول الأعراب هما كلباه والبواقي غنمه
أو نياقه ، وسمي بالدبران لأنه دبر الثريا أي خلفها ونوؤه ثلاث ليال وقيل بل هو
ليلة وهو غير محمود عندهم - الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٣١٥

ولم يكن عمر جاهلاً بمنازل القمر ولا بنفس مزاحم ، ونفس
مزاحم كانت في حزن واضطراب . ولا ينظر الحزين الى الأشياء
الا من جانبه الحزين ، فنظر عمر ما استكن في نفس صاحبه وما
خبأه عنه فقال له : كأنك اردت ان تعلمني أن القمر بالدبران ؟
فلم يجب مزاحم ، فقال عمر : يا مزاحم ، انا لا نخرج بشمس ولا
قمر ، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار ! ١١٦

واستمسك عمر دون صاحبه وطرح عن نفسه التشاؤم ومطالع
النجوم ، فلو كانت الأمور تجري وراء التفاؤل والتشاؤم لنامت
الجهود وانطفأت وقدرات النفوس ، وما خرج عمر من المدينة الا
لأمر بيته ، وسيمضي فيه ، حتى لو نزل القمر واقام طول عمره
في الدبران !

وان عمر ليعلم انه لا طير الا على متطير ، وانما هو شيء
يوافق شيئاً احياناً ، وباطله كثير ، او كله باطل ، وانه ليعلم ان
الاسلام اثبت الفأل واستحسنه وابطل الطيرة ونهى عنها . ومع
ان النفوس تميل الى شيء من الباطل ساعة تأزم بها الامور فإن
الامور الكائنة تحت من نفس عمر اشتياقه الى فأل او زجر من
اشكال القلـك ، ولو استسلم عمر حينئذ لوجوه الاستدلال من
حركات النجوم وعدل الى التكهن لصدق بكثير من الظنون
والأباطيل ، ولكنه خرج من المدينة لشيء غير ذلك كله . انه
خرج ليُعْمِل رويته ويرسل فكره ، ولا غنى له عما اراد الا اذا
اراد ان يظل لثقى تلعب به الأيدي وتستخف به النفوس

(١١٦) ابن عبد الحكم ص ٢٨

والأبصار !

ومن ثمّ اخطأ مزاحم واصاب عمر ، لأنّ الوالي المعزول كشف عن عينيه الغطاء ، وافاق من نومه ، ثم ارتحل يعدّل الثنايا التي لم تتعدل ، ويحطم العقاب التي لم تتحطم ، ولكن بعد ان يجلس نفسه ويتألم ، ثم يتعلم الفقه الاكبر الذي لم يتعلمه من قبل ، فان الفقيه الصغير خليق ان يتحطم كالجاءل على انياب الصخور اذا لم يتسلقها خفيفاً ، او يسبح عليها طائراً !

وانطلق عمر ومزاحم في طريق الخارج الى الشام حتى اتيا مقاطعة السويداء ، فنزل عمر الى داره بها ، ثم لزمها مفكراً يتذكر ، ولعل اول ما ذكره حين ذلك وصية ابيه عبد العزيز له اذ قال : اتق الله وأحسن نيتك في عملك فانه لا دين لمن لا نية له ، وأحسن تدبير مالك فانه لا مال لمن لا تدبير له ، وارفق بمن تعامله لانه لا عيش لمن لا رفق له ، وتجاوز في شهواتك فانه لا عقل لمن لا يغلب هواه ١١٧

الفقه الاصغر

ولم يرَ عمر ان يبقى بالمدينة ليلقى كيد الوليد ، او يستمع لما يُرَجَفُ الناس به ، او يرى الكيد لاهل العراق واهل الحجاز بعينه دون ان يستطيع الدفاع عنهم ، فرأى ان يخرج من المدينة ليخلو الى نفسه ويرجع اليها ، لعله يجد سبيلاً الى الراحة مما لحق به . وكان عمر قد اصبغ من قبل عالماً محدثاً وفقهياً مجتهداً دونه اكثر فقهاء الحجاز وكل فقهاء الشام والآفاق ، ولكنّ الفقه والعلم

(١١٧) الحكمة الخالدة ص ١٨٥

والاجتهاد - لم يكن كل ذلك ليصونه من الاخطاء او ينجيه من الزلل ولا سيما حين ينزوي الفقه في صولة الحكم ويرتدي العلم الغنى ثوب الولاية ويمسك بعصا السلطان .

كان عمر يعرف كل ذلك الفقه الاصغر ، كان يعرف الجدل والمناظرة والخصومة ، ويشتط في ضرب الرأي ويقسو في انفاذ العقوبة ، ولكنه لم يكن يعرف حرفاً واحداً من الفقه الاكبر الذي عرفه فيما بعد ، وصار يوحى به الى الناس ليعلموه اولادهم :
القناعة وكف الأذى ١١٨

الظلم الشامل

وحين رجع عمر الى نفسه رآها كآلة القديمة الصدئة لا تدور الا اذا تكشف عنها الصدأ وبلتها الزيت ، ففطن الى معانٍ في العظائم والوصايا لم يكن فطن اليها من قبل ، ونظر في وصية ابيه له فاذا هو لا يدري طريقاً اختطها ولا سبيلاً رسمها ولا نية انتواها . ونظر فاذا هو لم يحسن تدبير ماله فانه كان ينفقه كله في الثياب والطيب ، بل ان هناك ما هو افدح واشد كرباً ، ذلك ان المال الذي ينفقه على نفسه ليس له حق فيه ! ثم نظر فاذا هو لم يرفق بمن عامله ، واذا هو قد بالغ في القسوة فضرب على المدينة البعوث ثم قتل خبيلاً ، ثم نظر فاذا هو لم يتجوز في شهواته فغنى وطرب وصدق وترغ ورد نصيحة القرظي له حين جرّ ثوبه ، ثم ذابت عند الوليد كل القرايين التي تقرب بها اليه .

(١١٨) ابن الجوزي ص ٢٣٩

ثم انطلقت نفس عمر من محبسها ، وخرج من ذاته الضيقة ونظر حوله فاذا المدينة قد عادت تحت وطأة الولاة القساة وكادت تودع الحياة او عاد الحجاز كله تفارقه الروح ، ثم دار ببصره فوق الأرض كما تدور عين الشمس وجعل يتأملها بلداً بلداً فاذا نار المظالم تتأجج ، واذا البلية غامرة واذا عالم بكامله يصرخ من ضياعه ، وأمة عن بكرة أبيها تفقد ذاتها ، واذا أحد من القادرين لم يفعل شيئاً لهؤلاء العباد واذا الأمراء منصرفون عن رضا هؤلاء لارضاء الوليد وعمر كان معهم ، ثم تعاظم الوليد فلم يرض عن عمر حتى بعد أن أغضب الناس .

وكان الوليد بالشام قد سلط أولاده على أهل حمص يأكلون أموالهم وينتهبون أراضيهم ويمتلكون حوائيتهم : عمر وعباس ورواح أولاد الوليد كل منهم أصاب أهل البلد بغرم فادح ، وأبوهم يعينهم على المنهبة ويكتب لهم بها السجلات . وراة عمر قد أساء الى نفسه وولده فتزوج من الجوارى من ليست له بكفء فأولدها الجارية المستكبرين ، وراة ولتى على بعض الجند من أولاده من ليست له كفاءة الا أنه ولده وهو يحبه .

والحجاج بن يوسف بالعراق وما وراءه يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وقد أصاب أهل العراق منه ومن ولادة بني أمية أكثر مما أصاب غيرهم من المظالم ١١٩ ، وقد أمر الحجاج السيوف على الخلاقيم ، فالعراق كله يخور في دماثه ، وقرة بن شريك بمصر أعراي جلف ، قد أخذ المعازف واللهو والشراب

بأذن من الوليد ، أما المصريون وأموالهم فله حلال ونُهبي . ومحمد
ابن يوسف أخو الحجاج الثقفي على اليمن . وعلى مختلف البلدان
أمثال هؤلاء العمال . ومظالمهم تزداد وتربو كلما ازداد زمانهم وربما
سلطانهم ، وكانوا كما قال العتبيّ فيهم : وتخلّق الأمراء بأخلاق
العوام ، فصار لهم رفق في اللؤم وخرق في الحرص ، لو أمكنهم
قامموا الطير أرزاقها ١٢٠

فكان عمر كلما تنقل خاطره بين هذه البلدان فرأى أولئك أمراء
الناس فزع وهاله الأمر فدعا الله قائلاً: امتلأت الأرض - والله -
جوراً ، فأرح الناس ! ١٢١

أول التوبة

نظر عمر في ذلك كله ، وفيما هو أكثر منه ، فاذا هو عي لا
يرى للداء براء ، إلا أن يتولاه رجل من غير الطراز الذي هم
عليه ، ونظر الى نفسه فرآها لو استصليحت لقدوت على الشفاء
والبرء ، وما لم يبدأ هو بنفسه ليكون قدوة ومثالا فلن يكون
للناس صلاح !

ولم تكن هذه التوبة الأولى التي انتابت نفسه ، ولكن التوبة
كانت تراوحه الحين بعد الحين ، والخير يطلع على نفسه مطلعاً بعد
مطلع . وقد قالوا ان أول توبة تأم كانت وهو غلام قد استوت
حدائته واكتمل عنفوانه ثم ضرب حين ذلك عبده الأسود ثم
أطلقه حراً حين حاجه العبد فغلبه ، ثم راوحت التوبة حين قتل

(١٢٠) عيون الأخبار ج ٣ ص ١٨٢

(١٢١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٥ - النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨ ، ٢٢٣

خبيباً ولبس المسوح السود ، فلما راجعه القاسم بن محمد راح في مقتطعات يمنية ، وهكذا ظلت التوبة بعد التوبة رَوَاحاً يراوِحه ثم يبتعد ، فلما عزل عن المدينة عاودته التوبة في نوبة لازمة ولم ترح عنه ابداً .

ورأى عمر نفسه مطوية الضلوع على ظم ، ويده قابضة على مظالم ، رآه يملك أرضاً لا يستطيع حصرها ، وأكثرها لم يره بعينه ولم يبذل فيه جهداً أو يستنبط ماء أو يجني ثمرة ، وإنما قد جاءه كله حظاً وميراثاً وهبات ، ورآه يملك هو وبنو أبيه أرضاً في كل أرض ، ولا سجل لها في أيديهم ، وإنما وجدوا أنفسهم 'ملاكها ينفقون في إصلاحها ويغفلون من ثمارها . أما الناس فضياع هلكى لا يملك أكثرهم أرضاً تغل ولا بيتاً يسكنون إليه

ورآه يلبس الديباج والخز ، ويأكل الطيب من الطعام ويتملاً ويتطيب ويدهن حتى تنسخ طينة كتابه من العنبر ، والناس في آفاقها يعرفون ويجوعون ، ولا ماء لهم يغسلون منه ويشربون ، فودّ عمر لو جاءتة الخلافة وصحّت رؤيأجده عمر بن الخطاب ليخرج من ذلك كله : يخرج من الثياب حتى يكاد يعرى ، ومن الطعام حتى يجوع ، ومن المال حتى لا يكون في الأرض فقير مثله . ودّ ذلك واستحسنه واستقر عليه ، ثم ما زال يستحسنه ويمكّن له حتى صار ملته واعتقاده ، وبينما كان يراود نفسه كانت تنجذب بين قواها ، فصار يقوّي رأيه ويشد من عزمه حتى غلب شهوته وسيطر على غضبه ، وبعد طول معالجة وإدمان تقويم صار يعتزم ويعمل ويعتاد

حتى حصل على الخلق الذي يريد ، ثم نوى ، فلم تبق الا كلمة
الحظ والقدر يقولها اذا شاء وحين يشاء !

وكانما صار عمر باديء ذي بدأة ذا بصيرة ونفاذ ورأي حكيم
حين عرف الفقه الاكبر ، وكان عمر أحكم رأياً وأعظم فقهاً إذ لم
يرَ أن يخرج من فوره من ماله وطعامه وطيبه ، وقد كانت من
الخطأ أن يخرج في حينه الى الزهد ، فان النفوس أماره ، وان
الأمرء بالمرصاد ، ولن ينفعه ذلك أو ينفع الناس . فكتم أمره
ونبته حتى عن مزاحم مولاه ، لئلا يفرع الطامعين ، وقد عرف
أنه لا حيلة للأمة إن طلب اليها أن تجمع نفسها ، بل اعلمها لا
تقبل ، إذ يشيئ الأمرء رعاع الناس ويستعدون الجهلاء ، فلا حيلة له
في عمل شيء ما لم يأت من طبعه . وانتظر عمر لعل الله يحدث
بعد ذلك أمراً !

وبدأ عمر يأخذ نفسه رويداً رويداً بالعفة والاعتدال والنصح
متحمساً في كل ذلك . وكان من الخطأ ألا يبدأ بنفسه حتى يصنع
منها المثال والقدوة . وكان هناك ما هو أكبر من الخطأ ، وذلك
اذا تظاهر عمر بالتقشف والزهد ولبس ثوب النصيح دون أن يتخذ
لنفسه حقائق هذه الاشياء ويجعلها لزاماً له ، لأنه ما من مستور
إلا وهو ينكشف ويظهر ، وإن للرعية مهبط طغت عليها الجهالة
لعيوناً تبصر وقلوباً تدرك ، فاذا لم ينكشف المحبوء ويصر عياناً
خاضت فيه الرعية ظناً وشبهة . ومن سوء حظوظ الرعاة انهم
يؤخذون بالشبهة والظن كما يؤخذون بالعيان ، بل الظن أوسع
طعناً وأسوأ عاقبة وأشد نبلاً !

وكذلك اهتدى عمر الى الصواب كله ، فاتخذ العقيدة ، وجعل
يوغل في الايمان بها وبحطم من حدة نفسه ويكسر من غلوائها
فلما حانت الفرصة انطلق كالعاصفة أقسى دورتها حول نفسها ، فاذا
ابتعدت أخذت تهدأ ، فاذا كانت في الأطراف لم تحس إلا انها
ريح أو رخاء .

ثم أدخل عمر الأمراء وكلّ ذي سلطان في حسابه على اختلاف
مراتبهم وبلدانهم ، كما دخل هو في حساب نفسه . وقد عدّ الأمراء
والعمال والقضاة ملوك الناس . وحين أخذ يعدّ ما في أيدي الأمراء من
المال فزع وارتعب ، لأنه رأى المال يسيل من أطراف البلدان كلها
اليهم ، حتى جمعوا في أيديهم شطر المال أو ثلثيه . جمعوا في أيديهم
نصف مال الدولة أو ثلثيه ! وكان النصف الآخر أو الثلث الباقي
يُنْفَق بعد ذلك على ما يشاء الخليفة ويشاء الأمراء . وانتظر عمر
الزمان حتى يجود وتفلت من يده ساعة تجري لهذه الأمة المنكودة
بخط سعيد وقدر لطيف !

أما علماء الأمة فمقصيئون ، وأما صلحاؤها وعبادها فطرداء
وقتل ومحبوسون ، ولم يكن لمظلوم أن يشكو ، ولا سيما اذا
كان الظالم أميراً ، فاذا كان الخليفة فانه لا يُقاضى ولا يتّهم ولا
يخاطب باسمه ، وهكذا سنّ عبد الملك بن مروان مراسم الأبهة ،
فالملك فوق القانون . وكان عبد الملك يقول : لا ينبغي لخليفة أن
يناشد ولا يكذب ولا يسميه أحداً باسمه . وجرى في إثره
ابنه الوليد .

وكذلك كان مقتل خبيب بن عبد الله وعزل عمر عن المدينة
 نعمة نزع عن عمر ثوب الفتنة ، ونجى بنفسه من التيار الجارف ،
 وأبرمته بالظلم ، فتهيات نفسه للعدالة والرحمة ، وعافت المظاهر
 إذ شبت منها ولم تغن شيئاً ، ومهدتها للزهد والتقشف دون أن
 تحس لها غير اللذة والرضا . ولم يعد عمر يخطو خطوة إلا وهو
 ينويها ويقدر لها ويعرف ما بعدها ، وقد شهد له بذلك هشام بن
 عبد الملك إذ قال : ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها
 نية ١٢٢

إلى دمشق

فلما تم له اليقين واستوت لديه الإرادة شتم مع مزاحم يدع
 السويداء ويريد دمشق ليقم بها ويقتحم على الوليد مجلسه ويقلق
 جنبه ، وقديماً كانت له تجربة جريئة بنصح عبد الملك حتى
 أغضبه ١٢٣ . فلما كان بدمشق مقبلاً لم ير الوليد بداً من أن يقربه
 إليه لصلاته به من القربى والصهر ، ولم ير بداً أن يستنصحه في
 بعض الأمر إذا حزب ، أو إذا حانت للخليفة ساعة رضا ولين ،
 ولعله قربه واستنصحه ليكفّه عنه ، ولم يكن الوليد قد قطع ودّه
 كله بعمر وإنما كان قد تغير عليه . وعمر كان فقيهاً محدثاً مجتهداً
 لقيه أهل الشام يحسبون أنهم علماء فرأوا أنفسهم تلاميذه . فاتخذ
 الوليد الرأي والفتيا .

(١٢٢) ابن عبد الحكم ص ٣١

(١٢٣) ابن الجوزي ص ٣٦

عمر والوليد

أما عمر فأقبل على الوليد متغيراً خشناً ينصحه في ولاته وعمله
كلما سنحت له الفرصة، ويعنف عليه في النصح ولا يبالي أن يغضب
أو يتمزق غضباً . وذات يوم قال عمر للوليد : يا أمير المؤمنين ،
إن عندي لك نصيحة ، فإذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك
فسلني عنها ! قال الوليد : ما يمنعك الآن ؟ قال : أنت
أعلم إذا اجتمع لك ما أقول فانك أحق أن تفهم .

فمكث الوليد أياماً ثم دخل عليه عمر في جماعة من أهل الشام ،
فقال الوليد : نصيحتك يا أبا حفص ! ولعله أراد أن يخرجه فيخفف
ولكن عمر لم يخفف من عنف النصح فقال : إنه ليس بعد الشرك
أثم اعظم عند الله من الدم ، وإن عمالك يقتلون ويكتبون لك
ذنوب المقتول ، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به ، فاكتب اليهم
الا يقتل احد منهم أحداً حتى يكتب اليك بذنبه ، ثم يُشهد عليه ،
ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضع لك ! فكتب الوليد غيظه وقال :
بارك الله فيك يا أبا حفص !

ثم رأى الوليد أن يجرب فكتب الى الأمصار وخصّ الحجاج
ابن يوسف بما في نصيحة عمر ، فكان جواب الحجاج أن أرسل الى
الوليد برجل حروريّ من الخوارج كان يسبّ الخلفاء من بني
أمية ثم يسمو في ذلك صعداً ويزداد سباً حتى يبلغ الوليد فيستوفي
له الشتم والسب لأنه يراه أجور الخلفاء وأظلمهم ولا سيما حين
استعمل الحجاج على العراق .

وأرسل الوليد الى عمر في الظهيرة ، في وقت لم يكن يرسل

اليه فيه ، فحضر فدخل عليه فاذا هو قاطب بين عينيه ، فقال له :
اجلس ها هنا - وأشار الى مجلس الحصوم بين يديه - فجلس عمر
وليس عند الوليد الا خالد بن الريان قائماً بسيفه ، فقال الوليد
للحروري : ما تقول في فلان وفي فلان من الخلفاء ؟ فسبهم
الحروري ولعنهم ، ثم قال : وما تقول في ؟ فقال الحروري :
ظالم جائر جبار ! فقال الوليد لحارسه خالد بن الريان : اضرب عنقه .
فضرب الحروري عنقه .

ثم عاد الوليد على عمر فقال له : كيف ترى فيمن سب الخلفاء ؟
أترى ان يقتل ؟ فسكت عمر ، فانتهره الوليد وقال : ما لك لا
تتكلم ! فظل عمر ساكناً لا يتكلم وعاد الوليد واستمر عمر في
صمته ، ثم ما زال هذا يسأل وهذا يسكت حتى بزم عمر بالوليد
فقال : يُنكّل به ! فازداد غضب الوليد لأنه كان يريد من عمر
أن يفتي بقتله . ثم ترك مجلسه ودخل الى بيته . وأشار ابن الريان
الى عمر بالانصراف . قال عمر : فانصرفت ، وماتهب ريح من
ورائي الا وأنا أظن أنه رسول يردني اليه ! ١٢٤

وما هي الا لحظة حتى دعا الوليد بعمر الى منزله ، فلما كان
عنده قال : ما تقول في هذا يا أبا حفص ؟ أصبنا أم أخطأنا ؟
فقال عمر : ما أصبت بقتله ! ولغير ذلك كان أسدّ وأصوب !
كنت سجنته ان بدا لك أو تعفو عنه ! فقام الوليد مغضباً ،
وخرج عمر يجر ذيل خيلاء جديدة هي ذيل خيلاء النصاح اذا كانوا
من الصادقين ، وخرج في اثره خالد بن الريان وقد رأى غضب

(١٢٤) ابن عبد الحكم ص ٢٥

مولاه المرة بعد المرة ورأى كيد عمر له فقال لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص ! لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك ! فاستعظم عمر أن يقول له هذا الحرسى اللئيم مثل هذا الكلام واغتاظ عليه ولكنه كتم غيظه وسأله قائلاً: ولو أمرك كنت تفعل؟ قال: إي لعمرى! ١٢٥ فهزّ عمر رأسه ومضى وقد أسرها في نفسه لخالد بن الريان .

ورأى الوليد ذات يوم أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعلها في أولاده، فرأى أن يستعين عمر على ذلك فراوده على أن يخلع سليمان بمعونته فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك؟ ١٢٦

ومن ثمّ ازدادت شقة الخلاف بينهما، وباعدت بينهما نبوة^{١٢٧} ووحشة، فتناول الوليد عمر بلسانه، فردّ عليه عمر، فغضب الوليد غضباً شديداً وأمر بعمر فعُدل به إلى بيت فحبس فيه ثلاثاً لا يدخل عليه أحد، ثم أمر الوليد باخراجه إن وُجد حياً فأدركه أهله وقد أصاب رقبته وجع شديد، فلم يزالوا يعالجونه حتى صار إلى العافية ١٢٧ .

وأذن الله أن يموت الحجاج سنة خمس وتسعين، فسجد عمر لله شكراً حين بلغه موته، ومات قرّة بن شريك العبسيّ والي مصر في اليوم أو الشهر الذي مات فيه الحجاج ١٢٨ . وطالما عتب عمر

(١٢٥) ابن عبد الحكم ص ١٣٩

(١٢٦) ابن الجوزي ص ٤١

(١٢٧) ابن الجوزي ص ٢٤٨

(١٢٨) ابن الأثير ج ٥ ص ٩

على الوليد في استعماله قرّة بن شريك على مصر فلم يسمع له ١٢٩
وطالما عتب الناس على الوليد فيه فلم يسمع لهم حتى قال أحد
شعرائهم يلوم الوليد حين عزل عبد الله بن عبد الملك وولاه :

عجباً ما عجبتُ حين ألقانا أن قد أمرت قرّة بن شريك
وعزلت الفتي المبارك عنا ثم فيلت فيه رأي أبيك ١٣٠
وكان عمر يقول في الحجاج : لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة
فاخرجت كل أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم ! ١٣١ .

وأحسّت الرئتان : مصر والعراق أنها تتنفسان ، وكانتا ظننا أنها
فقدتا الحياة ، وجاء الخبر الوليد فاغتم لموت رجلين زلزل موتها .
عرش خلافته - كما خيل له - وأسرع مخططاً فجمع الناس وصعد
في المنبر كالناعية الشكلى وهو حاسر شعثان الرأس ، فنعاهما
للناس وقال - وكانما خبطته الضلالة فعثر - : والله لأشفعن لهما
شفاعة تنفعهما !

وكان عمر بين الناس والوليد يرّجم بهذا الكلام ، فسخر من
قوله وعجب لضلالته ، وقال لمن حوله : انظروا إلى هذا الحبيث .
لا أناله الله شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم . وألحقه بهما ! ١٣٢ . فلما نزل
الوليد عن المنبر قام إليه الناس يعزونه إلا عمر فإنه لم يقم ، فقال له
الوليد : ما منعك أن تعزيني بالحجاج كما عزاني الناس ؟ فقال عمر :

(١٢٩) التجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

(١٣٠) فيل الرأي : خطاه وقبحه . فتوح مصر واخبارها ص ١٣١

(١٣١) ابن الجوزي ص ٨٩

(١٣٢) التجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

يا أمير المؤمنين ، انما الحجاج منا ، فنحن نعرى به ! ١٣٣ فقال
الوليد : صدقت ! ولم يدربنا قاله عمر وهو على المنبر وبما كان في
نفسه من الفرح بموت الحجاج .

وكان الوليد لحانا ، لا يحسن النحو ، فخطب يوماً فقال :
يا ليتها كانت القاضية ، ووصل الكلام فضم التاء فصارت «القاضية»
فقال عمر بن عبدالعزيز : عليك وأراحتنا منك ! ١٣٤

عمر وسليمان

ولم يمض غير قليل حتى ذهب الوليد الى رملة فلسطين عند
لُد ١٣٥ ، وكانت الرملة مدينة عظيمة ، وقد قامت رباطاً
للمسلمين ، فذهب الوليد يزورها فمرض هناك ، ولم يلبث أن
مات ، فولي الخلافة أخوه سليمان ، وكانت فرحة عمر لا تحصى ،
فوقف يومئذ في دمشق وتولّى بنفسه أخذ البيعة لسليمان ، في
نفس اليوم الذي مات فيه الوليد ١٣٦ .

وجاء سليمان بن عبد الملك أخف من الوليد وطأة وألين
عريكة وأسمع للنصح وأسد في الرأي ، فضم إليه عمر يستشير
ويستوزره ، ووجد عمر في سليمان الحصب الذي يزرع فيه فينمو
زرعه ، فلزمه يهديه ويرشده ، ولزمه سليمان يسأله ويستفتيه ،
وصارت له عنده منزلة وناحية وخاصة دون جميع بني مروان ١٣٧ .

(١٣٣) ابن عبد الحكم ص ٢٠

(١٣٤) ابن الأثير ج ٥ ص ٥

(١٣٥) الرملة واللد بلدان معروفان الى اليوم بفلسطين .

(١٣٦) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٧

(١٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٤٣

وكان كلما حركت سليمان العظاة أطفأها عمر وأخذها . ثم حدث بين عمر وسليمان كلام كان ختام ما بينهما من مهارشة بين رجل يظن نفسه سيداً على الناس فيلقي القول جزافاً ، وبين رجل آخر لا يعنيه أن يكون صديقاً للخليفة على باطل ، وإنما يعنيه أن يكون صديقاً لرجل يعرف نفسه ويحكم قوله .

خرج عمر مع سليمان ، وسليمان يريد الصائفة ١٣٨ ، فالتقى غلمان عمر وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا ، ف ضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، قد طغت حدة عمر فأعدى غلمانه بها فضربوا غلمان الخليفة وأبوا أن يسبقوهم على الماء فيستسقوا قبلهم . وشكا غلمان سليمان إليه فقال لعمر : ضرب غلمانك غلmani ! قال عمر : ما علمت ! قال : كذبت ! فغضب عمر وقال : ما كذبت ! مذ شددت عليّ إزارى وعلمت أن الكذب يضرّ أهله ! ثم قام من مجلس سليمان وهو يقول : وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسعة ١٣٩ ولم يكف عمر ما قاله وما فعله ، فتأدى وغلا وتجهز يريد مصر ويفارق الشام ، فبلغ الخبر سليمان فشق عليه . وعلمت عمه لهما فدخلت بالصلح بينهما ، فقال لها سليمان : قولي له يدخل عليّ ولا يعاتبني ، فدخل عمر ولم يعاتب ، فاعتذر إليه سليمان وقال له : يا أبا حفص ، ما اغتممتُ بأمر ولا أكرمني هم إلا خطرت فيه على بالي ! فأقام عمر عند سليمان ١٤٠

(١٣٨) الصائفة : غزوة الصيف

(١٣٩) ابن الجوزي ص ٣٦

(١٤٠) قصص العرب ج ١ ص ٢٣٢

ورأى عمر في سليمان نهمةً الى الطعام فما يكاد يشبع ، رآه
أَكولاً يجاوز المقدار ، وكان ربما أتاها الطباخون بالسفايد التي
فيها الدجاج المشوية - وعليه جبة الوشي المثقلة - فلنهمه وحرصه
على الطعام - فكان يدخل يده في كفه حتى يقبض على الدجاجة
وهي حارّة فيفصلها ١٤١ ، وقد عجب عمر من نهم سليمان غير أنه
انتوى أن يسد عليه مسالك الجشع لعله يقلع ويبتدي . وكان اذا
صحبه صام فتركه سليمان صائماً وأكل فلم يُبْقَ على طعام .

وحج عمر مع سليمان عام سبع وتسعين ١٤٢ ، وزار سليمان
المدينة وعمر معه ، وفعل سليمان بالمدينة مثما كان فعل الوليد :
أعطى مالا كثيراً وهدايا ، ثم ظن أنه أَرْضَى الناس كما ظن الوليد .
وكان عمر قد عرف عيوب الهدايا وعيوب مواضعها وأثرها في
نفوس من وهبوا ومن لم يوهبوا ، وأنها إنما تشحن النفوس حقداً
وعداوة . فلما خلا سليمان الى عمر بعد العطاء وبذل المال ومظنة
الرضا قال له : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟

قال أبو حفص : رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل
الفقر بفقرهم ! فأمسك سليمان عن حديثه ، وانطلقا ، فلما كانا بعقبة
عسفان عند الجحفة على طريق مكة ، نظر سليمان الى معسكر
عسفان فأعجبه ما رأى من حَجَرِهِ وأبنيته فقال : كيف ترى
ما هنا يا عمر ؟ فقال : أرى الدنيا يأكل بعضها بعضاً ، أنت

(١٤١) اليعقوبي ج ٣ ص ٤٣ - عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٢٧

(١٤٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢

المسئول عنها والمأخوذ بها ١٤٣

فانطلقا ، حتى اذا جاءا مكة وجدا بها غضباً شديداً ، فقررت عين عمر وقلق جنب سليمان ، وكان سليمان قد أراد أن يرضي أهل مكة ويتألف قلوبهم وكان استنبط لهم ماء عذبا هو وخالد القسري عاملها ، ونبيع الماء وفاض ، ولكن سليمان علم أنه حينما دعا خالد الناس الى الشرب من مائه العذب نفر الناس عن مائه ولم يجتمع عليه اثنان ١٤٤ فوجهم لذلك سليمان .

فانطلقا ، حتى أتيا عرفات ، فرأى سليمان خلقاً كثيراً قد أتوا رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق ، فطرب سليمان لما رأى ، قد ظن الأمن في زمانه مدّ رواقه على الآفاق ، فجاء الناس على طرق مهيّدة ، وميسرة موفورة ، فقال لعمر : أما ترى يا أبا حفص كثرة الناس بالموسم ؟

ورأى عمر في زحمة الناس في الحج وبجّة اصواتهم في التلبية وفيض دموعهم عند الكعبة والاستار - رأى في ذلك وسمع غير ما يرى الخليفة ويسمع ! وكان يعلم أن الناس يشكون من ظلم صارخ وزحوا تحته وناءوا به ، وكان يراهم يبغضون سليمان ويكرهون أعماله ، وما جأروا بالتلبية في الطواف والسعي وعند الجبل في صرخة وضراعة الا ليخلصهم الله من الظلم . كان عمر يرى ذلك ويسمعه ويعلمه ويؤمن به ، فحين قال له سليمان : أما ترى كثرة الناس بالموسم قال له عمر : هؤلاء خصاؤك يا امير المؤمنين !

(١٤٣) ابن الجوزي ص ٤١

(١٤٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٧

فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم !

ثم غامت السماء في عرفات وعزف الوعد وخطف البرق خطفاً وعزفاً شديدين حتى فزع اهل الموقف ، وكان سليمان أخوف الناس وأفزعهم ، فنظر الى عمر ليستند اليه ويشد أزره به فاذا عمر يضحك . فقال له : أتضحك يا عمر وأنت تسمع وترى ما تسمع وترى ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، هذه رحمة الله قد أفزعتك ، فكيف لو جاءك عذابه ! ١٤٥



وأغلظ سليمان بن عبد الملك على أهل مصر وحرّض عليهم الولاية ، وكان أسامة بن زيد التنوخي صاحب خراج مصر قد كتب اليه سليمان : احلب الدّر حتى ينقطع والدم حتى ينصرم ، ففعل أسامة ما أمر به سليمان ، وأصاب أهل مصر بأول شدة دخلت عليهم ، فقال سليمان يوماً - وقد أعجبه ما فعل أسامة - : هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهما ! فلم يملك عمر نفسه من حدة وغضب فقال له : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشي ديناراً ولا درهما ، فقال له سليمان : ومن هو ؟ قال : عدو الله ابليس : فغضب سليمان وقام من مجلسه ١٤٦

واستحضر سليمان يوماً يزيد بن أبي مسلم الثقفي مولى الحجاج وكتابه وخليفته ، فرآه سليمان دميماً كبير البطن فقال : قَبَحَ الله رجلاً أجرك رسنه وأشركك في أمانته ! فقال يزيد : يا أمير

(١٤٥) ابن الجوزي ص ٤٢

(١٤٦) النجزم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١

المؤمنين ، رأيتني والأمر مدبرة عني ولو رأيتني وهي مقبلة إليّ
لاستكبرت مني ما استصغرت واستعظمت مني ما استحققت ؟
فقال سليمان : قاتله الله ! ما أسدّ قوله وأعضب لسانه ! ثم قال له :
أترى صاحبك الحجاج يهوي في النار أم قد استقرّ في قعرها ؟
فقال يزيد : يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذلك ، فإن الحجاج وطأ
لكم المناير وأذل لكم الجبابرة ! وعن عيين الوليد ويسار عبد الملك
يجيء الحجاج ، فاجعله حيث أحببت !

وأخذ سليمان ببلاغة الرجل وفتنه قوله فقال : قاتله الله !
ما أوفاه لصاحبه ! إذا اصطنعت الرجال فليُصطنع مثل هذا !
ثم همّ سليمان باستكتابه وليصير من رجاله وأعوانه ، فقال له
عمر : يا أمير المؤمنين : لا تحي ذكر الحجاج ! فقال : اني كشفت
عنه فلم أجد له خيانة في دينار ولا في درهم ، فقال عمر ؟ ألم أقل
لك يا أمير المؤمنين إن إبليس لم يخن فيها ؟ وهذا قد أهلك
الخلق ! فتركه سليمان ١٤٧ ، ثم ما زال عمر به حتى جعله يتتبع
أصحاب الحجاج ويسومهم العذاب .



وقعد عمر لأهل الشام يستفتونه ، وكانت المسألة تثقل عليهم
فيلجأون إليه ، ورد إليه سليمان القضايا والمسائل الصعاب ، ثم حدث
أن رأى سليمان ابن النساء بنات الخلفاء لا يرثن في العقار فنشأت
قضية ذات تعقيد ، وتلك أن رجلاً جاء يطلب ميراثاً له من بعض

(١٤٧) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٤ - المطالعة التوجيهية ص ١٤٨

بنات الخلفاء ، فقال سليمان : ما اخال النساء يرثن في العقار شيئاً ،
فقال عمر : يا سبحان الله ! قال سليمان : يا غلام ، اذهب فأنني بسجل
عبد الملك الذي كتب فيه ذلك ، فقال عمر : لكأنك ارسلت
الى المصحف !

فقال أيوب اكبر اولاد سليمان - وكان حياً لم يم - والله
ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند امير المؤمنين ثم لا يشعر حتى
يفارقه رأسه ! فالتفت اليه عمر وقال له : اذا افضى الامر اليك والى
مثلك ... واراد أيوب ان يرد فقال له سليمان : مه ! لا بي حفص
تقول مثل هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا امير المؤمنين
ما حملنا عنه ١٤٨

لقد ظل عمر يحزم بعزمه ورأيه كل امر ، ويحتس ان يفعل أو
يغلبه النوم ، وقيد نفسه وثابر على ما بدأ به حتى يصبح سيد نفسه ،
إذ قهر النفس لا يتم في لحظة ولا ينشأ فجأة وارتجالاً ، ولكن
يحصل بتطبيق سلسلة متوابع منسقة من الكلام والاعمال التي
تطابق الاقوال . وهكذا بدأ عمر يكون نصيحاً ، وتكون
نصائحه ظاهرة باقاً ، فلتقى في آذان الخلفاء والامراء والعمال بغير
لين أو التواء ، ثم جمل يخضع افعاله وتخيلاته ومشاعره لهذه السيطرة .
وببطء وهوادة استطاع ان ينمي استعدادة ويقوي سلطانه ، ويسد
ثغرة الفراغ من نفسه ، ثم عرف بعد وأيقن أنه يستطيع ان
قد استطاع .

(١٤٨) ابن الجوزي ص ٣٧

مرضة سليمان

واصابته التخمة سليمان فمرض الموت على فجأة ، فلمّا أيقن بالموت قال لرجاء بن حيوة الكندي : انه منذ مات ابني ايوب لم أجد بعده من يصلح للخلافة من أولادي - وكانوا صبياناً والخلافة لا يليها الصبيان - ففرح رجاء بما قال سليمان ، اذ كان يتمنى ان ينتقل الامر الى رجل يصلح به الناس ، ولكنه امسك فلم يتكلم . ودنا الموت فازداد قلق سليمان ، فطلب الى رجاء ان يعرض عليه اطفاله في السيوف ودروع القتال واردية الحرب لعله يرى في أحدهم مخايل رجولة او شجاعة فيوصي له ، فلبى رجاء مستعجلاً وجعل يعرضهم في زيّ زيّ وعلى هيئة هيئة ، ومرّ الصبية الصغار بين يدي ابيهم ، وهم يحاولون ان يهربوا من الجلود التي اثقلتهم ، وكأنما كانت رؤوسهم كرؤوس السلاحف الصغيرة تبدو وتختبئ وراء أكتاف ضخمة من الأحجار ، فجعل سليمان ينظر اليهم ويقول :

إن بنيّ صبية صغار أفلح من كان له كبار

وكان عمر حاضرّاً فقال : يقول الله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » . وأعاد عمر قول الله حين أعاد سليمان قوله ، فاتعظ سليمان ثم نوى في نفسه ليعقدنّ عقداً لا يكون فيه للشيطان نصيب ١٤٩

وخلا رجاء بسليمان فقال الخليفة : أشر عليّ يا رجاء فيمن أعهد إليه من بعدي ، وكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟

فقال رجاء ولم يتلبث : أعلمه - والله - فاضلاً برّاً مسلماً !

(١٤٩) ابن عبد الحكم ص ٣٠

قال سليمان : هو والله على ذلك ، ولكن كيف يبني عبد الملك ؟
ولئن وليته ولم أولّ أحداً منهم لتكوننّ فتنة ، ولا يتركونه
أبدأ إلي عليهم ، إلا أن أجعل أحدهم بعده ، فأجعل بعده
يزيد بن عبد الملك .

قال رجاء : اكتب العهد واختمه ، واطلب البيعة لمن فيه
وهو مختوم ، وأنا أفعل ما يرضي الله ويرضيك . فتناول سليمان
بيده القلم والصحيفة وكتب بيده وخطه عهده لعمر وليزيد بن عبد
الملك من بعده ثم ختمه ابن أبي نعيم صاحب الخاتم ، ثم طواه سليمان
ودعا بأهل بيته من الأمراء وأهل البيعة ، فطلب اليهم أن يبايعوا
لمن في العهد المطوي المختوم ، فبايعوا ، وأسلمه لرجاء .

قال رجاء بن حيوة : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز
فقال : يا أبا المقدام ، ان سليمان كانت لي به حرمة ومودة ، وكان
بي برّاً ومُطِطاً ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليّ من هذا
الأمر شيئاً ، فأنشدك الله وحرمتي إلا أعلمتني ذلك حتى أستعفيه
الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ذلك . قال رجاء : فقلت
له : لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً ! فذهب غضبان ١٥٠

ثم عاد عمر من قريب على رجاء فقال له : أذكرك الله يا رجاء
أن تذكرني لأُمير المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك ، فوالله
ما أقوى على هذا الأمر ! فانتهره رجاء وقال له : إنك لحريص على
الخلافة ! أنتطمع يا عمر بن عبد العزيز أن أشير عليه بك ؟ فاستحيا عمر
ومضى . وقد كان رجاء فرغ من أمره ولكنه أراد اخفاءه عنه

(١٥٠) ابن الجوزي ص ٤٨

لئلا يحدث من عمر شيء وتكون فتنة بين الناس ١٥١

والحق أن عمر لم يكن يريد الخلافة ولم يكن يسعى لها ولكن وقع في قلبه أن سليمان مستخلفه ، وكان ذلك منذ زمن بعيد مضى ، ومنذ مات أيوب بن سليمان ، إذ كان 'قدم على سليمان بالنيروز والمهرجان وهو خليفة ، فصُبَّتْ إليه الهدايا في آنية الذهب ومرّوا بها عليه ، وكان عمر بجانبه ، فكلمها مرّ بعمر صنف منها قال له سليمان : كيف ترى هذا يا بن عبد العزيز ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنما هو متاع الحياة الدنيا ! فقال سليمان : فوالله لو وليته ما أنت صانع فيه ؟ قال : اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء . فقال سليمان : اللهم اشهد .

ثم جعل كلما مرّ به على شيء قال له هذه المقالة ، فيقول له عمر : اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء ، ويقول سليمان : اللهم اشهد حتى فرغ ١٥٢

رجاء بن محبوب

وكان رجاء بن حيوة بن جروول الكندي من أهل الأردن العلماء ، وكان أعبد أهل زمانه من أهل الشام مرضياً حكيماً صاحب بلاغة وأناة ووقار ، وكانت الخلفاء تعرفه بفضله فيتخذونه وزيراً ومستشاراً وقيماً على عمالهم وأولادهم ، وقد وقف بين الخلفاء وقسوتهم وشهواتهم مواقف كثيرة منذ عبد الملك ، بقدره مداخلة عليهم ، فلما كان سليمان أصبح لرجاء عنده من الخاصة والمنزلة

(١٥١) ابن عبد الحكم ص ٣١

(١٥٢) ابن عبد الحكم ص ١٢١

ما ليس لأحد ، وجعل سليمان يثق به ويستريح اليه .
وبعنه سليمان ذات يوم ليختبر له عمر بن عبد العزيز ويأتيه
بطريقته وسيرته ، وهل هو كما يعظ وينصح ويشير أم ظاهر
من القول ليس له باطن ؟ فقدم رجاء على عمر ضيفاً وأقام عنده ،
ولم يألُ عمرُ عن إلفه وإكرامه وتقريبه ، وأقام عنده أياماً ،
وعرف حقيقة أمره وأنه إنما يفعل ما يقوله ، فأخبر بذلك سليمان .
ثم رغب رجاء في صحبة عمر وصادقته على النسك والعبادة ١٥٣
فلما استشاره سليمان في عمر أشار به فكان هو أو كان سليمان
أو كانا معاً مفتاح الخير للناس .

يوم عَصِيب

موت سليمان

كان بنو مروان اذا أرادوا غزو الصائفة وقتال الروم نزلوا عند مرج معشب نزه في قرية يقال لها « دابق » قرب حلب من أعمال عَزَّاز ، وبينها وبين حلب أربعة فراسخ ، فلما أراد سليمان الصائفة عسكر بدابق ونزل مرجها المعشب ، وعزم ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي الروم الجزية ، فشئت بدابق شتاء بعد شتاء .

وبينا هو كذلك يقيم دخل عليه المفضل بن المهلب في يوم جمعة ، فدعا سليمان بثياب فلبسها فلم تعجبه ، فدعا بغيرها فلم تعجبه ، ثم دعا بثياب خضر سوسية من خز ، كان بعث بها يزيد بن المهلب فلبسها واعتم ونظر في المرأة وقال : يا بن المهلب ، أعجبتك ؟ فقال المفضل : نعم ، فحسر سليمان عن ذراعيه ثم قال : انا الملك الفتى !

ثم ركب سليمان عشية يومه معتزاً مغترباً . فمرّ بتلّ هناك ،
فرأى عليه قبراً ، فقال : مَنْ صاحب هذا القبر ؟ قالوا : هذا قبر
عبد الله بن مسافع القرشيّ ، فقال : يا ويحه ! لقد أمسى قبره
بدار غربة ! ١٥٤

ورجع سليمان إلى بيته فبات مريضاً ، وانفرد وجدّه فلم يكن
يدخل عليه حين ثقل به المرض غير رجاء بن حيوة ، ثم مات ،
فسجّاه رجاء بقطيفة خضراء وأغلق عليه الباب ، وأرسلت إليه زوجته
تسأله كيف أصبح ؟ فقال رجاء : نام وتغطّى . فنظر إليه الرسول
نائماً مغطّى ، فرجع فأخبرها ، فقبلت ولم تأخذها ريبة . قال
رجاء : وأجلستُ على الباب من أثق به ، وأوصيته ألا يريم حتى
آتيه ، ولا يدخل على الخليفة احداً .

ثم خرج رجاء إلى مسجد دابق ومن حوله الحرس ، وجمع إليه
امراء بني مروان وأهل البيعة الذين سبقوا فبايعوا بين يدي سليمان
وأخرج لهم عهد المطويّ الذي عرفوا وقال لهم : بايعوا لمن فيه
فقالوا : إنا بايعنا مرة ، فقال لهم : بايعوا الذي في هذا الكتاب ولا
تختلفوا فيطمع فيكم ، فبايعوا رجلاً رجلاً . فلما فرغ وقد أحكم
أمره قال لهم : أعظم الله أجركم في امير المؤمنين ! لقد مات . ١٥٥
ثم فض رجاء كتاب العهد ليقرأه عليهم ، فعلت الصدور
وهبطت ، واطردت الأنفاس واحتبست ، وجعلت أسماعهم لا
تعي بما كتب سليمان شيئاً ، ولا تريد أن تسمع شيئاً غير اسم

(١٥٤) معجم البلدان ج ٤ ص ٣

(١٥٥) ابن الجوزي ص ٤٩

الخليفة الجريد . فلما بلغ رجاء الى ذكر عمر كادت الصعقة تأخذ
بني مروان .

بيعة عمر

ولم يطق هشام بن عبد الملك صبراً فقال : هاه ! لا والله لا
أبايع ! فسلّ حرسيّ من أهل الشام سيفه وقال : تقول لأمرٍ
قضاه أمير المؤمنين : هاه ! فقال هشام نسمع ونطيع ان كان
رجلاً من بني عبد الملك . فقال له رجاء : اذن أضرب عنقك ! فجذبه
الناس حتى سقط الى الارض وقالوا : سمعنا وأطعنا . ثم أسرع
رجاء فقال : ومن بعد عمر يزيد بن عبد الملك ، فقالوا وقال هشام :
سمعنا وأطعنا . وكذلك صدقت نبوءة سليمان في أنهم لا يقبلون
بجلافة عمر الا اذا وثقوا انها تزول عنه الى غيره من أبناء عبد الملك
ابن مروان .

أما عمر فكان قد قعد في أخريات المسجد يسترجع لما وقع فيه
ويقول : والله ان هذا الأمر ما سأله قط في سرّ ولا علانية او مشى
اليه رجاء مسلماً عليه بالامارة طالباً إليه أن يقوم إلى المنبر ، فقال
عمر : أنشدك الله يا رجاء ! فقال له : أناشدك الله أن يضطرب
بالناس جبل !^{١٥٦} فعقّر بعمر فلم يستطع النهوض ، فأخذ رجاء
بضبعه ودنا به من المنبر ، فلم يقدر على الصعود فأصعده وأجلسه ،
فجلس طويلاً لا يتكلم^{١٥٧} والناس على لهفة ينتظرون ما يقول .
ثم وقف عمر فقال : أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر

(١٥٦) ابن عبد الحكم ص ٣٢

(١٥٧) ابن الجوزي ص ٥١

من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبه له ولا مشورة من المسلمين
واني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي . فاخساروا لأنفسكم !
ودعش الناس لما قال ، وأخذت راغبهم الحيرة وكارههم الفرحة ،
وكادرا يضطربون ، فقام رجل من الانصار فقال : يا أمير المؤمنين
ذاك والله أسرع فيما يكره ، ثم دنا من منبر عمر فقال له : أبسط
يدك أبايعك . وفيما كان الانصاري يبائع عمر أول من بايع^{١٥٨}
كان الناس يصيحون في المسجد راضين وكارهين : قد اخترناك
ورضينا بك قل أمرنا باليمن والبركة .

فلما هدأت الاصوات ولم يبق من معارض حمد الله واثني
عليه وصلى على نبيه ثم قال : أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله
خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف . فاعملوا
لآخرتكم ، فانه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . وأصلحوا
سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، واكثرُوا ذكر الموت ،
وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، وإن من لا يذكر
من آبائه فيما بينه وبين آدم - أباً حياً لمعرق في الموت ! وإن هذه
الأمّة لم تختلف في ربه عز وجل ولا في نبيها ولا في كتابها ، وإنما
اختلفوا في الدينار والدرهم . واني والله لا أعطي أحداً باطلاً ،
ولا أ منع أحداً حقاً - ثم رفع صوته فقال : يا أيها الناس ، من
أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . اطيعوني
ما أطعت الله ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ثم نزل^{١٥٩} .

(١٥٨) ابن الجوزي ص ٥٥

(١٥٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٤

فاستقرت له الخلافة منذ ذلك اليوم وكان يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ١٦٠

ونزل عمر عن المنبر فجلس قليلاً بجانبه ، وأدخل رأسه بين ركبتيه وبكى ، فعاد الناس يمسون في آذان الناس ويرجفون قائلين : عمر يبكي فرحاً بالخلافة ! ١٦١ ثم قاموا فركب الأمراء ومشى ، فحملوا سليمان الى قبره ، فأضجعوه على تلّ سليمان في دابق الى جنب عبدالله بن مسافع القرشيّ ، في مثل العشية التي كان مرّ فيها سليمان على القبر الغريب ، وفي يوم جمعة مثل اليوم الذي كان قد مرّ فيه ! ١٦٢ ثم نزل عمر قبر سليمان هو وثلاثة من ولده ، فلما تناولوه خيل إليهم أنه تحرك على أيديهم ، فقال بعض ولده : عاش والله أبي فقال : لا والله ؛ ولكن عوجل أبوك !

وأرجف الأمراء والناس بعمر فقالوا : دُفن سليمان حياً ! ولم تمض المدة التي تكون بين غيبة الموت والدفن لعلها تكون إغماءة . وزاد إرجافهم به حين علموا أنه كان قد انكبّ قبل دفن سليمان على كتب كتبها بيده وأنفذها من فوره . انكبّ انكباباً على ثلاثة كتب فأنفذها الى الأطراف بأوامره . أما هو فكتبها لأنها كانت عهداً بينه وبين الله ليفعلتها عجلان إذا ولي الأمر ، فلم يسعه أن يؤخر ما عاهد الله عليه ، فأمضاه من فوره . وأما الأمراء والناس فقالوا : ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر الى أن يرجع من

(١٦٠) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢

(١٦١) ابن عبد الحكيم ص ١٤٩

(١٦٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣

دفن سليمان ؟ هذا حب السلطان . . هذا الذي يكره ما دخل فيه ! ١٦٣

وحزن الامراء من بني مروان وبني عبد الملك حين ظنوه عجل بدفن سليمان ، وقالوا : لو لم يفرح بالخلافة يريد بهم أمراً لما استعجل . وبلغ الخبر عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص فكتب الى هشام بن عبد الملك يوبّخه ويقول :

بلغ هشاماً والذين تجمعوا بدابق عني لا وقيتم ودى الدهر
وانتم اخذتم حتفكم بأفكم كباحثة عن مديّة وهي لا تدري
عشية بايعتم إماماً مخالفاً له شيخاً بين المدينة والحجر ١٦٤

موت كذب

أما الكتب التي أنفذها قبل دفن سليمان وكتبها بيده : فكتاب إلى مصر وكتاب إلى أبواب القسطنطينية وكتاب إلى إفريقية : ومضى الكتاب الأول بعزل أسامة بن زيد صاحب صدقات مصر الذي حلب الدر حتى انقطع والدم حتى انصرم ، وكان سليمان يمدحه على فعله دون ان يرتشي ، وكانت وصيته له بظلم أهل مصر قد افزعت عمر ، وودّ لو أن أسامة لم يفعل ولكنه فعل ، وكان غاشماً ظالماً معتدياً في العقوبات ، يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ، ويشق اجواف الدواب فيدخل فيها القُطّاع ويطرحهم في جنوب مصر للتماسيح . فأقسم عمر ليكون أول عمله لو تولى الأمر أن يعزل

(١٦٣) ابن عبد الحكم ص ٣٣ - يعقوبي ج ٣ ص ٤٣ - ابن الجوزي

ص ٥٢

(١٦٤) ابن عبد الحكم ص ١٤٨

أسامة بن زيد عن صدقات مصر ، وبرّ بوعدة لله فعزله ، وحطّ
المظالم عن أهلها وأراح أكبادهم . غفر الله له وحطّ عنه حساب
القيامة ، وأوسع له في الجنة !

ومضى الكتاب الثاني برجوع مسامة بن عبد الملك عن بلاد
الروم ، فقد كان يذوب مع جند المسلمين تحت وطأة الروم ذوبان
الثلج تحت شمس الصيف ويكاد الجيش ينفى ولا يرجع منه أحد .
وكان مسامة أشرف على فتح القسطنطينية براً وبحراً وكاد يبلغ
لولا أن خدع عنها وأحرز العدو طعامه وحوادثه وأغلق أبوابها
دونه . وبلغ خبر النكسة سليمان فغضب إذ خدع مسامة وحلف
ألا يرجعه منها حياً ، فاشتد المقام على المسلمين ، وهلكوا ،
وأكل الناجون منهم خوم الدواب . ولجّ سليمان في التعذيب
عليهم وكان ذلك يغمّ عمر ، فلما ولي لم يسمع فيه بينه وبين الله
أن يؤخر قفولهم ساعة . فذلك الذي حمّله على تعجيل هذا الكتاب .
ومضى الكتاب الثالث بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية ،
لأنه كان جباراً يُظهر التآله ويشتط في النفاذ ، بما جل أو صغر ،
بالجور ومخالفة الحق . وكان رجلاً مختلطاً متناقضاً يأمر بتعذيب
من يعذبه وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ! شدّ يا غلام موضع
كذا .. لا إله إلا الله والله أكبر ! شدّ يا غلام موضع كذا وكذا
- لبعض مواضع التعذيب - فكانت حاله تلك شرّ الحالات .
فيكتب عمر بعزله في ثالث كتاب ١٦٥

(١٦٥) ابن عبد الحكم ص ٣٣ ، ٣٤

هبوب العاصفة

ودار عمر حول نفسه كما تدور العاصفة فاقتلع جذور الباطل وطمس معالم الغرور ، ونوى أن يفني المال المجموع ويضيع العقار الموروث ويبدد القطائع الموهوبة لا ليزهّد زهّادة تفقره وتفقر أهله ولا تغني الناس ، ولكن ليودّ الحقّ الى نضابه ويعيد العدالة الى مجراها ويبني من هيبة الحق ما هدمه السلف في القلوب ، ويوضح من معالم الاسلام ما طمسته الخطوب في الأذهان . وانه لماضٍ مثقل بأوزار غلاظ تصعب على كل تطهير . ولكن عمر صمم أن يطهر الارض منها زلزلت في يده ، ولو قدر أن يطهر يده من سموم الطعام الذي أكله من قبل ، وأن ينحو من الهواء نفحات الطيب التي نفحت فيه منه - لو قدر أن يفعل ذلك وأن يصهر شحمه ويذيب عظمه لفعل .

أما ثيابه فقد نزعها ، وغسل عنه ذلك الطيب ، ولبس كساء بثمانية دراهم ، وأما شعره فقد دعا الحجام فاخذ منه كل فضلة ، ثم أمر عمر ببيع ما عنده من متاع ومركب ولباس وعطر ، فبلغ بيعه ثلاثة وعشرين ألف دينار أو أربعة وعشرين ، ثم دفع المال الى بيت المال .

ثم خرج عمر من بيته في دمشق حين قربت إليه مراكب الخلافة وسمع لها في الأرض هدّة ورّجة ، خرج فاذا الخيل مسرّجة واذا الفرسان شاهرة واذا السرايدات منصوبة ، والحجر مضروبة ، واذا أمامه صاحب الشرطة يسير بين يديه فقال له عمر : تنحّ عني ،

مالي ولك ! انما انا رجل من المسلمين ، ثم سار ١٦٦ خائضاً الصفوف ملتصقاً بغلته فركبها وسرح الفرسان الشاهرين وأعفى كثيراً من الشرطة والحراس . كانوا اكثر من ستمائة فأعفى كثيراً منهم ١٦٧ وانصرف الى السراديات والفرش يدفعها بقدمه حتى يفضي الى الحصار تحتها ، ثم دعا بمزاحم وقال له : هذه البراذين والحيل ، وهذه السراديات والحجر وهذه الفرش والرياش - ضمها كلها الى بيت مال المسلمين ١٦٨ .

ثم حانت منه التفاته فنظر الى ابن له قد تحرق قميصه من ازدحام الناس عليه فقال له : يا بني ، أصلح جيب قميصك ، فانك لم تكن قط أحوج الى ذلك منك اليوم .

وبينا هو كذلك اذ أقبل خالد بن الريان قاتل الحروري بين يدي الوليد أيام الحجاج ، جاء يتلقى أوامر الخليفة لينفذها ، وما كاد عمر يراه حتى قال له : ضع هذا السيف عنك ، فوضعه ، وعزله ، ثم جعل عمر يقول : اللهم اني قد وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه ابدا ! وقبل الله دعاء عمر فيه فلم يعد له ذكر بين الناس في حياته ، ولحقه الذكر السيء بعد مماته . ثم نظر عمر في وجوه الحرس فرأى عمرو بن مهاجر الأنصاري ، وكان تقياً فقال له عمر حين رآه : والله انك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة الا قرابة الاسلام ،

(١٦٦) الصفوة ج ٢ ص ٦٤ - حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨

(١٦٧) ابن الجوزي ص ٩٨

(١٦٨) ابن عبد الحكم ص ١٦٨

(١٦٩) ابن عبد الحكم ص ١٥١

والكني قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع
تظن أن لا يراك أحد ، فرأيتك حسن الصلاة . خذ هذا السيف
قد وليتك حربي ١٧٠

مطامع النساء

وخاف عمر أول ما خاف مطامع النساء ، وكان عنده امرأة
لو شئت أن تجتمع لديها الدنيا لاجتمعت ، حفيدة خليفة وبنت
خليفة وأخت خلفاء ، وهي فاطمة بنت عبد الملك ، فمال إليها
يقلم أظفارها منذ أول الأمر لئلا تقلق جنبه ، فأخذ جواهرها وحليتها
— فيما أخذ — فأودعه بيت المال ، حتى إذا احتاج إليه المسلمون
أنفقه عليهم .

وكان عمر أحسن أن فاطمة لم ترض كل الرضا بما فعل فمال
إليها بخيرها بين أن تقيم عنده وبين أن تلحق بأهلها ، وأعلمها أنه
إنما شغل عن النساء بما في عنقه ، فرضيت أن تقيم وأن تدفع
بحليتها إلى بيت المال ثم لا تردّه إليها أبدا . ١٧١

ولكنه حين ضيق عليها وعلى أولادها في الطعام والملبس كما
ضيق على نفسه سأله أن 'يجري' عليها خاصة ، فقال لها : ليس في
مالي سعة ، قالت : فلم كنت انت تأخذ منهم ؟ قال : كانت
المهنة لي والاثم والتبعة عليهم ، أما اذ وليت فلا فعل ذلك فيكون
اثمه علي .

وما زال عمر بزوجه حتى طبعها بالورع فصارت مثلاً كريماً

(١٧٠) ابن الجوزي ص ٤٠

(١٧١) ابن عبد الحكم ص ٦٠

للنساء ، وكانت كلما عاودها الحنين الى حياة الترف تجد منه ميلاً عنها وادباراً فتعود الى طمأنينتها وورعها حين يقول لها : انعطي ان شئت او ذري ! ١٧٢ ولم تزل هي تحن لما كانت عليه حياتها من قبل فتقول : والله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة 'بعد' ما بين المشرقين .

وكما فعل عمر بفاطمة فعل باولاده من رجال ونسوة : أرسلت اليه ابنته بلؤلؤة ، وقالت له : ان رأيت أن تبعث لي بأخت لها حتى أجعلها في أذني ! فأرسل لها بجمرتين ثم قال لها : ان استطعت أن تجعل لي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت اليك بأخت لها ١٧٣ وبلغه أن ابناً له اشترى فص خاتم بألف درهم فكتب اليه : عزيمة مني عليك إلا بعث هذا الخاتم الذي اشتريته بألف درهم وتصدقت بثمنه واشتريت آخر بدرهم نقشت عليه : رحم الله امرءاً عرف قدره ! والسلام .

وكان الخدم حين استخلف عمر قد ظنوا أنهم قد سادوا الناس ، فلما صارت حالهم الى شر مما كانوا عليه حزنوا لولايته وتفرقوا عنه ، وكان له غلام يقال له درهم يحتطب له فقال له عمر حين استخلف ومضت ايام من خلافته : ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : وما يقولون ! الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشر ! قال عمر : وكيف ذلك ؟ قال : إني عهدتك قبل الخلافة عطراً لباساً فاره المركب طيب الطعام ، فلما وليت رجوت أن أستريح وأتخلص فزاد عملي

(١٧٢) ابن الجوزي ص ٧٥ - الخراج لأبي يوسف ص ١٧

(١٧٣) ابن عبد الحكم ص ١٦٣

شدة وصرت أنت في بلاء ! قال عمر : فأنت حر فإذهب عني
ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه فرجا ١٧٤

بيت سليمان

ولما فرغ من بيته اصطحب مولاه مزاحماً وجماعة من بني مروان
وذهبوا الى بيت سليمان . وكان بات أولاد سليمان وبناته يفرغون
الأدهان والطيب من هذه القوارير الى تلك ، ويلبسون ما كان
مطويّاً قشيباً من الثياب لم يلبس حتى يتكسر فيصير كأنه 'لبس' -
وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب ومس من الطيب فهو
لولده ، وما لم يلبس ولم يمس فهو للخليفة من بعده - فلما جاء عمر
وعرف ما فعلوا ردّ القسمة وضمّ كل ما وجدته الى بيت مال المسلمين .
وتناجى أبناء مروان وهم حوله فقالوا : أما المراكب وأما
السراديات والحجر والشواو والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان
فيه ما علمنا ، وبقيت خصلة ، وهي الجوارى : نعرضهنّ ، فعسى
أن يكون فيهنّ ما تريدون ، وظنوا أنهم ربما دخلوا على قلبه
بالجوارى الحسان ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده ! قالوا ذلك
وتناجوا به فيما بينهم ، ولم يدروا أن عمر قد خاف مطامع النساء
فرد فاطمة عنها ، وخاف مطامع الرجال في النساء وعزم
على ردها .

وجيء بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدّمي فنظر اليهن
وسألهنّ واحدة واحدة عن اسمها وأهلها وبلدها وكيف جاءت ،
فأخبرنه بكل ما سأل ، فسرّحن عمر وردّهن الى أهلنّ ، وقطع

(١٧٤) ابن الجوزي ص ١٧٥ - العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥

على بني مروان آمالهم في إثارة الشهوة وحب البوار .

أول المصادمة

ثم انقطع عمر فغاب عن الناس ثلاث ليال ، اضطرب لها وجوه بني مروان وبني أمية وأشرف الجند والعرب ، ووقفوا ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه . أما هو فقد أخذ مع مزاحم يجمعان السجلات : سجلات قطائعه وسجلات قطائع الأمراء وعهود عطاياهم والأموال التي تجري عليهم ، وكانت نصف ما في بيت المال أو ثلثه . فلما اجتمعت لديها السجلات والكتب أمر عمر أن ينادى بصلاة جامعة ، فاجتمع الناس وخرج عمر فصعد المنبر ووقف مزاحم دونه . وكان عمر يرتدي لأول مرة في حياته ثيابا رخيصة الثمن قدرها رجاء بن حيوة حين ذلك باثني عشر درهما : حلة من قميص ورداء وسراويل وقباء وعمامة وقلنسوة وخفين - وكل ذلك باثني عشر درهما ١٧٦ . ولم يترك الناس يتعجبون كثيراً فقال :

أما بعد فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها . واني قد رأيت ذلك ليس عليّ فيه دون الله محاسب . واني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي . اقرأ يا مزاحم . فجعل مزاحم يخرج سجلا سجلا وعهدا عهدا وكتابا كتابا ، لعمر أو للأمراء ، ثم يقرؤه فيأخذه عمر ويبيده الجلم فيقطعها

(١٧٥) ابن عبد الحكم ص ٣٧ - ابن الجوزي ص ١٥٧ - صفة الصفوة

ج ٢ ص ٦٧

(١٧٦) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

وما زالوا حتى جاء الظهر ونادى المؤذن للصلاة ١٧٧

هذا كان في السجلات التي حصل عليها ، أما التي لم يحصل عليها فقد أمر عمر ألا ينتفع أحد بأرض قد اغتصبها أو اغتصبت له . ونادى عمر أن ليس لأحد مال إلا بما في كتاب الله . ولم يترك ظلامة مزرعة ، ولا طلبه لأحد عنده إلا ردها إليه ، وخرج مما كان في يده من مزارع وأشياء وعبداء وأمة فجعلها جميعاً في بيت مال المسلمين .

فقد جديد

كان لم يكن عمر قد قرأ فقهاً من قبل أو اطّلع على سيرة وتاريخ ، فقد غاب عنه أمر سجلّ خير ، ولم يكن يدري كيف جاءه ، فلما قيل له : تركها رسول الله فينا للمسلمين ثم صارت إلى مروان من عثمان وصارت إلى أبيك منه ثم صارت إليك من أبيك - خرق عمر سجلها وقال : أتركها كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٨ . وغاب عن عمر أمر « قدك » فردها كما كانت عليه ، بعد أن كانت أحب المقاطعات لديه ، ينفق من غلتها على متاعه وثيابه ، فلما عرف أمرها ردها قائلاً : وما كان لي بمال أحب إلي منها ، وأنا أشهدكم أني قد رددتها إلى ما كانت عليه ١٧٩ . وكذلك خرج عمر من السهلة باليامة ومن المكبدس وجبال الوردس باليمن . وأما ما لم يكن له سجلّ من الأرض

(١٧٧) ابن الجوزي ص ١٠٦

(١٧٨) ابن عبد الحكم ص ٦٠

(١٧٩) العقد الفرید ج ٤ ص ٤٣٥ - وسنعود إلى تفصيل قضية فدك

في باب « دعوة الخير » من هذا الكتاب .

فقد أمر وكلاءه ان يردوا ثماره الى بيت المال ، وأما ما كان له فيه شركاء فلم يمسه لحقوق شركائه فيه .

ولما كان عمر قد قضى على نفسه ألا يأخذ من بيت المال شيئاً قطّ فانه أبقى لنفقة بيته واهله عيناً بالسويداء كان استنبط ماءها في ارض خربة براحٍ ليس فيها لأحد ضربة معول ، فعملها من صلب عطائه ، فكانت تبيته غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحانيّ وتمر عجوة ١٨٠ ، فاكتفى بها ولم يُجِر على نفسه من الفبيء درهماً . فلما قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ! قال ان ابن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالي يغنيني . ثم جعل نفقته من ماله في اليوم درهمين ١٨١ . وقالوا انه لم يُبَق في يده غير بُدا وجزين من ارض بعلبك ١٨٢

أمراء بني أمية

وحين انتهى بما أراد على المنبر نزل فجمع الأمراء وقال لهم : أدّوا ما في ايديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئوني الى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون . واني لأحسب شطر اموال هذه الأمة

(١٨٠) ابن عبد الحكم ص ٤٥

(١٨١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ - تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣

(١٨٢) تاريخ مدينة دمشق ص ٥٨٨

(بدا) هكذا ضبطها الاستاذ صلاح الدين المنجد في تاريخ مدينة دمشق والقاموس تخففها فيقول بدا . انظر المادة في القاموس المحيط ، وقد ضبط صاحب معجم البلدان ضبط القاموس ، وجزين تضبط بضم الجيم مع كسر الزاي المخففة . ولكن اهل زماننا يشددون الزاي . وجزين الحالية في لبنان ليست من ارض بعلبك وانما يقرب الى هذه الاسماء ~~بعض~~ اسماء قرى بعلبك في زماننا وجزين بالحاء

و ثلثيها في ايديكم ، فسكتوا ولم يجيبوه ، فقال : أجيبيوني ، فقال هشام بن عبد الملك : والله لا نخرج من اموالنا التي صارت الينا من آبائنا فنكفر آبائنا ونفقر ابناؤنا - حتى تزايل رؤوسنا اجسادنا ! .

وكان عمر يعرف جهل الناس ويخشى ان يعاونوا الأمراء على مظالمهم ، فقد كان الناس ولدوا في المظالم فظنوا أن الاسلام خلق هكذا كما رأوه ، كان عمر يعرف ذلك فقال : أما والله لولا أن يستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرتُ خدودهم عاجلاً ! ولكنني أخاف الفتنة . ولئن أبقاني الله لأردنّ لكل ذي حق حقه إن شاء الله ١٨٣ .

وغلت ثائرة الأمراء فأرجفوا به ، وهبت عليه منهم عاصفة عاتية فوقف لها مستعرضاً حتى تقتلعه أو يحطمها ، وقد هان عليه ان يستعرض للثائرة لأن الخلافة كانت أهون عليه من كل شيء فلم يبال بهم حين ثاروا وحين أرجفوا . وابتدأ الأمراء يحسون نبضه ثم يتحسسون ثغور الضعف فيه ثم يهجمون عليه لعله يستسلم فيسلم . ولكن عمر ظل قوي القلب شجاعاً ، ولم ينكسر فيه ثغر يلجون منه ، ثم ردّهم رداً عنيفاً فخضعوا واستسلموا .

ووقف عمر من هؤلاء الأمراء وقوف الحصن يدفع عن نفسه ، ولو استطاع ان يزحف ليعصف بهم لفعل ، ولكنه لم يستطع او لم يشأ ، ومن ثم فقد اخطأ ، وعليه إثم الخطأ ، وكان الناس يقبلون منه أن يغير ما شاء من نظام الخلافة ووراثتها ، بل طلبوا إليه أن

(١٨٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

يغير ويبايعوا ، ولكنه تردّد ثم امتنع ، فلم يبنأوا الا بدمته ولم يسعدوا الا في حياته .

وحرصوا عليه أول ما فعلوا عمته فاطمة أم عمر ، كانت واحدة من بنات مروان ، وكانت امرأة قد غلت وأخذتها الحيلاء ، أرسلت اليه تقول : إنه قد عاني أمر لا بد من لقائك فيه ، وأتته ليلاً على صهوة جوادها ، فأدخلها الحراس ، حتى اذا كانت عند باب قبته أخذ بيدها فأنزلها ، ثم طبّق لها وسادتين احدهما على الأخرى ثم أنشأ يمازحها فقال لها : أما رأيت الحرس الذي على الباب ؟

وكانت المرأة جافية لا تنزع الى مزاح ، وقد جاءت في أمر ليس فيه هزل ، بل كله جد ، فقالت لعمر : بلى ، رأيتهم عند من هو خير منك ! فأخذ يخفف عنها فلم يستطع فتحول الى الجد وترك المزاح وقال لها : يا عمة ، أنت أولى بالكلام لأن الحاجة لك ، فتكلمي ، فهتت أم عمر أن تتكلم فقطع عليها مشيئتها وقال : يا عمة ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس على ورد مورود ، فتولى ذلك الورد رجل فلم يستنقص منه شيئاً ، ثم تولاه الرجل بعد الرجل حتى ولي معاوية فشق منه الأنهار ، ثم لم يزل الناس يكرون منه حتى تركوه يابساً ليس فيه قطرة . وايم والله لئن أبقاني الله لأعيدنه الى مجراه الأول !

قالت عمة : فلا يسبوا عندك اذن ! فآها عمر تتعلل بعلة المبطلين اذا غلبتهم الحجة فمالوا الى التافهة والترهة فقال لها : ومن يسبهم ؟ انما يرفع الرجل مظلمته فأردها عليه ! قالت : ان قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم ما لم يأخذه غيرك ! قال ما منعهم

حقاً كان لهم ! قالت : اني رأيتهم يتكلمون ، واني أخاف ان
يهيجوا عليك يوماً عصبياً ! وما كادت عمته تصل به الى هذا القول
حتى احتاج عمر ولم تبق من قوة تطفئ ، حدته وترد غضبه فقال لها :
كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقائي الله شره !

وهمت عمته بالانصراف فاستبقاها ، ثم دعا بدينار ونار ، فألقى
الدينار على الجمر حتى حمي ، فلم ياحمر الذهب وسال زالت
كتابته وفسد ، فتناولوه فألقاه وقد ضاعت رسومه ، فقال : اي
عمة ، أما ترئين لابن اخيك من مثل هذا ؟ فقامت عمته ، تلفف
سربالها وهي لا تتكلم ، قد غلبتها الموعظة وأخذتها الروعة ، فقال
لها عمر : تكلمي ، فقالت : أردت كلامك ومذاكرتك ، فأما
اذ كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً ابداً . ثم مضت
فأنت القوم ، ونار الذهب تتوقد في خيالها ، وتضاهى بين الذهب
وبين أهلها فتجدهم كالخطب اليابس والغطن المنفوش ، للنار أسرع
فيها من الذهب ، وليس الذنب ذنب عمر وانما هو ذنب بني
مروان جميعاً ، فقالت لهم : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل
عمر بن الخطاب فاذا نزعوا الى الشبه جزعتم ؟ اصبروا له ، وذوقوا
منغبة امركم ! ١٨٤

ولكن أمراء بني أمية وقد اشتروا في النسب الواحد
وتساووا مع عمر فيه لم يروا له فضلاً عليهم الا انه انفرده بالخلافة

(١٨٤) ابن الجوزي ص ١١٦ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩ - الاغانى

ج ٨ ص ١٤٦

ولم تكن الشركة في النسب الادعية للمؤازرة والمعاونة . قد كان لهم ان ينتظروا ذلك منه ، ولكنه اخلف الظن وكان اشد احتمالاً واصعب علاجاً ، وصاروا يظنون كل عمل له بازائهم كالدين المجحود والحق المغموط ، فلما جاءوا لاقتضائه منه فثقل ثار بهم الحقد واستعرت نار الغضب . ولو أبعدهم عمر كل البعد لما كثرت مطالباته بالحقوق التي ادّعوها ، وكذلك تعذر الدواء ورقع اليأس لأن عمر أبقي لهم عطفاً مرجواً واملاً مأمولاً .

ثم حان لثورتهم ان تندلع ، فجاء احد اولاد سليمان وقد صدر عمر ارضاً له لم يكن قد رأى سجلها ، وانما علم امرها فصادرها ، فلما اذن له قال : يا امير المؤمنين ، لم لا ترد عليّ ارضي ؟ فقال عمر : معاذ الله ألا ارد ارضاً رسخت لك في الاسلام ! فأخرج ابن سليمان سجلاً من كمره ودفعه الى عمر قائلاً : فهذا كتابي ! فنظر عمر في السجل وقال : لمن كانت هذه الارض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو اولى بها . فقال : يا امير المؤمنين ، فانها لي من بيت مال المسلمين . قال عمر : فالمسلمون اولى بها ، قال ابن سليمان : فرد عليّ السجل . فقال عمر : لو لم تأتني به لم اسألكه ، فأما اذ جئتني به فلا ندعك تطالب بباطل .

لقد خشن عمر على ابن سليمان وهو من أوصى له ، ولقد بكى ابن سليمان فلم يرق له عمر فتركه ومضى ، ورأى ذلك كله مزاحم فرق قلبه على ابن سليمان ، فلما خرج قال لعمر : يا امير المؤمنين ، ابن سليمان تصنع معه هذا ! فقال عمر : ويحك يا مزاحم ! انها نفسي

أحاول عنها ، واني لاجد له من المشقة ما أجد لولدي ١٨٥



ودخل عليه عبد الرحمن بن سليمان وعنده مزاحم وقد جلس
عمر على حشية خشنة ، فلما دخل عبد الرحمن أدناه منه وأقعده معه
على الحشية ثم قال له : يا عبد الرحمن ، ما فعل الثلاثة؟ قال : ومن
هم؟ قال : جدك وعمك وأبوك ، فقال عبد الرحمن : ولوا مثلما
وليت ، ثم دعوا فأجابوا . قال عمر : ألا أنبئك بنحبرهم ؟
قال : بلى .

قال عمر : أما جدك فاني صحبتُهُ فيمن صحبه ومرّضتُهُ فيمن
مرّضه ودفنتُهُ فيمن دفنه فلم أر أحداً أعلم بالدنيا منه ! ثم صارت
الأشياء الى عمك فكنت معه كما كنت مع جدك فلم أر أحداً
اغلب للدنيا منه ! ثم صارت الى أبيك فلم أر أحداً كان آكل
للدنيا منه ! ثم أقبلت الى تريدني على ديني !... ومضى يتم كلامه
فخنته العبرة فلم يتكلم ، فقال مزاحم : قم يا عبد الرحمن . قال
عبد الرحمن فقامت ، فما بلغت باب البيت حتى سمعته يخور
بكاءً وانتحاباً ١٨٦



وكان غنبة بن سعيد بن العاص من أشرف بني أمية وسادتهم ،
وكان أكثر الناس مجاورة للخلفاء ووداً لهم ، وكان ذا مال لا
يحتاج معه الى زيادة ولكنه ما فتيء يزداد ويطلب من الخلفاء وهم

(١٨٥) ابن الجوزي ص ١١٨

(١٨٦) ابن عبد الحكم ص ١٦٠

يعطونه فلا يشبع . جاءه آخر عطاء من سليمان قبل موته وكانت
عشرين ألف دينار كتب له بها كتابا ليقبضها من بيت المال ،
فدار غنبة في الدواوين بكتابه حتى انتهى الى ديوان الحتم ، فتوفي
سليمان فأقفل دونه بيت المال ، ورد الكتاب حتى يأمر الخليفة
الجديد من جديد .

ولم يبتس غنبة لأن عمر صديقه ، وبينهما مودة عظيمة ، فغدا
عليه يريد كلامه في عطاء سليمان ، فوجد بني أمية بباب عمر يريدون
الاذن عليه ليكملوه في أمورهم ، فلما رأوا غنبة قالوا : ننتظر
ما يصنع به ، ثم قالوا لغنبة : أعلم أمير المؤمنين مكاننا ، فدخل
غنبة على عمر ورأى أن يبدأ بكلامه عن قومه ثم يذهب الى
الحديث عن نفسه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان لنا بك قرابة
وان قومك بالباب يسألونك ما كان يجريه الخلفاء عليهم قبلك ،
فقال عمر : يا غنبة ، لن يتسع مالي لكم ، واما هذا المال فحقكم
فيه كحق رجل بأقصى الأرض ، فما يمنعه من أخذه في جيبه الا
بعد مكانه ، والله اني لأرى ان الأمور لو استعالت حتى يصبح
اهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بكم باثقة من
عذاب الله !

قال غنبة : يا أمير المؤمنين فان قومك حينئذ يسألونك ان
تأذن لهم ان يتفرقوا في البلاد ويضربوا فيها ، فقال عمر : لهم ذلك
ما شاءوا ، وقد اذنت لهم الا ان يؤذوا احداً من اهل الذمة !
فقال غنبة : وانا يا أمير المؤمنين ، ان سليمان كان امر لي بعطاء
فلما انتهى الى ديوان الحتم مات سليمان ، واما أمير المؤمنين اولى

باستتمام الصنعة عندي ، وما بيني وبينه اعظم بما كان بيني وبين
سليمان !

قال عمر : وكم ذلك ؟ قال عنبسة : عشرون الف دينار ،
فصاح عمر كأنه ذعر : عشرون الف دينار ؟ عشرون الف دينار
نغني اربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ؟
والله مالي الى ذلك سبيل !

قال عنبسة : اذن فأذن لي ان اذهب معهم ، قال : قد اذنت
لك ! وان احبكم الينا من كفانا مثوته ! قال عنبسة : فخرجت
من عنده ، فلما صرت عند الباب ناداني : ابا خالد ، ابا خالد ،
فرجعت اليه ، قد ظننته رجع عن رأيه ، فقال لي : اكثر وانت
في ضيقتك من ذكر الموت ، فان كنت في ضيق من العيش
وسعه عليك ، وان كنت في سعة منه ضيقه عليك ! كأنها هو
يتهمك بي ! ثم مضيت اخرج فرجع فناداني ، قد عطف علي وتذكر
حرمة صداقتي فقال لي : ولكني اري ان تقيم ، فانك رجل كثير
المال ، وانا ابيع تركة سليمان ، فعليك ان تشتري منها ما يكون
لك فيه ربح وعوض عما فاتك ! قال عنبسة : فأقمت تبر كأبرأيه ،
فابتعت من تركة سليمان بمائة الف ، فخرجت بها الى العراق
فبعتها بمائتي الف . ١٨٧

وأجمع الأمراء على رأي رأوه حسناً ، فرأوا ان يعرضوه
على عمر ليأخذ به ، وذلك ان يمضي رأيه فيما تحت يده من المال ،

(١٨٧) ابن الجوزي ص ١١٤ ، ١١٧ - ابن عبد الحكم ص ٥٦ ،

٥٨ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٥

ولكنه يدع ما قد قسم على الأمراء من قبل ، ولا يرجع على حقوقهم بنقص ولا بحق ، فما مضى فات وصار حقاً ، ولم يكن من عمل عمر حتى يخاف ذنبه ويحمل إثمه - ان كان فيه ذنب كما تورع فرأى - قد رأى الأمراء ذلك واجمعوا عليه وفرحوا به حين ظنوه حسناً .

ولم يبق إلا ان يمضي به من لا يهاب ، فحملة هشام بن عبد الملك الى عمر ، ولكنه لما كان عنده كصل من الشجاعة التي ابداهها عند قومه حين تعرض لحمل امانتهم الى عمر ، وقال لعمر : يا امير المؤمنين ، اني رسول قومك اليك ، وان في انفسهم ما اكلمك به ، وانهم ليقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وما ولوا بنا عليهم ولهم !

وعرف عمر ان هشاماً يزعم القوم ولكنه يتوارى فيهم ، فقال له : ارأيت يا هشام ان جئت بسجلين احدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأي السجلين آخذ ؟ قال هشام : تأخذ بالأقدم ! فقال عمر : فاني وجدت كتاب الله الأقدم ، فأنا حامل عليه من اتاني من تحت يدي وفيما سبقني ! ١٨٨

ثم لم يتوك الأمراء باباً الا ولجوا منه اليه ليودعوه ، ولم يدع وسيلة ولا حدة الا اصطنعها معهم ليودعهم ، حتى ضاق بهم وضاقوا به ، وكان اذا نظر الى بعضهم قال : اني أرى رقاباً ستورد الى أربابها ١٨٩ . وما زالوا يشورون به حتى جاءه كتاب من

(١٨٨) ابن الجوزي ص ١١٨

(١٨٩) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

أحدهم فاستشاط له غضباً فقال : ان لله عليّ من بني مروان يوماً
يكون ذبحاً ، وإيم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي !.. فلما بلغهم
ذلك كفوا ، وكانوا قد علموا صرامته وأنه اذا وقع في امر
مضى فيه .

ولقد طالما تمنى عمر ان يأتي اليوم الذي يكون فيه من الله
وفضل باستئصالهم ، وقد كان يبلغهم تمنيه ، فاذا بلغهم كفوا ، ولم
يكن يدفع عمر عنهم الا انهم يقرون بما انزل الله وبما جاء به
رسوله ، ولكنهم اسرفوا على علم منهم ان الاسراف محرم عليهم ،
ولكن غلب عليهم الشقاء فضلوا ١٩٠

وكان بعض هؤلاء الأمراء من الجواري امهات الأولاد ،
وكان من بينهم جارية يقال لها « بنانة » . كانت امّة في قبيلة
يقال لها « السّكُون » ، وكانت صناجة تطوف في اسواق حمص
وتدور على حوانيتها . وُحِمِلت بنانة فيما حمل من الهدايا الى الوليد
فتزوجها واولدها ولدا يقال له عمر ، فنشأ عمر هذا متكبّراً
جباراً عنيداً .

فلما كان عمر بن بنانة صبيّاً ، وأحبه ابيه الوليد حبّاً كثيراً
استعمله على قطعة من جند المسلمين ، وجعل له رأياً ماضياً في
ذلك الجيش . ولم يكن لابن بنانة من فضل في هذه التولية إلا
انه ابن الخليفة الذي يحبه ويؤثّره ويفضله على الناس ، ولا سبب
لذلك الا حب طائش . فلما اخذ عمر بن عبدالعزيز يردّ المظالم : ما
كان في يده وما كان في يد اهله ، غضب عمر بن بنانة واستكبر

(١٩٠) انظر محاوره عمر للخوارج بتاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ ص ١٨٢

واستعلى وكتب الى الخليفة يقول :

انك ازريت على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ،
وسرت بغير سيرتهم وشنئاً لمن بعدهم من اولادهم . قطعت ما
امر الله به ان يوصل اذ عمدت الى اموال قریش وموارثهم
فأدخلتها في بيت المال جوراً وعدواناً . ولن تترك على هذا .

وجاء الكتاب عمر فكتب الى ابن الوليد يقول : اما بعد ،
فانه بلغني كتابك ، وسأجيبك بخير منه . اما اول شأنك يا ابن
الوليد - كما تزعم - فأمرُك بُنائة أمة السكون ، وأمرُك صناجة
كانت تطوف في سوق حمص وتدور في حوانيتها ، ثم الله اعلم
بها . . . اشتراها ذبيان من اموال المسلمين فأهداها لأبيك فحملت
بك فبئس المحمول والمولود ! ثم نشأت فكنت جباراً غنيذا .

وتزعم اني من الظالمين لما حرمتك واهل بيتك فيء الله عز
وجل الذي فيه حق القرابة والأرامل المساكين ، وإن اظلم مني
واترك لعهد الله من استعملك صبيهاً سفيهاً على جند من جنود
المسلمين تحكم فيهم برأيتك ، ولم تكن له في ذلك نية الا حب
الوالد لولده ، فويل لك ! وويل لأبيك ! ما اكثر خصماء كما يوم
القيامة ! وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وان اظلم مني واترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف
يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وان اظلم مني واترك
لعهد الله من استعمل قرة بن شريك - اعرابياً جلفاً - على مصر ،
واذن له في المعازف واللهو والشراب ، وان اظلم مني واترك
لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهماً في خمس العرب !

فرويداً يابن بنانة ! فلو التقى حاققاً البيطان ١١٩ ، ورد
 الفيء الى اهله - لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة
 البيضاء ، فطالما تركتم الحق واخذتم في بنيات الطريق ١٩٢ .
 ومن وراء هذا ما ارجو ان اكون رأيت في بيع رقبته وقسم
 ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فان لكل فيك حقاً .
 ولقد هممت أن ابعث اليك من يخلق دلالة ، ويجزّ جنتك
 حمة السوء ١٩٣ ، فاني اعلم انها من اعظم المصائب عليك ! والسلام
 علينا ولا ينال سلام الله الظالمين ١٩٤



وكان للوليد ابن آخر يقال له رَوْح قد نشأ في البادية فتبدّى
 وجهاً كأنه اعرابي ، وصارت له غلبة على الناس بالتوعد والتهديد .
 وأقطعه ابوه في حوائط حمص وكتب له بها سجلاً ، فجاء اهل
 حمص يشكون روحاً واباه الوليد ، فلما امر عمر روحاً ان يخلي
 حوائط الناس قال له : هذا معي بسجل الوليد ، فقال عمر : وما
 يغني عنك سجل الوليد وقد قامت البينة على انها لهم ؟ ثم قام
 روح واهل حمص ومضوا ، فتوعد روح حمصاً منهم فرجع الى
 عمر يشكو له فنادى عمر كعب بن حامد احد احراسه وقال له :
 اخرج الى روح بن الوليد فان سلم اليهم حوائطهم فذاك وان لم

(١٩١) يريد أن صار البال رخيادون اشتغال .

(١٩٢) بنيات الطريق - الترهات وسفساف الأمور .

(١٩٣) يريد بالدلال الاضطراب - والجمة مجتمع شعر الرأس .

(١٩٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥ - البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٣٠ -

ابن الجوزي ص ١١٤

يفعل فأتني برأسه ! ورأى روح الحرسيّ قادماً وقد سلّ سيفه
فخّلع فؤاده ، قال له الحرسيّ : قم فخلّ حوائيتهم . فقال : نعم
نعم ، ثم ذهب ذليلاً مقهوراً يخلي الحوائيت^{١٩٥}
ثم رد عمر كل ارض اغتصبها الوليد : ردّ ما اغتصب من
اعراب البادية ورد على ابراهيم بن طلحة داره المغصوبة : اخذها
عبد الملك ثم الوليد ثم سليمان ، فردّها عمر^{١٩٦} . وهكذا كان
ما رآه عمر من المظالم دافعاً له بعزم لا يغلب الى التسلق الى قمة
العظمة بفرض العدالة وردّ المظالم ، ولم يبال ان ينقطع ما بينه
وبين اقربائه متى كانوا ظالمين .

أرباع التجار

وابى عمر على التجار ان يرجوا اضعافاً مضاعفة ، ولكنه لم
يجد لهم عقوبة على ذلك فتركهم على كرهٍ منه ، وقد حدث انه لما
كان اسامة بن زيد التنوخيّ والياً على خراج مصر ان ابتاع من
موسى بن وردان فلفلاً بعشرين الف دينار فخرّنه اسامة في دار
الفلل ، وكان اسامة اشتراه للوليد بن عبد الملك ليهديه الوليد الى
صاحب الروم فخرّنه فيها ، فحين ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز
شكا موسى بن وردان الى عمر ليُدفع اليه الثمن .

قال موسى بن وردان : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز
فحدثته بأحاديث عمن ادركته من اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فكنتُ عنده بمنزلةٍ ؛ أدخل اذا شئت واخرج اذا

(١٩٥) ابن عبد الحكم ص ٥٩

(١٩٦) ابن الجوزي ص ١٠٤ - النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦٠

شئت ، فسألتها الكتاب الى حيان بن سريج في عشرين الف دينار
استوفيتها من ثمن فلفل يدفعها اليّ ، فقال لي : ولمن العشرون
الف دينار ؟ قلت : هي لي ، قال : ومن اين هي لك ؟ قلت :
كنت تاجراً ، فضربني بمسطرته ثم قال : التاجر فاجر والفاجر في
النار ! ثم قال : اكتبوا الى حيان بن سريج !

قال موسى : فلم ادخل عليه بعدها ، وامر حاجبه — الا
يدخلني عليه ١٩٧

عزل الولاة

قال سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب حين استشاره عمر بن
عبد العزيز في العمال : ولا يمنعك من نزع عامل ان تقول لا اجد
من يكفيني عمله ، وانك اذا كنت تنزع لله وتعمل له اتاح الله
لك رجالاً وجاءك باعوان ، وانما العون من الله على قدر النية ،
فاذا تمت زية العبد تم عون الله له ١٩٨ .

وكان مات الحجاج بن يوسف ولكن ظلمه لم يمت ونخلفاءه ما
يزالون يلون البلدان وصيليل سيوفهم ما يزال يقع في الآذان ،
فأنشأ عمر — في سرعة واستعجال — يعزل الولاة الذين ظلموا
وسفكوا الدماء ، فعزل كل رجل ولغ في دماء المسلمين ليهديء
النفوس ويريح الجنوب ، وحرّضه قول سالم بن عبد الله فقيه المدينة
فأمر بعزل كل ظالم وان كان ذا قرابة لأمر المؤمنين .

وعزل عمر اسامة بن زيد عن صدقات مصر ويزيد بن المهلب

(١٩٧) فتوح مصر واخبارها ص ٩٩

(١٩٨) ابن الجوزي ص ١٣٠

وصالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث بن عبد الرحمن الثقفي عن الأندلس ومحمد بن يزيد بن مسلم عن إفريقية ، وعزل أمثالهم . ونفى أهل بيت الحجاج إلى اليمن ولم يستعمل أحداً منهم على سلم أو حرب ليأمن مكرهم ، ونفى أمثالهم . ونزع سيف خالد ابن الريان وطرده وسيف أحد رجال الحجاج وردّه من دابق لثلاثين يوماً في جنده وخفض عطاءه من الفين إلى ثلاثين ، ونزع سيوف أمثالهم . وجاءه عامل معزول يعتذر له بأنه لم يعمل إلا قليلاً للحجاج فقال له : حسبك من صحبة شرٍّ يومٌ أو بعض يوم^{١٩٩}

مسألة بن عبد الملك

ولم يعد أحد من بني أمية مقرباً إلى عمر غير صهره مسألة بن عبد الملك فإنه كان أخا فاطمة ، وقد أحب عمر ولزمه وتبعه واطاعه ، إلا فيما أحل له من الطعام ، فقد أسرف فيه كل الأسراف . وبلغ عمر ما يفعله مسألة فود لو انقطع عن شهوته للمباحات فأنهاتوشك أن توقعه في المحرمات ، فأمر عمر أن يبكر به عليه ، ثم أمر بعدس وبألوان من لحم وطعام طيب ، فلما غدا مسألة عليه أقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوع ، فقام ليذهب فحبسه عمر عنده ، فأقام حتى انتصف النهار ، حتى إذا بلغ منه الجوع ووجد حرارته وعرف عمر - دعا بالطعام فقربت إليه ثريدة العدس فأقبل عليها مسألة فأكل أكل مجهود قد بلغ منه الجوع ، فلم يأل حتى تمسلاً ، فأمر أن تُرفع ، ودعا له بالطعام الطيب الذي أعدّ ، وقال له :

(١٩٩) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠ - ابن الجوزي ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ -

ابن عبد الحكم ص ٣٤

كل ، قال : قد شبت ، قال عمر : كل ، قال : قد شبت ، ما في سعة ! فقال عمر : فكيف بالسرف في الطعام والتقحم في النار وهذا يجزيء عنه ؟ فصبر بعد ذلك مسلة عن سرفه في الطعام ٢٠٠

مشية الرهبانه

كان عمر في غابر زمانه يتطيب ويسرف في تطيبه فاذا ادهن بما صنع من الطيب رؤي العنبر على لحيته كأنه الملح ، ولكنه ترك ذلك كله وجعل يسد أنفه اذا وجد رائحة الطيب حتى يذهب عنه . وحين ضيق على نفسه في الطعام والفاكهة ودام على ضيقه اسود واحترق ولصق جلده بعظمه حتى لم يعد بين الجلد والعظم لحم . وأقدم عمر على الصفاء ورأى من يعجز عن قياد نفسه في الأكل غير مستطيع أن يقود غيره ، ورأى من تحكمه بطنه وتذله لا يستطيع أن يقنع أحداً بأنه قوي الإرادة . ولم يصف صوت العود الا حينما خلا جوفه فتروم ، وانما تنسج الأضراس ضخامة البدن وبلادة العقل وموت الشعور .

وأقدم عمر على الصفاء فصفا ولكنه ظن أنه لم يفعل شيئاً ، فان الطعام والشراب والمسكن أمور مباحة ، وكان التورع عن المباحات عريقاً في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان في عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وفي عمار وأبي ذر وسلمان الفارسي وابن الجراح وغيرهم ٢٠١ ، ولكن عمر بن عبد العزيز نقره من المباحات علمه وتفكره وتعلقه بالآخرة فعهدها اسرافاً والاسراف

(٢٠٠) ابن عبد الحكم ص ٩

(٢٠١) الموافقات ج ١ ص ٦٥

ذميم ، ولذلك كان من يسأله فيقول له كيف أصبحت ؟ يسمعه
يجيبه : أصبحت بطيئاً بطيئاً متلوثاً في الخطايا أمتى على الله
الأماني ! ٢٠٢

واستطاع عمر أن يغير من نفسه كل مظاهرها وعاداتها سوى
مشية التبخترة العمرية التي كان يمشيها صبيّاً ووالياً بالمدينة ، فقد صارت
له ديدناً ، وقد حاول حين استخلف أن يغيرها فلم يستطع ،
فطلب من مزاحم مولاه أن يعاونه وينبّهه كلما مشاها الى أن
يغيرها ، فجعل مزاحم يراقبه ويدلّه ، ثم يرجع فينسى ويخلطها ،
ثم لا يستطيع فيرجع إليها ، وما زال بها حتى اوشك أن يغيرها
قليلاً ٢٠٣ فصارت كمشية الرهبان .

قال علي بن جذيمة : رأيت في المدينة وهو من أحسن الناس
لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس في مشيته ،
ثم رأيت بعد ذلك يمشي مشية الرهبان ٢٠٤

منهين عمر

لقد وجّه عمر منذ ولي الخلافة وأمسك عن المزاح وعاد يراه
حديثاً خسيساً يورث الضغائن ، ولم يرَ أحسن منه ، وصام الاثنين
والخمس والعشر وعرفة وعاشوراء ، ولم يدع المصحف الا نظر
فيه كل يوم ولو قليلاً . إنه لم يكثر ولم يفرط في التعبّد ، ولكنه
داوم وكان في صلاته أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد

(٢٠٢) ابن الجوزي ص ١٤٧ ، ١٥٠ - ابن عبد الحكم ص ٤٤ ، ٥٠

(٢٠٣) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢٠٤) ابن الجوزي ص ٣٢

حدث أبو قلابة قال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة رسول الله في ركوعه وسجوده انه كان يصلي نحواً مما رأى عمر بن عبد العزيز يصلي ٢٠٥ .

وكان عمر ماضياً قدماً لا يتأخر ولا يلتوي ، آخذاً يتعالى في صفاته ويسمو ، ولا ينزل عن عادته في السموات والتعالى ، وما كان يزداد عاماً بعد عام الا فضلاً . ولكن الذكريات كانت تمرّ به فيضاهي بين ماضيه وحاضره فيحنّ لنعماه التي مضت حنين المودّع الذي لا يرجو أن يعود .

كان يضاھي بين عيشه في المدينة ومصر وعيشه الأول بالشام وبين عيشه اليوم فيقول : أين عيشنا اليوم من عيشنا إذ كنا بمصر ! لقد رأيتني وكنا لو ضافني أهل قرية لوجدت ما يعمّهم ! وأين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة ! ٢٠٦

ومرّ يوماً بزوجه فاطمة فضرب على كتفها وقال : يا فاطمة لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم ! فقالت له : والله ما كنت على ذلك أقدر منك اليوم ! فأدبر عنها وله حينئذ حنين ، وهو يقول : يا فاطمة ، إني أخاف النار ! يا فاطمة إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ٢٠٧

(٢٠٥) تاريخ داريا ص ٨٣

(٢٠٦) ابن الجوزي ص ١٥١

(٢٠٧) ابن عبد الحكم ص ٤٧

طريق العدالة



المسؤول الأول

الناس يتساءلون : من ذا الذي يحقق لهم العدالة ؟ أهو الراعي أم هي الرعية أم هما معاً ؟ أما عبد الملك بن مروان فكان يرى أن تبدأ الرعية بالطاعة العمياء والانقياد الذليل ، وطلبت الرعية في عهده العدل فظنها عبد الملك لا تستحقه ، ثم كان يقول : أنصفونا يامعشر الرعية ! تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ؟ نسأل الله أن يعين كلاً على كل^{٢٠٨}

كان هذا رأي عبد الملك . أما عمر بن عبد العزيز فرأى أن يبدأ الحكام ثم تفعل الرعية ، وإذا كان على الحكام أن يبدأوا وعلى الرعية أن تفعل من بعدهم فلأن العدالة في حصانة الناس

(٢٠٨) ثمار القلوب ص ٦٦

جميعاً . واذا كان الحاكم عليه إثم المظالم فان الرعية تحمل معه إثمه اذا لم تراقبه وتقف له بالمرصاد . واذا لم تفعل الرعية ولم تحاسب الولاة أخطأت الرأي وأصبحت بالحرمان . بل رأى عمر ان الرعية التي لا تراقب الحاكم ولا تحاسبه مستحقة للعقوبة اذا لم تنكر المعصية وترفض الظلم .

قال عمر : ان الله لا يؤاخذ العامة بعمل الخاصة ، فاذا ظهرت المعاصي فلم تنكر استحقوا العقوبة ٢٠٩ ، وقد خطب يفتن الرعية الى حقوقها فقال : أيها الناس ، لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة ، فان من وافته منيته فقد قامت قيامته ، لا يستطيع أن يزيد من حسن ولا يعتب من سيء . ألا لا سلامة لأمرىء في خلاف السنة . ولا طاعة للمخلوق في معصية الله . ألا وانكم تسمون الهارب من ظلم امامه العاصي ، ألا وان أولاهما بالمعصية — الامام الظالم ! ٢١٠

عبد الملك بن عمر

وكان حب العدالة والانصاف ركيزة في نفس عمر وميلاً في دمه ورثه من جده ابن الخطاب ، ولكن عوامل اخرى تظاهرت عليه وأحاطت به فقهرته على أن يفعل للعدالة ما لم يفعل لها من قبل . وكانت أقوى هذه العوامل التي نشأت نحوه ابنه عبد الملك .

وظهر ابنه عبد الملك هذا في هبوب العاصفة فبعث فيها عنفاً

(٢٠٩) الحراج لابن يوسف ص ١١

(٢١٠) ابن الجوزي ص ٢٠٤

وقوة ، وكان عبد الملك اعجوبة تاريخ ونادرة فلك . كان ناشئاً لم يجاوز العشرين من عمره ولم يلحق بها ، ولكنه نشأ منذ صغره قوي الإيمان كأنه حوارى لنبي أو أنصاري لرسول ، فجعل الفتى الزاهد يقتحم على أبيه مجلسه وناديه ومخدع نومه وقيلولته بحثه ويعظه ويوقظه وينبئه ألا يؤخر مظلمة للناس مخافة أن يُحتم الأجل فتسوء المغبة وتلتهب على جسد أبيه النار .

وكان كلما ترفق عمر عُنِف عبد الملك ، وكلما دخل عمر في الأمور على هينة اقتحمها عبد الملك قوياً مستعجلاً ، وما زال الصبي بأبيه يزعه ويدعوه حتى بدا عبد الملك كأنه هو الذي ادخل أباه في العبادة ٢١١ ، وقد شاهد أهل الشام بأعينهم حالي عمر قبل الخلافة وبعدها ، فقال بعضهم : كنا نرى أن عمر إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك ٢١٢ .

فحين انصرف عمر من دفن سليمان وردّ الفطائع الى بيت المال وسهر في بيع المتاع والبراذين والسرادقات والشوار وتسريح الجوارى ، وطلع النهار وعمل حتى الظهر وصلى ذهب يتبوا مقبلاً ، فأتاه عبد الملك ابنه فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع؟ قال : أي بني ، أريد أن أقيل ، قال : تَقِيل ، ولا ترد المظالم؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فاذا قلتُ تمت فرددت المظالم . قال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش حتى تقوم فتردها؟ فقال عمر : أي بني ، ادن

(٢١١) ابن الجوزي ص ٢٥٨

(٢١٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢ - النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٣

مني . فدنا منه ابنه فالتزمه وقبل ما بين عينيه وقال : الحمد لله
الذي أخرج من صلي من يعينني على ديني . ثم خرج ولم يقل ولم
يسترح ، وأمر مناديه فننادى ألا من كانت له مظلمة فيرفعها ! فجاء
رجل ذمتي من أهل حمص قد ابيضت لحيته ورأسه فقال : يا أمير
المؤمنين ، أسألك كتاب الله ، إن العباس بن الوليد اغتصبني
أرضي - والعباس حاضر - فقال عمر : يا عباس ما تقول ؟

قال عباس : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها
سجلاً ، فقال عمر : ما تقول أيها الذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ،
أسألك كتاب الله عز وجل ! فقال عمر : كتاب الله أحق أن
يتبع ! قم يا عباس فاردد عليه ضيعته . فردها العباس ٢١٣ .

ورأى عبد الملك أباه عمر متروداً يوماً أو كالمتردد فقال له : ما
يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت
بي وبك القدور في ذلك ! فقال عمر : يا بني ، اني اروض الدنيا رياضة
الصعب . اني أريد أن أحيي الامور من العدل فأؤخر ذلك حتى
أخرج معه طمعا من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه ٢١٤
ودخل عبد الملك على أبيه يوماً وكان عنده عمه مسلمة فطلب الى
أبيه أن يخليه به ، فقال له : أسرّ دون عمك ؟ قال : نعم ، فقام
مسلمة وجلس هو بين يدي أبيه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما
أنت قائل لربك غداً اذا سألك فقال : رأيت بدعة لم تمتها أو سنة
لم تحيها ؟ فقال عمر : يا بني ، أشيء حملك أم رأي رأيته ؟ قال :

(٢١٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥

(٢١٤) ابن الجوزي ص ٧١

لا والله، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، عرفت أنك مسؤل
 فما أنت قائل؟ قال أبوه: يرحمك الله يا بني ويجزيك من ولد خيرا،
 فوالله اني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بني، ان
 قومك شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما
 أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً
 تكثر فيه الدماء. والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهراق في
 سببي محجمة من دم! أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام
 الدنيا الا وهو يميت فيه بدعة ومحبي فيه سنة، حتى يحكم الله وهو
 خير الحاكمين؟ ٢١٥

ولم يدع عبد الملك نصحاء أبيه دون أن يعرف ما يدخلون
 به عليه من النصح، فلما بلغه ذات مرة أن أباه عرض على مزاحم
 ما يفعله ببعض المال، وكان ذلك العرض على رؤوس الناس
 فقال مزاحم: ولديك يا أمير المؤمنين أحق به! وقال عمر:
 أدعهم لله يا مزاحم! — لما بلغه ذلك أسرع الى مزاحم فلقبه فقال
 له: بئس وزير الخليفة أنت يا مزاحم! ثم انطلق فاستأذن على أبيه
 ولم يزل به حتى دفع ذلك المال الى بيت المال، وحذره من وزراء
 السوء. ٢١٦

ولم يزل عبد الملك بأبيه حتى صار لا يبرم أمراً في المظالم دون
 رأيه. قال ميمون بن مهران: بعث اليّ عمر بن عبد العزيز والي

(٢١٥) صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢

(٢١٦) ابن الجوزي ص ١٠٨

مكحول والى ابي قلابة ٢١٧ فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفاً كرهه عمر : قال : أرى أن تستأنف . فنظر عمر الى كالمستغيث بي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابعث الى عبد الملك فأحضره فإنه ليس بدون من رأيت - وكان عبد الملك قد تفقه ودرس حتى صار في الصف الأول من فقهاء الشام ثم زهد - قال ميمون : فقال عمر : يا حارث ، ادع لي عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قال : أرى أن تردها فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها ٢١٨

ومن أعجب أمور عبد الملك أنه كان أملك لنفسه وهو صبي من أبيه وهو خليفة قد دخل في السن والكهولة . قالوا : غضب عمر يوماً فاشتد غضبه ، فلما سكن قال له ابنه : يا أمير المؤمنين ، في قدر نعمة الله عندك وموضعك الذي وضعك الله به ، وما ولاك من أمر عباده - أن يبلغ بك الغضب ما أرى ! قال عمر : كيف قلت ؟ فأعاد عبد الملك كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب أنت يا عبد الملك ؟ قال : ما يغني عني جوفي إن لم أرد الغضب فيه حتى لا يظهر منه شيء ؟

هذا الولد الحير البار ما زال يذيب بدنه الزهد ويضنيه حتى ذبل وذوى ، ثم مرض مرضة الموت ، ولم يبلغ التاسعة عشرة

(٢١٧) مكحول : فقيه الشام تابعي دمشقي ، وأبو قلابة (ككتابة) تابعي .

(٢١٨) ابن الجوزي ص ١٠٥ .

من عمره ففرح لأنه يوشك ان يقضي ! ودخل عليه أبوه يعودده -
وكان يحبه حباً جماً - فقال له : كيف تجددك يا بني ؟ فكتم
عبد الملك ما به مخافة أن يحزن أبوه فقال : أجدني صالحاً . ولكن
الأمر لم يغب عن عمر وكان يعلم استبشار ابنه بالموت فقال له :
اصدقني عن نفسك يا بني ، فان أحب الأمور اليّ فيك لموضع
القضاء ، فقال عبد الملك : أجدني في الموت فاحتسبني ! فتواب الله
خير لك مني ! فحطم الولد قلب أبيه ثم مضى عمر وهو يقول :
يا بني ، والله لأن تكون في ميزاني أحبّ اليّ من أن أكون في
ميزانك ! وذهب يصلي ، فأقبل عليه مزاحم يخبره بموت عبد الملك
فخرو عمر مغشياً عليه .

كان لعمر أولاد كثير ، كان له من البنين عبد الملك وعبد العزيز
وعبد الله وإبراهيم وإسحق ويعقوب وبكر وموسى والوليد
وعاصم ويزيد وزيان ، وكان له من البنات أمينة وأم عمار وأم
عبد الله ، ولكن عبد الملك كان أزهدهم نفساً ، وأجرأهم على أبيه
وكان عينهم ٢١٩ ، فلما مات وجهزه أبوه ودفنه وسوّى عليه قبره
وقف بينه وبين القبلة وأحاط به الناس فقال : يرحمك الله يا بني !
فلقد كنت ساراً مولوداً وبارئاً ناشئاً ، وما أحبّ أني دعوتك
فأجبتني ، ولا والله ما كنت قطّ مسروراً بك ولا أرجى لحظتي
من الله فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله اليه ، فغفر
الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ،
ورحم الله كل شافع شفع لك بخير من حر أو عبد من شاهد

(٢١٩) الخراج لأبي يوسف ص ١٧ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢

وغائب ذكر وأثنى دعا لك برحمة ! رضينا بقضاء الله وسلمنا
بأمره ، والحمد لله رب العالمين .

ثم انصرف عمر عن القبر والناس يترحمون على عبد الملك ، وما
زالوا يترحمون عليه الى الابد حتى يدخلوا في دعاء عمر . ولما
دخل بيته وفد عليه الناس يعزونه فيه فتجلد لهم عمر وجعل يقول :
ان الذي نزل بعبد الملك لم نزل نعرفه ، فلما وقع لم ننكره ! ٢٢٠

عزيمة صادقة

ولم يمّ عبد الملك بن عمر حتى احتدم أتون أبيه بالبغض للمظالم
فلم تعدّ لقوة أن تطفئه أو تخمد ناره ، وزحفت قوى الرجل كما
تزحف قوى الجيش اللّهام تأكل ما أمامها ولا تشبع ، فعدّها
المسلمون كأيام أبي بكر حين حارب أهل الردة فقال الناس :
أفضل الخلفاء أبو بكر يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رد مظالم
بني أمية ٢٢١ . وكان أول من اوقد غضب عمر مزاحم بن ابي
مزاحم مولاة وآخر من أشعله عبد الملك ابنه ، ولم يصّر لعمر
ان يكفّ حتى بات يوصي حرّاسه بأن يزكّوه لو مال ويبصّروه
لو اخطأ ، وكان ، قاله لعمر بن مهاجر رئيس حراسه : اذا
رأيتني ملت عن الحق فضع يدك في ثلبابي ثم هزني ثم قل : يا عمر
ما تصنع ؟ ٢٢٢ . ومضى عمر على الحق ، ولو رآه عمر بن مهاجر

(٢٢٠) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨١ - لعقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٨ -

ابن عبد الحكم ص ١١٦ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٣

(٢٢١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥

(٢٢٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩

قد مال لما تركه دون ان يأخذ بتلابيبه !

الزور والكمب

والعلم والفقہ ، والذوق الأدبي والغنائي - كل اولئك
أربى في عمر احساسه وأرهفه - ففزع للمظالم التي اصابته الناس ،
ولم يكن لرجل بلغ درجة الاجتهاد أن يقف من المظالم موقف من
لا يعلمها ولا يتأثر بها . واثن وقف بعض الفقهاء يُفتون ضد المظالم
فحسب لأنهم لا يملكون لها ردًا ، فان عمر حين جمع في برديه نفس
الفقيه ونفس الحاكم المسؤول كان لا بدّ له أن يردّ . ثم لم يكن لرجل
رقّ ذوقه ونبع فنه حتى صنع الألحان ليطابق بها ما في نفسه من
معان سامية . ما كان له ألا يحسّ المظالم من حوله ! ولكن عمر
- مع ذلك كله - ظل طويلًا لا يدري غير الفقه الأصغر الذي
يعرف الناس به المسائل والقضايا والأحكام ، ثم يتصدرون بمعرفتهم
لفتيا الناس فيما يلتبس عليهم ، وليس لهذا الفقه من قيمة حتى لو
سبق به صاحبه آراء الفقهاء والعلماء ما لم يخفق القلب به خفقان
الشاعر / أو القديس وتعمل النفس له عمل الأنصار والحواريين !

أصماب عمر

وصحبة الناس حظ وقدر وتنقية واختيار . وقد رزق الله عمر
رجالاً أعانوه على النهج وطبعوه حتى تطبّع . وجدّهم أبدا حوله
وفي طريقه ، ووجدّهم في المدينة وفي مصر والشام . وجدّهم في
الطفولة والشباب والصبا والكهولة ، واستجابت نفسه لهم واستجابوا
له فتبادلوا تجارة المعروف ، وكانت أقرب حلقة أحاطت به حلقة

مزاحم مولاه وسهل أخيه وعبد الملك ابنه ، وظلت هذه الحلقة تضيق عليه حتى بدت كأنها انفرجت بموت هؤلاء جميعاً ، ولكنه ظلّ طول حياته حبيساً فيها كأنهم أحياء .

وقد اشترط عمر للصحة شروطاً هنّ سبيل الخير كله : قال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي : قال عمر جلسائه : من صحبتني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل الى ما لا اهتدي اليه . ويكون لي على الخير عوناً . ويبلغني حاجة من لا يستطيع ابلاغها . ولا يغتاب عندي احداً . ويؤدي الأمانة التي حملها بيني وبين الناس . فاذا كان ذلك فحبيها ! والا فقد خرج من صحبتي والدخول عليّ . ٢٢٣

وما كاد عمر يقول ذلك ويسهر على تنفيذه حتى رجحت سوقه ونفقت تجارتها ، فراجت بالاعفاء والنصحاء ، وكان كما قال له ميمون بن مهران : انك سوق وانما يحمل لكل سوق ما ينفق فيها ٢٢٤ .

وقد أحسن عمر في استشارة النصحاء ففي استشارتهم حصافة وهداية ، فان المرء مهما كان حصيماً متمكناً فانه اذا انفرد لذاته وتعقّب غاية منافعه ضل وافتضح أو قصر فأخطأ ، وذلك لأن محبة الانسان ذاته وتخوفه عليها من خطأ ينسب اليها يعرض له الدهشة والحيرة وذلك اذا لم يمل مع الهوى ، فالرجل المميز الفاضل لا يأمن أن يكون رأيه لنفسه من قبيل الهوى دون العقل فيضطرب

(٢٢٣) ابن الجوزي ص ٦٠

(٢٢٤) ابن الجوزي ص ٧١ - رياض النفوس ج ١ ص ٩٩

فكره ولا يضح رأيه لنفسه، وأما اذا كان رأيه لغيره فهو سليم من
الحالين معاً فلذلك يأتي بالرأي الصحيح السليم ٢٢٥ .

ومن أبرز الرجال الذين صاحبهم عمر بالمدينة عبيد الله بن عتبة،
وكان ابن عتبة كثيراً ما ينشده قول القائل :

أين لي فكن مثلي أو ابتغ صاحباً كمثلك اني مبتغ صاحباً مثلي
عزيز اخائي لا ينال مودتي من القوم إلاّ مسلمٌ كامل العقل
وما يلبث الاخوان ان يتفرقوا اذالم يؤلف روح شكل الى شكل
وكان ابن عتبة قد مات ولكن بقي منه في نفسه حبٌ كثير
فكان يقول : لأن يكون لي مجلس من عبيد الله أحب إلي من
الدنيا وما فيها ، ويقول : والله اني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله
بالف دينار من بيت المال ! فقالوا : يا امير المؤمنين ، تقول هذا
مع تحريك وشدة تحفظك ؟ فقال : اين يذهب بكم ! والله اني لأعود
برأيه وبمنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف
وألوف ! ٢٢٦

ومن اصحابه محمد بن كعب القرظي المدني الكوفي الورع ،
كان رقيق الحسّ كبير القدر ثقة موصوفاً بالعلم والصلاح ٢٢٧ ،
وكان من اصحابه بالمدينة ثم حدث بينهما الجفاء ، فلما كان عمر خليفة
وزهد ساوره الندم على ما فعله بابن كعب يوم قال له : يا بن كعب ،
لا تكن كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه ، ولم يلبث عمر حين

(٢٢٥) انظر الهوامل والشوامل ص ١٤٤

(٢٢٦) عيون الاخبار ج ٣ ص ٧ - وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٠٠

(٢٢٧) شذرات الذهب ج ١ ص ١٣٦

ندم أن أرسل اليه يحمله الى الشام فأخبر انه خرج للغزو ، فكتب الى عامله على الدروب أن يجهزه ويسرجه . فلما سُرح القرظي توجه الى عمر فجاءه على كره من بني أمية ، لانهم كانوا قد كرهوا أن يدخل الشام عليهم أهلُ البلاغة والحجة من اهل الحجاز لئلا يفسدوا عليهم أهل الشام .

ودخل القرظي على عمر فرآه على هيئة لم يكن عهده عليها فقال له عمر : يا بن كعب ، استغفري من سوء مردودي عليك حين وعظمتي بالمدينة ، فقال القرظي : غفر الله لك يا امير المؤمنين وأقالك عثرتك ! ثم جعل يكثر اللحظ الى عمر ويقلب فيه بصره فقال عمر : فيم تنظر الي يا بن كعب ؟ قال : انظر واتعجب فأقول : أين ذاك اللون النضير والشعرة الحسنة والبدن الريان ؟ فقال عمر : لو رأيتني بعد ثلاث من دفني كنت أشد نكرة لي منك اليوم !

وقد قعد القرظي لعمر مقعد المؤدب المتروصد فكان له معه تاريخ واخبار . وقد لحظ القرظي التفاوت في طباع عمر وصفاته وأدرك نزعات نفسه ؛ فجعل يمسك بميزانه ويرجح فيه الخير على المنفعة ويغلب فيه الحق على الزيف حتى استقاد له واستقام في يده . كان القرظي يقول لعمر : إن فيك عقلاً وان فيك جهلاً ، فداو بعض ما فيك ببعض . وآخ من الاخوان من كان ذا معلاة في الدين ونية في الحق . ولا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته اليك ، فاذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه . واذا غرست غراساً من المعروف فلا تبغين ان

تحسُنَ تربيته ! ٢٢٨

وقدم على عمر في دمشق - عندما قدم القرظي - وفودُ
البلدان للتهنئة بالخلافة ، وكان اول وفد دخل وفد اهل الحجاز ،
وكان الحجاز اكثر بلد سروراً بتوليته ، فاشرب من الوفد غلام
يريد الكلام ، فنظر اليه عمر فاستصغره فقال له : ليتكلم من هو
اسنّ منك ! فقال الغلام : يا امير المؤمنين ، انما المرء بأصغريه :
قلبه ولسانه ، فاذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد
له الاختيار واستحق الكلام ! ولو ان الأمور بالسنّ لكان ها هنا
من هو أحق بمجلسك منك ! فقال عمر : صدقت ! تكلم ايها الغلام
فهذا السحر الحلال ! فقال الغلام : يا امير المؤمنين ، نحن وفد التهنة
لا وفد المزرة ٢٢٩ ، ولم تقدمنا اليك رغبة ولا رهبة ، لأننا قد
أمنّا في أيامك ما خفنا وأدر كنا ما طلبنا ! ثم قعد الغلام على
دهشة من الخليفة الذي سأل عن سنّ الغلام فقبل له : عشرين سنين .
واهتز عمر لقول الغلام وأخذه الطرب ، وكادت تميل به
زهوة ، ورأى القرظي ما مال بعمر وهزه ونظر في وجهه قد
تهلل وأضاء لما أثنى عليه الغلام ، فهمّ القرظي يكسر الزهوة
ويُسكّن الطرب فقال : يا امير المؤمنين ، لا يغلبنّ جهلُ القوم
بك معرفتك نفسك ، فان قوماً خدعهم الثناء وغرهم الشكر
فزلت اقدامهم فهووا في النار . أعاذك الله أن تكون منهم ،
وأحلفك بسالف هذه الامة ! فتغيّر لون عمر وانكسرت زهوته

(٢٢٨) عيون الاخبار ج ٣ ص ٤

(٢٢٩) المزرة : طلب العطاء

ودمعت عيناه ، ونظر الى القرظي فاذا المهابة تجلله والحق يعلوه
فقال : اللهم لا تخلنا من واعظ ! ٢٣٠

وفطن الخطباء بعدد لما يجب أن يقال لعمر ، فوفد عليه عبدالله
ابن الأهمم وخطب بين يديه فقال : انك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك
ملوكها والقممك ثديها ، فلما وليتها ألغيتها ، وأحببت لقاء الله
وما عنده . فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا و كشف بك كربتنا .
امض ولا تلتفت ، فإنه لا يغني عن الحق شيء ! ٢٣١

واتعظ عمر بابن خاتمه سالم بن عبدالله بن عمر ورجاء بن حيوة
سيد أهل الشام في أنفسهم . ويقولون ان رجاء واحد من ثلاثة
لم ير الناس مثلهم ، وكانهم التقوا فتواصوا : ابن سيرين
بالعراق والقاسم بن محمد بالحجاز ورجاء بن حيوة بالشام ٢٣٢ .
وكان من أصحابه الزهاد البلغاء زياد بن ابي زياد ، قال له عمر
يوماً : يا زياد ، اني اخاف الله بما دخلت فيه ! فقال زياد : لست
أخاف عليك من أن تخاف ، وانما أخاف عليك ألا تخاف ! وكان
منهم الحسن البصري وله اليه اخلص المواعظ وأبلغها ٢٣٣ .

وكان هؤلاء الرجال وأمثالهم قد بحت اصواتهم في وعظ
الخلفاء والعمال فلم يسمعوا ولم يعوا . كانوا يفرعون للدماء تراق
وللمال ينهب وللأرض تنتزع ، وكانوا كلهم من الفقهاء البلغاء ،

(٢٣٠) زهر الآداب ج ١ ص ٤٠ ط ٢

(٢٣١) العقد الفريد ج ٤ ص ٩٩

(٢٣٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧١

(٢٣٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٦٦ ، ٧١

زهّدوه في الدنيا ، وخوفوه المال والدم . وقد جرأه سالم ابن خاله على عزل الظلمة من الولاية . وكتب اليه عمر يسأله ان يكتب اليه بسيرة عمر بن الخطاب فكتب اليه سالم يقول : ثم انك كتبت اليّ تسأل ان ابعث اليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه بين المسلمين وأهل الذمة ، وان عمر - رحمه الله - عمل في زمان غير زمانك ، وانا ارجو ان عملت بمثل ما عمل به ان تكون عند الله افضل منزلة ! ٢٣٤



ولم يجعل عمر يكتفي بصحبه الأقربين ، ولكنه جعل يرسل الى البعداء عن المكان والقربى يسألهم في امره او بعضه ، لعله يجد عند احدهم ما لم يجد عند صحبه الأقربين ، او لعل احداً من المقربين عنده اخفى عنه الحق الذي لا يهاب اظهاره البعيد . وكان عمر يعرف فساد الزمان وان العلماء قد خافوا فلم ينطقوا ، وان الجهلاء اقاموا على جهلهم فلم يسألوا . وقد كتب عمر الى رجل من بقية اهل الشام يذكر له ما ابتلي به ويشكو اليه قلة الاعوان على الخير ويسأله معونته برأيه فكتب اليه الرجل : بلغني كتاب امير المؤمنين ، يذكر فيه ما ابتلي به من امور المسلمين وقلة الاعوان على الخير ويطلب مني المعاونة . واعلم انك انما اصبحت في خلق بال ورسم دارس . خاف العالم فلم ينطق وجهل الجاهل فلم يسأل . وتسألني المعاونة فيما انعم الله علي ؟ فلا تكوننّ ظهيراً

(٢٣٤) ابن الجوزي ص ١٣١

للمجرمين ! ٢٣٥

وقد أدرك مسلمة بن عبد الملك ان الله ينصر بئس هؤلاء
الأصحاب وينزل بهم الغيث متى اشاروا ، ولن يهلك ملك او
رئيس واصحابه مثل هؤلاء ! ولقد تأثر عمر بهم منذ صغره فاتخذ
من نفسه -- حين قدر -- نصيحاً للناس ، وخص الخلفاء قبله بكثير
من مواعظه ووصاياه ، وطالما حضهم على ترك المظالم ، وكانوا اذا
اصابتهم شدة فزعوا اليه .

وقرّب عمر العلماء اليه وابعد غيرهم من الناس ، وكان الناس
من غير العلماء يجتمعون على الخلفاء قبله ، فلما جاء عمر تفرق هؤلاء
وابعدهم عمر عنه ، حتى انهم كلّموه في رجل كان يصاحبه ثم جافاه
فلم يعد يقربه فقال عمر : تركناه كما تركنا الحزّ والوشي ! ٢٣٦ .
وحسناً فعل عمر فان بلية الملوك والناس تأتي من اصحابهم على
الدنيا وعلى مظالم الناس .

وحفلت سوق عمر بالمواعظ فأصبحت لا تحصى مواعظ العلماء
والفقهاء والزهاد له نثاراً وشعراء :

قال له الحسن البصري : واعلم يا امير المؤمنين ان التفكير
يدعو الى الخير والعمل به ، وان الندم على الشرّ يدعو الى تركه .
وقال محمد بن كعب القرظي : اتق الله يا امير المؤمنين ،
وافتح الأبواب وسهّل الحجاب وردّ الظالم وانصر المظلوم .
وقال سالم بن عبد الله : وإنه كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ،

(٢٣٥) الخراج لابن يوسف ص ١١٤

(٢٣٦) ابن الجوزي ص ٧٤

واماتوا ما اماتوا من الحق ، واحيوا ما احيوا من الباطل حتى
ولد فيه رجال ونشأوا فيه وظنوا انه السنة ، ولم يسدوا على
العباد باب رخاء إلا فتح الله عليهم باب بلاء ، فان استطعت ان
تفتح عليهم ابواب الرخاء فانك لا تفتح منها باباً إلا سدّ عليك
باب بلاء ! ٢٣٧

وقال عمر لزياد بن ابي زياد : يا زياد ، الا ترى ما ابتليت به ؟
فقال : يا امير المؤمنين ، لا تعمل نفسك في الوصف ، وأعملها
في المخرج بما وقعت فيه !

وقال زياد : يا امير المؤمنين ، اخبرني عن رجل له خصم الدّ ؟
ما حاله ؟ فقال عمر : سيء الحال ! قال زياد : فان كانا
خصمين الدّين ؟ فقال عمر : ذاك اسوأ حاله ! قال زياد : فان
كانوا ثلاثة ؟ فقال عمر : ذاك حين لا يهنيه عيش ! فقال زياد :
فوالله يا امير المؤمنين ما احده من امة محمد إلا وهو خصم لك !
فبكى عمر حتى تمى زياد الا يكون قد قال له ما قال ٢٣٨ .

الفقه الاكبر

وفي الحق ان عمر كان عنده من الفقه والبلاغة والموعظة اكثر
من هؤلاء او مثلهم ، ولكنه لم يكن قد انتفع به كما انتفع
بالقناعة وكف الأذى ، ولما علمها نسي الفقه الذي كان يعلم وتعلم
الفقه الأكبر . وقد حدث عنه ميمون بن مهران انه قال : خرجت

(٢٣٧) ابن الجوزي ص ١٣٠

(٢٣٨) ابن الجوزي ص ١٣٩

من المدينة وما احد اعلم مني ، فلما قدمت الشام نسيت ٢٣٩ . وقد نسي لأنه رأى اثر القناعة في نفسه ورأى كيف فعل كف الأذى فجعلها فقهه الجديد ، ولما علمه وايقن من نفعه صار يعلمه للناس . دخل عليه غلام يقال له حريث بن عثمان مع ابيه ، فسأل عمر ابا الغلام قائلاً له : ماذا تعلمه ؟ قال : الفقه ، فقال عمر : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر يا امير المؤمنين ؟ قال : القناعة وكف الأذى ٢٤٠

شروط العامل

ولم يأت عمر الخلافة غافلاً قد جهل الأمور ، ولكنه اتاهها على قدر ومعرفة ، قد خبرها عن قرب وعرف كل احوالها ، وأعد لكل داء دواء ، ولم يدع الأمور تجري على سجيتها . وقد رأى منذ بدأ يحكم ان يستعين صلحاء العمال ويستمع لمشورة الناس فيهم . وكان لا يولي الرجل حتى يختبره ظاهراً وباطناً ، فاذا اطمأن له بعد الاختبار ولاه عاملاً او على الحراج والصدقات او قاضياً او قاصاً او صاحب بريد او حرسياً او معلماً او قائداً او سيفاً او على الخاتم او كاتباً . وكل اولئك وغيرهم اختارهم عمر من اولى القسوة في العدالة والرفق بالرعية - وهما امران لا يتعارضان - وقد ضمن باختبار الرجال واختيارهم ان يضع الرجل في العمل الذي يصلح له وينتفع الناس به .

وقد وجه عمر حين استخلف اول إنذار للعمال والولاة في

(٢٣٩) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣

(٢٤٠) ابن الجوزي ص ٢٣٩

تاريخ المسلمين بقوله : ايها الناس ، والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية ، فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن ! ودهش الناس لما قال فأنذر ، وقال رجل من القوم : سبحان الله ، وليها ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا وقاله عمر ! ٢٤١ اما قبل عمر بن عبدالعزيز فكان الحكماء يختارون ممن يقدرون على إيقاع المظالم ، حتى اصاب العالم الاسلامي بنكسة خلقية ظل يتقلب فيها زماناً ، ثم اصبغ العلم والمعرفة - وليس غيرهما - سبباً لوصول الرجل إلى المنصب الرفيع نتيجة تلك النكسة ، وذلك في افضل الاحوال - ولكن عمر رأى ان لا بد من شرط آخر يضاف إلى العلم والمعرفة وهو ان يكون العامل قدوة صالحة في نفسه ، او مستعداً لأن يكون قدوة ومثلاً صالحاً .

القضاة والعمال

ورأى انه ينبغي ان يجتمع للقاضي خمس خصال : يكون عالماً بما مضت عليه السنة ، حليماً ، ذا اناة عفيفاً مشاوراً . فإذا اجتمع ذلك في القاضي كان قاضياً ، وان نقص منهن شيء كان وصماً فيه ٢٤٢ . وقد اختار القضاة من هؤلاء فصارت طبقة القضاة في زمانه مضرب المثل في الرأي والورع . اتقنوا معرفة العدالة وحموا اعاليها وسهروا ولم يكن عمر يولي قاضياً في اقصى الارض الا كما يولي في ادناها اليه ، بل كان يتورع في اختيار القاضي البعيد ، ولا يولي احداً من غير تجريب .

(٢٤١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

(٢٤٢) ابن الجوزي ص ٢٣٨

قالوا لما افضت الخلافة الى سليمان ووجه رجلاً من ثقاته بقبض خراج افريقية، وأمر واليها عبدالله بن موسى بن نصير ان يكون جمع المال بشهادة عشرة من اهل القيروان يصحبون المال حتى يصل اليه في دمشق ويشهدون عنده انه أخذ من وجهه ، فلما وصلوا بالمال الى سليمان قال لهم : اؤخذ هذا المال من وجهه ؟ فقالوا : نعم يا امير المؤمنين . ثم جعل يسألهم فيجيّبونه ، وبينهم رجل لم يتكلم قط .

وحضر عمر ذلك المجلس ورأى ما حدث فلما انصرفوا سأل عمر عن الرجل الذي لم يتكلم قط فقالوا : انه عبد الله بن المغيرة ، وذكروا له دينه وفضله وورعه ، وأخبروه انه إنما منعه من الكلام خوفاً الا يتكلم إلا بحق . فحفظ عمر ذلك لابن المغيرة ، فلما افضت الخلافة اليه ولاه قضاء افريقية . وتقلده ابن المغيرة لورعه وثقته في نفسه ثم لعلمه ومعرفته . ٢٤٣ وكما رأى في ابن المغيرة فولاه ، ولّى السمع بن مالك الحولاني على الاندلس وقد كان رأى منه امانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك ٢٤٤

يهول بن ابي برة

فاذا ساق المصادفة علماً بأحد لم يزل يستخبر عنه حتى يثق فيه فيوليه ، فاذا لم يستكمل الثقة لم يوله . ولم يكن يقدم والياً او قاضياً على غيره تعصباً له ، وإنما يولي الأفضل ويقدمه ولو كان من غير اهله او من غير اصحابه او من غير العرب .

(٢٤٣) رياض النفوس ج ١ ص ٨٢

(٢٤٤) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٦

وكان عمر غير خب^{٢٤٥} . ولكن الحب لا يغلبه . وكثيراً ما خاف ان يدخله الغش من مظاهر الرجال ، فجعل يثبت ويدسّ على ذوي المظاهر من يأتيه بخباصة اخبارهم ليثق بهم او يزيّفهم . وقد كان عمر اول من زيف بلال بن ابي بردة وكشف خبيثته ، ثم طرده ولم يستعن به ولا بأحد من اهله في عمل له .

وبلال بن ابي بردة الكوفي كان رجلاً داهية لقناً اريباً ، وكان كريم المظهر بادي التدّين ، هذا كان مظهره ، اما ما وراءه فنفس ذات ملق وطمع وسرعة إلى الحمق والباطل . وقد هذا الرجل على عمر ابن عبد العزيز بخناصرة فهناه بالخلافة قائلاً : من كانت الخلافة يا امير المؤمنين شرفته فانت شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، وانت والله كما قال مالك بن اساء :

وتزيدن طيب الطيب طيباً إن تمسين ، أين مثلك أيننا
وإذا الدّر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

فشكر له عمر ثم خرج من عنده فلزم المسجد ولصق بسارية منه ، فجعل يصلي اليها ويديم الصلاة ، فقال عمر للعلاء بن المغيرة ابن البدار : إن يكن سرّ هذا كعلانيته فهو رجل أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : انا آتيك بخبره . فأثاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فان لي اليك حاجة ، ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالي عند أمير المؤمنين ! فان أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال بلال : لك عمالتي سنة ! - وكان مبلغها ألف ألف درهم - قال : فأكتب لي بذلك .

(٢٤٥) الحب : الماكر الخادع .

فانقلب بلال مسرعاً إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك ، فأتى العلاء بالكتاب إلى عمر ، فلما رآه كتب إلى واليه على الكوفة : « أما بعد ، فإن بلالاً غرنا بالله فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبيثاً كله . والسلام » ٢٤٦

وقد أبى عمر أن تجوز عليه حيل الدجالين وطرق المحتالين ، فجعل كلما بلغته حيلة دجال وخرافة محتال يتقصى أحواله لئلا يصاب الناس بجهالته ، وقد حدث أن قدم إليه رجل من خراسان فقال له : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت في منامي قائلاً يقول : إذا ولي الأشج من بني أمية يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فولي الوليد فسألت عنه فقل لي : ليس بأشج ، ثم ولي سليمان فكان مثل الوليد ، ثم وليت أنت فكنته ! فقال عمر للرجل : تقرأ كتاب الله ؟ قال الرجل : نعم ، فقال عمر : فبأنذي انعم به عليك أحق ما أخبرني ؟ قال : نعم . فأمره عمر أن يقيم في دار الضيافة ، فأقام نحواً من شهرين ، ثم أرسل إليه عمر فقال : هل تدري لم احتبسناك ؟ قال : لا ، قال : أرسلت إلى بلدك لنسأل عنك ، فإذا ثناء صديقك وعدوك عليك سواء . فانصرف راشداً . وكما لم يجز الدجل عنده لم يجز الخلط والسفه ، وقد حدث أن كتب إليه أحد عماله يقول : إنا أتينا بساحرة فألقيناها في الماء فطفت عليه فما ترى فيها ؟ فكتب إليه عمر يقول : لسنا من الماء في شيء ! إن قامت عليها بينة وإلا نخل سبيلها ! ٢٤٧

(٢٤٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٦٨

(٢٤٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣ ، ٤٣٧

لقد وثق عمر أنه لا يستطيع وحده أن يسوس الأرض ، بل لم يكن يجهل أنه مهما تحرى العدالة فانه لا يستطيع الوصول في العدل إلى حد من النزاهة لا يستقر عنده خطأ ، فلم يقنع بما يرسمه لنفسه ولقضاته من مظاهر العدالة ومفاهيمها ، وراح يسأل عنها عارفيها وخبرائها ويلجّ على نفسه بالصورة بعد الصورة حتى يثبتها في نفسه واضحة بارزة ملمومة الأطراف غير غائبة ، وقد استوصف ابن كعب العدل فقال : يا ابن كعب ، صف لي العدل . فقال ابن كعب ، سألت عن أمر حسن : كن لصغير المسلمين أباً ولكبيرهم ابناً وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم . ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً فتتعدى فتكون عند الله من العادين ٢٤٨

ولم تفرق عند عمر وأصحابه عدالة عن عدالة فالعدالة الحكمية التي هي من عمل القاضي والعدالة الاجتماعية التي هي من عمل الوالي أمران عندهم لا يفترقان ، وكلاهما إن تحقق يسند الآخر ويشدّ من بنيانه ، ولذلك عني بها معاً وسأل عنها جميعاً .

وليس واقع العدالة إلا الاحسان الى من يستحق وعقوبة من يستحق وتقدير العقوبة فلا يعاقب مذنّب كمذنّب ، ثم القصد فلا إسراف ولا تقصير ، والعربي والمولى سواء . وكما وصف القرظيّ وفعل عمر تكون العدالة ، أما صياغة العدل في نظريات فلم تكن صنعة فقيه كالقرظيّ ولا صنعة حاكم كعمر بن عبد العزيز !

ومن العدالة درء الحدود بالشبهات ، وهو حكم من مقدساتها لأنه رفق بالناس ان يصيبهم ظلم ونَصَب . وشفقة بالجناة أن يصيبهم إسراف وعنت . ودرء الحد بالشبهة خير ، حتى لو أخطأ القاضي به موضع العدالة . وقد كتب عمر في ذلك لعماله وقضاته فقال : ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، في كل شبهة ، فان الوالي إذا أخطأ في العفو خير له من ان يتعدى في العقوبة ! وقد اقتدى في ذلك بجده عمر بن الخطاب .

ما ليس من العمل

وليست العدالة ان يعطى المدعون دائماً حقوقاً يدعونها ، فقد يدعون بطلاً وزوراً ، وعلى القاضي أن يتفهم إذا أدلى اليه لينجو ، ورب مقضي له بحق قضي له بقطعة من النار . وقد حكوا أن عمر رد الطامع حين عرف طمعه : قالوا : إنه قدمت بين يديه عنبرة عظيمة بعد موت سليمان ، وكان رجل قد انتظرها حين تعرض ، فلما قدمت قام يدعيها فقال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فقال عمر : ما شأنها ؟ قال : بعثها سليمان بن عبد الملك بسبعة آلاف درهم ، وهي خير من ثمانية عشر ألفاً .

قال عمر : ويحك ! هل أخافوك ؟ قال : لا ، قال عمر : فهل أكرهوك أو غصبوك ؟ قال : لا ، قال عمر : فماذا ؟ قال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فأمر عمر به أن يتأخر ، فلا حق له ! ٢٤٩

تنفيذ الامام

ولم يجد عمر نفعاً للعدالة إذا لم تجعل في يد قاضيها قوة لا

(٢٤٩) ابن الجوزي ص ٨٠

تَغْلَبَ وقهره لا يكسر ، ولا بد أن يكون القضاء فوق كل شيء حتى الملك ، والقضاء أمر مقدس كأنه يدُ الله ، ولم يجرم عمر حين جاءه مصري من حلوان يقول إن أباه عبدالعزيز اغتصب ضيعته في إبان ولايته على مصر ، وعنف المصري على عمر فلان له وقال : نازعني منازعة كريمة ، ولا تشتم عرضي ، فإن لي فيه شركاء ، إخوة وأخوات ، وهؤلاء لا يرضون إن أرد لك الضيعة بغير القضاء ، والرأي ان تذهب الى القاضي .

واستمع القاضي للمتخاصمين ففضى للمصري فقال عمر : قد أنفقنا عليها الف الف درهم ! فنظر القاضي فاذا عمر وأهله قد أخذوا من غلتها بقدر ما أنفقوا ، فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها فردوها لصاحبها ! فقال عمر : بارك الله عليك أيها القاضي ، وقام فرد الأرض للمصري^{٢٥٠} .

ولا تتم العدالة الا بتنفيذ الأحكام وقبض الحقوق ، فاذا قضى لصاحب حق ولم يقبض حقه ظل الظلم واقعاً والحق ضائعاً ، وبين هذين يظل الحاكم الأول مسئولاً ملوماً . وقد فطن عمر لذلك كله فوقع بذات يده على رقعة رجل يتظلم من ابنه فكتب : إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتك !^{٢٥١}

ولم ير عمر من بأس في أن تُنفذ الأحكام في خفة وملاينة وإقناع بالخطأ دون أن يستأني لتلاك أوراق القضايا وتمضي عليها السنون ، ولم تعجب عبد الملك بن عمر - في أول الأمر - هذه

(٢٥٠) المرشد ج ٤ ص ١٢٩

(٢٥١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٩

الطريقة فاستشار أباه ليمضي ولا يلتفت ، فقال له عمر : يا بني ، إن نفسي مطيتي إن لم أرفق بها لم تبلغني . اني لو اتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا . . . وان الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استمكن الايمان في قلوبهم . فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي . ، ولكني انصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له . فان يرد الله اتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى . فحسب عبد أن يعلم الله أنه يجب أن ينصف جميع رعيته ! ٢٥٢

وانما رأى عمر أن يستعجل القاضي فيحكم متى علم بالمظلمة ووثق من وقوعها . وعلم القاضي وثقه يغنيان عن الدليل . اما المماحكة في أن ذلك يخالف الفقه فمناصرة للباطل باسم الفقه ومواد القانون ، وكذلك لم تعرض قضية على عمر وكان يعرف تفاصيلها من قبل ويتق بها الا حكم فيها من فوره كما حكم في قضايا ابناء الوليد لمن ظلموهم من أهل حمص ٢٥٣ . وقد قال أبو الزناد : كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم الى اهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفي باليسير ، اذا عرف وجه مظلمة الرجل ردّها عليه ، ولم يكافه تحقيق البينة ، لما كان يعرف من غشم الولاة قبله على الناس .

ولم يكن عمر يُرهِقُ الخصم ليُقر ، بل يدعه دون ان يؤذيه حتى يقر أو ينكر فيحلف . وقد كتب اليه عدي بن أرطاة

(٢٥٢) ابن الجوزي ص ١٠٦

(٢٥٣) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٩

يوماً يستأذنه أن يمسّ الناس بشيء من العذاب ليقرّوا، فكتب إليه عمر : أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأني 'جنة' لك من عذاب الله ، وكأن رضي ينجيك من سخط الله ، فانظر من قامت عليه البينة فخذها بما قامت عليه ، ومن أقرّ فخذها بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلّ سبيله ، وإيم الله لأن يلقّوا الله عز وجل بجناياتهم أحبّ إليّ من أن القى الله بدمائهم . والسلام ٢٥٤

وكما رأى وجوب الاستعجال في الحكم عند المعرفة وآه واجباً عند ظهور الدليل ، فاذا غاب عن القاضي العلم وغابت عنه الأدلة وجب عليه أن يبحث وراءها حتى تظهر له البينات . فاذا لم تظهر ردّ الأمر الى عمر ليرى رأيه فيه .

وكلّ ذلك الاستعجال كان في كل قضاء ليس فيه حدّ بقطع أو قتل ، فاذا كان الحكم في حدّ وجب ألا ينفذ إلا أن يُرفع الى الخليفة ويراجع فيه ، وهو ما كان عمر أشار به على الوليد فأبى ، فلما صار الأمر له عمل بما كان أشار به ٢٥٥ . وفيما عدا ذلك فقد أمر الولاة أن يردوا المظالم دون أن يراجعوه .

وقد كانت الأمور جرت قبل عمر ألاّ ترد المظلمة إذا رُدّت حتى يمر عليها الزمن فتبلى الفرحة بها أو يقع اليأس منها ، وما كان أحد يصل اليه حقه حتى ينفذ صبره ويموت جلده من طول ما

(٢٥٤) ابن عبد الحكم ص ١٢٩ - ابن الجوزي ص ٧٩ ، ٨٤ العقد

الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ - الخراج لأبي يوسف ص ١١٩

(٢٥٥) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤

يكتب الكاتب للكاتب ، والكاتب للعامل ، والعامل للخليفة . يصعد الأمر من سفلى الى علو ، ويرجع فينحدر من علو الى سفلى . فلما رأى عمر ذلك ثقل على قلبه المطل والتأجيل . وحدث أن عامله عبد الحميد ابن عبد الرحمن جعل يراذه في المظالم ويراجعه فيها فكتب اليه عمر : انه يخيل لي أني لو كتبت لك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت اليك بأحدهما لكتبت إليّ : صغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبت بأحدهما لكتبت : ضائنة أم معز ؟ فإذا كتبت اليك فنفذ ، ولا ترد عليّ . والسلام ٢٥٦

أنواع المحاكم

ولم يكن لعمر مكان خصصه للتقاضي بين يديه فحيثما انتقل صار قاضياً وفي ظله تسير العدالة ، وقد سمع للشاكنين في بيت الإمارة وبيته الذي سكن فيه ، وفي المسجد ، وعند أوان الخطبة ، وعلى المنبر ، وفي راحته ، واستجماهه ٢٥٧

وكان القاضي في عهده - كما كان في العهود الإسلامية - قاضياً منفرداً ، ولم يرثف هيئة للقضاة تحكم مجتمعة ، ولكنه حمى القاضي المنفرد ان يزل منها انفرد بالحكم ، إذ طلب اليه أن يشاور ذوي العلم ، فلم يعد بالقاضي المنفرد نقص ، ولا خوف من مزلتها منها انفرد ومهما كان الناطق وحده بالأحكام .

وإذا اطمأن القاضي لرأيه كان عليه أن ينفذ الحكم ، وذلك إذا لم يجد من سابقة تهذيبه أو فقه يدهله ، وبعد أن يكون قد استشار

(٢٥٦) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

(٢٥٧) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٨

فأعيا ، وعجز المشيرون عن الرأي .

مرافقة العمال

لقد دلَّ عمر عماله على الطريق ومدَّهم برأيه ، وترك لهم حرية الرأي متى وثقوا من أنفسهم فعدلوا ، وإن عندهم من العلم بأحوال الناس ما يعينهم على الرأي واختيار أفضله ، وكانت هذه الثقة منه في ولاته وقضاته داعية إلى ورعهم واجتهادهم في تحري العدالة ، ولكنه مع هذا بات يراقبهم ويبث حولهم الارصاد ويدس عليهم العيون ، ويول لمن جار منهم وظلم ، ويوح لمن زل منهم وأخطأ ! وكان التوبيخ واللوم الشديد أول عقاب من عمر يعاقب به الوالي المخطئ ، فإذا لم ينته عزله . ولقد قصر عدي بن أرطاة ذات مرة وقد استخلفه عمر على الكوفة فأرسل إليه يقول له : أما بعد ، فانك غررتني بعمايتك السوداء ومجالستك القراء وارسالك العمامة من ورائك ، وأنتك اظهرت لي الخير فأحسنيت بك الظن . وقد اظهر الله ما كنتم تكتُمون . والسلام .

وفعل عمر مع السفراء مثل الذي فعل مع العمال والقضاة ، فأرسل معهم العيون ليأتوه بما علموا ، وحين وجّه عبد الله بن عبد الأعلى إلى ملك الروم وجّه معه رجلاً من عبس ، ثم خلا بالعبسي قبل أن يسير وقال له : احفظ كل ما يكون من ابن عبد الأعلى ، فلما رجعا خلا بالعبسي فاستخبره وحده ما حدث وأخبره ٢٥٨

ولم يغفل عمر الرأي العام ، ولم يسقط حساب الأمة في حكمها على ولاته وقضاته ، فأشرك الناس جميعاً في الرأي ، وجعل موسم

(٢٥٨) الكامل للبردج ١ ص ٣٠٦ - ابن الجوزي ص ١٠٨

الحج مكاناً لعرض أعمالهم وسؤال الناس عنهم لتثبيت من يرى تثبيته وعزل من يستحق أن يعزل ، وحتى يقف أهل الموسم على نيته في العدالة ويخبروا من وراءهم من الناس . وقد اجتهد عمر في ذلك وتورع فكاشف عامة الناس بما يريد .

ولم ينس عمر ما كان قاله لسليمان حين فرح بكثرة الحجيج ، لم ينس عمر ذلك مذ قاله لسليمان ، فلما كان خليفة دلف الى الموقف كما كان دلف مع سليمان ، ورأى من الحجيج أكثر مما كان قد رأى معه ، وسدّت النليات مسامع الجواء أكثر مما كانت سدّت ، ورجف عمر فتقدم الى الناس يلهمهم من الأطراف ويجمعهم ويخطبهم ، فلما قام خطيباً برى الى الله وأشهد أنه لم يأمر بعدوان ولا ظلم ، ولم يتعمده ولم يرضه ، إلا أن يكون وهماً منه وخطأ ، أو أمراً خفي عليه لم يتعمده ، ورجا الرعية أن تضع عنه كل ذنب ، وتغفر له كل خطيئة ، متى عرفت حرصه واجتهاده .

وقد نادى عمر في الموسم أنه 'معوّل كل مظلوم ، وأنه لا إذن لمظلوم دونه ، وأنه لا طاعة لعامل رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة . ثم نادى عمر بأخطر شيء نودي به في أمور الظلمة من الولاة إذ نادى أنه مصير أمر الوالي الظالم الى الرعية حتى يراجع الحق وهو ذميم - وما تمس الخفاة قلوب الولاة بأكثر مما تمسها إذا وكل أمرها للرعية لتأخذ منهم بحقها . وقد علم الناس كيف أخذ أهل المدينة هشام بن اسماعيل لما عزله الوليد عن المدينة فمر به الناس كل يأخذ منه بحقه ويقتص منه بجرمه .

والرعية لا يهمها من العدل إلا ما يسعدها ، وما تهتم العدالة

بمعناها الفقهي الا المظلوم ، أما الناس فيفرحون بالعدالة لأنهم يعتقدون أنها السعادة والوفرة والغنى ، فإذا لم تقدم العدالة ميسرة وغنى لم يفتقروا اليها . وقد عرف عمر ذلك فنادى في الموسم : أن مال الفيء مصروف الى أصحاب الحقوق ، وأنه لا دولة للمال بين الأغنياء دون الفقراء .

ولم يغب عن عمر أن الرعية تنهاب أن تشكو ولايتها لأمرين : اما خوفاً منهم واما رهبة السفر ومشقة الطريق ، فدعا عمر قائلاً : وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله ما بين مائة دينار الى ثلثمائة . وعلى قدر ما ترى من الحسبة وتجشم المشقة . فرحم الله امرءاً لم يتعاضمه سفر يحبي الله به حقاً لمن وراءه .

وقد رأى عمر الناس وقد انصتوا لقوله وابتهجوا له وكادوا يشتغلون به عن مناسكهم ، ففطن لما حل بهم وخاف أن تكون فتنة به ، فلم يكلامه وبلغ به غايته حين قال : ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحيها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، فلا تحمدوا غيره . ولو وكلني الى نفسي كنت كغيري ٢٥٩

ولم يشغل عمر الناس عن المناسك ! فما فرض الحج الأكبر الا ليتشاور الناس فيما يصلحهم ، فاذا كانت وجهة كل حاج للبيت أن يطوف ويلبي محبوساً في جملدة جسده فما أدى الناس الحج ! ولكن عمر اقتضب كلامه لأنه رأى الناس يطلبون منه المزيد ثم التفتوا الى التحدث بفضله ، فدعاهم الى وجهتهم وتركهم الى قبلتهم .

(٢٥٩) ابن الجوزي ص ٧٢

السطوى

ومند نودي بعمر خليفة على الناس ودمشق تزدهم بالشاكين
جاءوا اليها وقعدوا لعمر كل مقعد ، فلم يكن يخطو او يجلس او
يخطب حتى يعترضه معترض بشكوى ، حتى فزع عمر لما يرى . فلما
علم ان أكثر هؤلاء قد جاءوا من أقصى الأرض وتحملوا مشقة
السفر ولم يجدوا من يحمل عنهم شكواهم رأى ان يردهم الى بلادهم
وأن يدفع اليهم بنفقات أسفارهم حتى يصلوا الى ديارهم وحتى لا
ينفر أمثالهم أو ينفر من لا تستحق شكواه أن ينفر اليه .

وانتظر عمر الجمعة ثم انتظرها الناس حتى يخرج الى الصلاة ،
واذا مسجد دمشق تغص نواحيه بالشاكين من الغرباء فيخطبهم عمر
وقال : أيها الناس ، اني أنساكم هنا وأذكركم في بلادكم ، فمن
أصابته مظلمة من عامله فلا اذن له علي ، ومن لا فلا أرينته ، وإني
والله إن منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال وضننت به عليكم إني
اذن لضنين ! ٢٦١ فسأل الناس الى بلادهم فرحين أن تلحق بهم
العدالة في الطريق .

فمن جديد

وكان الشعر العربي قد أطلق قرائح الشعراء وراء الكذب
الفني فتقربوا بالأماديح وازدلقوا بالاغراق في الباطل ليرضوا
الحلفاء أو ليهوتوا عليهم قيمة المال فيخفوا به في حقائبهم باسم
الجود والمعروف أو باسم الحق في النهي كما كان قال الفرزدق لمعاوية :

(٢٦٠) ابن عبد الحكم ص ١٥٢

(٢٦١) ابن الجوزي ص ٥٤ ، ٧١

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا تراثاً وأولى بالتراث أقاربه
وما الجود والمعروف ولا النهي كذلك، ولكن الخلفاء اخطأوا
الطريق فردوها جاهلية في العطاء كما ارتدت جاهلية في الخصومات
والصراع . وضرب عمر بن الخطاب الخطيئةَ في صميمها ولكنها
عادت حية في ظل امية ، ثم ضربها عمر بن عبد العزيز ضربة ثانية
فخمدت في مدته ثم عادت من بعده حين ضري الباطل لأنه لم يرَ
يداً تضربه كما ضربته ايدي العُمَريين .

وانصرف الشعراء عن باب عمر في دمشق، ولم يكن منصرفهم
ليحطّوا الشعر عن كواهلهم وإنما ليُرْجِعُوا اليه الصدق الذي
فقدته والحق الذي جاوزه ثم يعودوا الى عمر كما يعود الناس ، ولهم
ادانهم واسلوهم بشكون بالصدق ويأكلون بالحق . وهكذا
رجع الشعر عن زور المديح وغلو القول ، وترك الشعراء فنوزاً
من الغزل والواناً من التزويق لأن عمر قال لجري حين اراد ان
ينشده : يا ابا حذرة ، قل ، ولا تقل الا حقاً .

وكذلك جعلت معاني الشعراء تدور في مدارات الزهد
والصدق والرضا، وصدّت عن الهجاء وخافت مغبة الشتم .
وعاد جري نفسه، وهو من استثنائه عمر من الشعراء فلقبه
يشكو امير فقره مرة ، ويشكو له حرمانه من حقه في صدقات
الأعراب مرة، وعمر يعطيه نصيب الفقير ويسمع له شكاة المظلوم،
وبما قاله جري يشكو ابن سعد الأزدي لما تولى صدقات الاعراب
وحرّم جرياً :

ان عيالي لا قواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
وقد كان ظني بابن سعد سعادة وما الظن الا مخطىء ومصيب
فان ترجعوا رزقي اليّ فانه متاع ليل والأداء قريب
وقال رجل يشكو عمال عمر اليه :

ان الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحل المحرم
وأردت أن يلي الأمانة منهم برّ وهيبات الأبرّ المسلم
طلّس الثياب على منابر أرضنا كلّ بنقص نصيبنا يتكلم^{٢٦٢}
ومع أن عمال عمر اقتدوا به في العدل فان الناس اخذوا
يتهمونهم بالظلم ويشكونهم اليه ، ولم يحدث ذلك الا لان الناس
احسوا أن عمر إنما جاءهم ليسعدهم وليدر عليهم الخير والرزق ، ولم
يدع عمر هذه الشكاوى دون الاهتمام بها وتحقيق العدالة لأهلها متى
كانوا مستحقين .

أثر العدالة

أقل ما يحدث من العدالة أن يسعد الناس أو يحسّوا أنهم
سعدوا وأن يستتب الأمن في الأرجاء . وقد حدث ان سادت
العدالة في مدة عمر وعمّ الأمن وانقطعت ظهور الناس ويئسوا من
الظلم ، حتى ان الحوارج حين بلغتهم سيرة عمر وما ردت من المظالم
اجتمعوا وقالوا ما ينبغي لنا ان نقاتل هذا الرجل . ولكن شيئاً
هاماً غير هذين هو الذي يجب ان يكون ، وانه شيء لا يخطر
ببال الناس ، فما هو هذا الشيء ؟ هو أن يتخلى القضاة عن مناصبهم

(٢٦٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٠١ ، ٤٠٤ وجعلهم بقوله طلّس الثياب
بمنزلة الذئاب مع اظهارهم التقشف .

كلما ثقل عليهم العبء والا يقبل منصب القضاء احد اذا عرض عليه مخافة ان يزل .

ولقد حدث في مدة عمر بين القضاة هذا الشيء الذي لا يحدث . فقد كانت عمّت العدالة ونشط الوعي في يقظة الراعي ومخافة الله ، فجعل القضاة يهربون من أن تسند اليهم مناصب القضاء ، سواء من خشي الله منهم ومن لم يخشه ، لأن القضاة أحسوا بالمسؤولية فثقل الأمر عليهم ، أما الخائف من الله فانه استيقظ ليفر من النار ، وأما من لا يهاب فقد خاف عمر وخاف الناس .

وكان ممن كتب الى عمر يستعفيه ميمون بن مهران عامله على خراج الجزيرة وقاضيه بها ، فكتب اليه عمر يقول : اني لم أكلفك ما يعنيتك . اجتنِ الطبيب واقض بما استبان لك من الحق . فاذا التبس عليك أمر فارفعه اليّ ، فلو ان الناس اذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا ٢٦٣

وشكا اليه عامل سهره وتعبه فكتب اليه : يا أخي ، اذكر سهر أهل النار في النار ، وخلود الآباد فيها ، فان ذلك يطرد بك الى ربك نائماً ويقظان ، واياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك والسلام . فلما قرأ العامل كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ! لا وليت لك ولاية ابداً حتىلقى الله سبحانه ! ٢٦٤

(٢٦٣) الخراج لأبي يوسف ص ١١٥ - ابن الجوزي ص ٩٧

(٢٦٤) حياة الحيوان ج ١ ص ١٣٥

وكتب عمر الى عدي بن أرطاة وهو يعمل له على البصرة
ليجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني ويولي القضاء
أنفذهما . فجمع بينهما عدي ، فجعل كل واحد منهما يبرأ من
العلم والفقہ ويرمي بها صاحبه ، حتى بلغ الأمر الى الحلف كذباً
على ذلك لينجو كل واحد منهما فلا يسند اليه منصب القضاء .

وقال اياس لعدي : أيها الرجل ، سل عني وعن القاسم فقيهي
البصرة : الحسن وابن سيرين - وكان القاسم يأتيها وكان اياس لا
يأتيها - فعلم القاسم أنه ان سألهما عنه أشارا به ، فقال لعدي : لا
تسأل عني ولا عنه ، فوالله الذي لا اله الا هو ان اياس بن معاوية
افقه مني واعلم بالقضاء ! فان كنت كاذباً فما ينبغي ان توليني ،
وان كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي !

ووقع عدي في حيرة حين ضيق عليه القاسم منافذ
الطريق بما حلف وأقسم ، ولم يبق الا ان يولي اياساً ،
ولكن اياساً عرف ان القاسم قد حلف كاذباً وأقسم ليتأخر عن
ولاية القضاء ، فقال لعدي : يا عدي ، انك جئت برجل فأوثقته
على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة ، يستغفر الله منها
وينجو مما يخاف !

واضاء النور امام عدي بهذا الكلام ، فقد عرف ان اياساً
ادرك ما وراء كلام القاسم ، وعرف الحكم والفقہ ، فقال له عدي :
يا اياس ، اما اذ فهمتها فأنت لها ! فاستقضاءه ٢٦٥

انه لا ينتفع بظلم القضاة غير الولاة ، ومتى فتح القاضي باب شر
للوالى اُطرد له فتح الأبواب ، ولكن الولاة في مدة عمر كان الى
جوانبهم قضاة يسدون عليهم كل باب للفتنة فتغير الولاة ، بل كان
العامل يزف البشرى للناس اذا تولى قضاء عمالته قاض نزيه . وقد
مضى اسماعيل بن عبيد الله الأنصاري والى افريقية الى القيروان
يبشر اهلها بعبد الله بن المغيرة قاضياً صاحب علم ومعرفة ودين
وورع ٢٢٦ ، ومضى اسماعيل يبشر به فرحاً فخوراً .

ولقد تغير مع هؤلاء الولاة كل شيء حتى النقود التي تبودلت
في عصره كتبوا عليها بامرٍ منه : امر الله بالوفاء والعدل ٢٦٧
وربما عادت الطبيعة تعدل وتساعد عمر على عدالته ، حتى النيل
اعتدل فيضانه فصار في سنة تسع وتسعين تسعة عشر ذراعاً ٢٦٨
بل انهم ليقولون ان العدل في عهده قد عم حتى بلغ شفاف الجبال ،
وبالغ الناس في القول وحدثوا عنه حديثاً عجيباً حتى قال مالك
ابن دينار : انه لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء في رؤوس
الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس ؟ قال : فقيل
لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : انه اذا قام خليفة صالح كفت
الذئاب والأسد عن شائنا ! ٢٦٩

(٢٦٦) رياض النفوس ج ١ ص ٨١

(٢٦٧) ابن الجوزي ص ٨٠

(٢٦٨) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٤

(٢٦٩) صفة الصغوة ج ٢ ص ٦٧

سِيَّاسَةُ النَّاسِ

الزمانه الاول

كان صار الزمان بالناس قبل عمر الى الزمان الثالث حيث يصلح الناس ويفسد الوالي، ثم صار الناس على هوة الزمان الرابع فيفسد الناس مع فساد الراعي، ولكن عمر جاء فرد الناس فجأة الى الزمان الأول، فجاء هو صالحا واستبقى ما في الامة من صلاح، وليته دام فيدوم الزمان الأول ولكنه كان مقدرا بعمره ومدته، ثم هوى الزمان والناس من بعده الى الزمان الرابع : الى الحضيض ٢٧٠

جاء عمر وهو يرى قرّة عيون الملوك في ثلاث : ان يستفيض الأمن فيغمر البلدان : ينزل الى حضيض الوديان فلا تنصرف قطرة ماء من مياه السيل الا لمسكانها ، ولا تشرّد من شعفات الجبال شاة فلا تضيع في يد سارق أو في انياب ذئب.. وان تظهر المودة من

(٢٧٠) انظر أقسام الزمان لابن المقفع . المطالعة التوجيهية ص ١٧٩
نقلا عن اليتيمة .

الرعية لراعيها ، ولا يكون ذلك الا اذا ادى الراعى حقها قبل ان تؤدي حقه وتحس بالسعادة تصل الى ابوابها دون قلق أو شكوى . واذا حدث هذان اثني الناس على الوالي واسترسلوا في الثناء الحسن . وفي هذه الثلاثة : الأمن ومودة الرعية والثناء على الراعي - في هذه الثلاثة قررة عين الملوك ٢٧١ .

وجاء عمر يسوس الناس عن علم وخبرة لا عن جهل وارتجال ، وامتد بصره في نظرة طويلة وتدبير محكم ، وجاءهم بعد الفكرة والنظر بعقيدة راسخة ونية على العمل ، واستجمع وجمع من حوله المشيرين والنصحاء وراح يستنصح كل من ظن فيه خيرا ، ولم يُعَفِّ رجلا في أقصى الارض من الاستعانة به واستهدائه متى ظن فيه الخير وكان من بقية الناس ٢٧٢ .

ولما فرغ بدنه من شهوة الذات قعد لحوائج الناس يومه ، فلما امسى ولم يقضها وصله بليته ، وقد امسى يوماً وقد فرغ من حوائج الناس فدعا بمصباح كان يستصبح به من ماله ، ثم صلى ركعتين ثم أقمى واضعا يده تحت ذقنه تسيل دموعه على خده ، ولم يزل كذلك حتى برق الفجر فأصبح قائماً .

ورأت فاطمة بنت عبد الملك ذلك منه فقالت له : يا أمير المؤمنين ، شيء ما كان منك ما رأيت الليلة ؟ قال : أجل ! اني وجدتني وليت امر هذه الأمة اسودها واحمرها فذكرت الغريب القانع الضائع والفقير المحتاج والاسير المقهور واشباههم في اطراف

(١٧١) ابن الجوزي ص ٨٥

(٢٧٢) الخراج لابن يوسف ص ١١٤

الأرض فعلت ان الله تعالى سألني عنهم ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم ، فخنفت الا يثبت لي عند الله عذر ولا تقوم لي مع محمد حجة ، فخنفت على نفسي !

بيت المال

ولم يعد لأحد من حق في بيت المال الا بحقه حتى القائم على حراسته وحسبته ، فاذا نقص من المال شيء - من غير خيانة - ردّه القائم من خاصة ماله ، ولم يُعَفَّ وهب بن منبه الفقيه الورع والمعدود من الأخبار ان يَرُدَّ الى بيت المال ما فقد منه حين كان قائماً عليه ، وكتب الى عمر انه فقد من بيت المال ديناراً او بضعة دنائير - كما اختلف الرواة - فكتب اليه عمر : اني لا اتهم دينك ولا امانتك ، ولكني أنهم تضييعك وتفريطك ، وانا حجيج المسلمين في اموالهم ! ثم امره برد ما فقد من بيت المال فردّه وهب من خاصة ماله ٢٧٣ .

وكان لعمر بن الخطاب وللخلفاء من بعده حقوق في بيت المال ابتدأت بدرهمين لعمر وانتهت الى بيت المال كله للخليفة الأموي ، فلما كان عمر بن عبد العزيز رأى ان يستغني عن بيت المال جملة ويكتفي بشيء مما ابقى من قطائعه ، وقدّر له درهمين في كل يوم ، ولم يحرم الخليفة نفسه فحسب من مال الله ولكنه حرّم ان يفيد منه ابن او مولى او دابة تعمل له ، ولم يَرَفِّ نفسه الا قيماً على المال لا مالكاً له ، فان كان للخليفة حق فيه فانما يكون فيما يتصل بعمله من سياسة الناس . والشمع الذي استضاء به عمر في حوائجه ،

(٢٧٣) ابن الجوزي ص ٨٥

والماء الساخن الذي توضع به في الغداة الباردة ، والتفاحية التي
امتهاها ، لم ير عمر له حقاً فيه الا ان تكون بخاصة ماله ، حتى
ريح العنبر الذي ينفخ الجو بعبيره ولم يجد له حقاً فيه ابعد عنه
وكتبتم أنفه حتى يبتعد . ولو تحملت اليه هديه على دابة للبريد باعها
وجعل ثمنها في علف دواب البريد ^{٢٧٤}

وليس لأحد من خاصة عمر ان يأمر في مال او جهد او دابة
الا بحق ، فلما حمل مولى له رجلاً على خيل البريد بغير اذنه دعاه
فقل له : لا تبرح حتى تقوّمه وتضعه في بيت المال ^{٢٧٥} .

ولعل من رائع ما فعل عمر انه ودّ ابنه عن الزواج من بيت
المال حين طلب اليه ان يزوجه منه ، مع ان عمر امر بأن تقضى
حاجات الغرباء في الزواج منه : طلب ابن له أن يزوجه ويصدق
عليه من بيت المال ، وكان لابنه هذا امرأة اخرى تزوجها من
قبل ، فغضب عمر حين طلب اليه ابنه ذلك وكتب اليه : لعمر الله !
لقد اتاني كتابك تسألني ان اجمع لك بين الضرائر من بيت مال
المسلمين . وابناء المهاجرين لا يجد احدهم امرأة يستعف بها ،
فلا اعرفنّ ما كتبت ! وانظر الى ما قبلك من فحاشنا
ومتاعنا ، واستعن بثمنه على ما بدا لك . وبينما عمر
يفعل ذلك مع ابنه يكتب الى زيد بن عبد الرحمن عامله على
الكوفة فيقول : كتبت تذكرك انه قد اجتمعت عندك أموال بعد

(٢٧٤) ابن الجوزي ص ١٦١ - محاسن السلوك ص ٧٨ - ابن عبدالحكم

أعطية الجند ، فأعطى كل من كان عليه دينٌ في غير فساد ، أو تزوج فلم يقدر على نقد . والسلام ٢٧٦

أما أصحاب الحقوق في بيت المال فالمسلمون كافة ، وعلى بيت المال التقسّم بينهم ، وكلٌ يأخذ منه بحقه ، وعلى أصحاب الحقوق أن يستوفوا منه حقوقهم ، لا يردّهم عنها راد . ومن بيت المال تنفق دار الضيافة التي يقيمها الأمير . ومن بيت المال تسد حاجات المعمر وابن السبيل ، ولقد قالوا أن عمر أول من اتخذ دار الضيافة من الخلفاء مقتدياً بابيه عبد العزيز حين كان والياً على مصر ، وأول من فرض لأبناء السبيل ٢٧٧

ولم يفهم بعض ولادة عمر ما يريد خليفته للناس من رفع قيم معيشتهم ، فلما كتب اليهم أن يقضوا ديون الغارمين كتبوا اليه : انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث في بيته ! فكتب اليهم عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي اليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ؛ وأثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه !

ثم جعل عمر بيوت الأموال بيتاً واحداً فلو اغتنى بلد وافقر آخر سدّ البلد الغني حاجة البلد الفقير وعجزه حتى لو لم يبق له شيء . وقد أمر أن تسد الشام حاجة العراق في رد المظالم حين لم يكف مال العراق في ردها . وبذلك صار العالم الاسلامي في مدته وحدة ذات قوة وتماسك يسد بعضها حاجات بعض .

(٢٧٦) ابن عبد الحكم ص ٦٧ ، ١٢٨

(٢٧٧) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨ — ابن الجوزي ص ٨٥

وفي بيت ماله كانت تضرب الدراهم والدنانير ، وفيه تبدل
النقود ، التي لا تنفق اذا دارت في الأسواق وساءت لكثرة ما
استعملت ، لئلا تقف سوق البيع والشراء ويضار الناس ٢٧٨ .

الفهم والاسراف

ولم ير عمر من وظيفة بيت المال ان يحفظ الدنانير حتى تتجمد
فيه جبلاً لا يسيل منها سيل يُروى او يسقط منها طلٌّ يُبل ،
بل رأى انه لا ضرورة لان يُخْتَزَن فيه شيء اذا كانت حاجات
الرعية تستنفد المال كله . وقد أقلقه في ذلك العمال واصحاب
بيوت الاموال وأقلقهم ، هم كانوا يرون انه لا بد من مال يخزن
وهو يرى انه لا يُخْتَزَن شيء ، وكتبوا اليه يحثونه وهو يأبى .
ثم اجتراً والي فكتب اليه يقول : انك اضرت بيت المال !
فكتب اليه عمر : اعط ما فيه ، فاذا لم يبق شيء فاملأه وحلاً! ٢٧٩
ولم يكن عمر بذلك يدعو الناس الى الاسراف ، فالاسراف
امر غير قضاء حاجات ذوي الحقوق ، اما العمال فكانوا هم المسرفين
ولا يدرون ، كانوا يفرقون ما يُجمع في التافه والرخيص فرأى
عمر ان يقتصدوا في الانفاق حتى لا يضيق ذرعاً بحاجات الناس .
كان الولاة والعمال ينفقون من المال على شراء اوراق يكتبون
فيها توقيعات لا تعدو عرض اصبع ، وكان الولاة يسرفون في
الاضاءة بالشمع في الطرقات . وكان الولاة ينفقون المال في الأبنية
والزخارف والتماويه . وبلغ الاسراف حجة البيت فأرادوا

(٢٧٨) ابن عبدالحكم ص ١٧١ — ابن الجوزي ص ٩٠

(٢٧٩) ابن الجوزي ص ٨٥ — هذا هو ما يسمونه بالمال الاحتياطي اليوم

كسوة جديدة ولم يَقدِّمَ ما قبلها . وهكذا كلُّ من جهته ينفق ويسرف ، فبال عمرَ ذلك فأمر الا تسجل في طوامير ٢٨٠ ، والا يكتب فيها بالخط الجليل ٢٨١ والا يمدَّ في الكتابة ويفرِّج ما بين الحروف ، والا يُكثِّر من الكلمات بل يُقلِّل . ونفَّذ العمال ذلك فوفروا شيئاً كثيراً وصارت الكتب بعد ذلك شبراً او نحواً منه ٢٨٢

وامر عمر ان يبنى مسجد بني عدي بن النجار باللبن بناء قاصدا حين اخبروه بانهدامه وطلبوا بناءه . وكتب الى حجة البيت حين ارادوا له كسوة جديدة كعادة الخلفاء قبله : اني رايت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانه اولى بذلك من البيت ! وكتب الى ابي بكر بن حزم واليه على المدينة حين طلب شمعاً من سليمان يستضيء به الناس في طريقهم الى المسجد عند صلاة العشاء والفجر ، ومات سليمان فوقع الكتاب في يد عمر - فكتب الى ابن حزم يقول : اما بعد فقد قرأت كتابك الذي كتبت به الى سليمان بن عبد الملك ، وكنت المبتلى فيه بالنظر دونه : كتبت تسأله ان يقطع لك من الشمع مثل الذي كان يُقطع لمن قبلك ، وتذكر ان الشمع الذي عندك قد نفذ ، ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك الى المسجد في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ! ولعمري

(٢٨٠) الطوامير جمع طومار وهو المعروف عندنا اليوم بفرخ الورق (القولسكاب)

(٢٨١) القلم الجليل الخط الذي تكتب به « الواجبات » .

(٢٨٢) ابن الجوزي ص ٧١ ، ٩٩

لأنت يومئذ خير منك اليوم . والسلام عليك . ٢٨٣

الرفق بالمرعية

تولى عمر الخلافة والناس على بأس من العدالة ، وما يستطيع سلب ان يطلب حقه . وكان السعيد الموفق ممن ردت عن نفسه الظلم أو تجنبه . وكان أسعد من هذا حظاً من غفل عنه السلطان واندرج في مناهة المغمورين فلا تناله ظئنة أو شبهة أو جوار - فلما جاء عمر لم يكتف برد المظالم وإنما أخذ يضع عن الناس السخرة التي كانوا يسخرونها في المصالح العامة . لأن عمر رأى فيها أموراً ظالمة فحطها عن كواهل المسخرين ، ثم لم يكتف فاهلب مشاعر الناس ليردوا عن أنفسهم ، فاذا لم يفعلوا ولم يصلحوا إلا بالغشم والظلم فلا أصلحهم الله ! ٢٨٤

كان أهل مصر قد ظلموا ، وحلب أسامة بن زيد درهم حتى انقطع ودمهم حتى انصرم . وأهل الجزيرة والكوفة والعراق قد اهلكهم الحجاج وأباد صلحاءهم ، وأهل المدينة والحجاز قتلوا وعذبوا حتى لم يعد يُظن أن تقوم للمدينة قائمة مدى الازمان ، وقد أنت على ما تبقى بها وقعة الحرة . وأهل الموصل كثر فيهم السراق والنهابون . وأهل حمص سلبت أراضيهم وحواليتهم . وإفريقية عبثت بها الهوام والعقارب . وأهل سمرقند غدر بهم وظلموا . وأهل أذربيجان سلبت أموالهم - ثم عبر الظلم البحر الى الأندلس .. وسرت الى كل بلد وطأة من الظلم ، ثم طالت الوطأة

(٢٨٣) ابن الجوزي ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣

(٢٨٤) ابن عبد الحكم ص ١٠٠ ، ١٢٣

فولد الشرّ ضروراً ، وحسب كل مولود أن هذا الذي ولد فيه
إنما هو العدل وإنما هو حكم الاسلام . واخترع الظلم لنفسه كل
طريف فليس العجمي كالعربي في الحق ، وليس المولى كالحُر ولا
المرأة كالرجل ولا أهل الذمة كالمسلمين .

ورآها عمر ثانياً أولى بأن تسوّى وعقاباً أحق بأن تهـدم ،
فمضى يعمل : فارتفع بالأعجميّ والمولى والمرأة والذميّ ، وجعل
لكلّ حقّه الذي فرضه له الدين لم ينقص منه شيئاً ، وحين راح
يزيد في اعطيات الجند المحاربين عشرة عشرة جعل العربي والمولى
على سواء ٢٨٥ . ولم يجعل عمر من فرق في أصحاب العطاء سوى
ما بين الكبير والصغير ، فكان من بلغ الخامسة عشرة فرّض له
في المقاتلة ، ومن لم يبلغها فرض له في الذرية . وسار عمر بحكم
النبي في الناس ، فان نافع بن عمر عرضه رسول الله صلى الله عليه
وسلم للقتال يوم أحد فاستصغره فردّه - وكان ابن أربع عشرة
سنة - ثم عرضه يوم الخندق وقد صار ابن خمس عشرة فأجازه .
وقد حدث نافع نفسه عمر بن عبد العزيز بهذا الحديث وهو خليفة
وعرف عمر منه فرق ما بين الكبير والصغير وكتب به الى عماله
ليفرضوا لابن خمس عشرة في المقاتلة ولابن أربع عشرة في الذرية ،
ففعّلوا ٢٨٦ .



وعرف عمر بن عبد العزيز ان ابن آدم لم يعرّ من الذنوب ، ولما

(٢٨٥) تاريخ العرب المطول ص ٢٨١ - ابن الجوزي ص ٨٧

(٢٨٦) الحراج لأبي يوسف ص ١٧٠

كان ابنه عبد الملك يستعجله لينفذ الامور كان يقول له : لا تعجل يا بني فانه لا قليل من الاثم فان الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة ، وأنا اخاف أن احمل الحقّ على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذلك فتنة ٢٨٧ .

ولم يكن هذا يرضي عبد الملك الذي يمثل ثورة الشباب ويتخيّل مثله العليا ، ولكنه كان يسكت حين يدلّه ابوه على الطريق ويقدم له الأدلة . ولكن الولاة الذين ساقهم عمر الى الرفق لم يعجبهم ما فعل عمر ، وحتى الولاة الذين اختارهم لعمله وحشهم على الرفق واطلق أيديهم في العمل لم يرضوا فراجعوه فيما يأمر به من الشفقة والرفق بالناس ، وكان ممن راجعه عبد الحميد بن عبد الرحمن وأخوه صالح .

أهل العراق

لم تكن سياسة عمر 'ترضي ولاة العراق ، فعبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة وصالح بن عبد الرحمن وصاحب له بالعراق ويحيي الغساني صاحب الموصل كل هؤلاء وغيرهم يريدون اخذ الناس بالقسوة وسياستهم بالعنف ، فالسنة التي يعرفها اهل الكوفة جور وشدة ، وأهل العراق لا يصلحهم الا السيف ، والبصرة مخمورة لا تقيق الا على مثل سيف زياد بن أبيه ، وارض الموصل اكثر البلاد سرقا ونقبا ، فسياسة عمر هناك لا تصلح .

(٢٨٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٨ - ويقول صاحب المواقفات : وهذا

معنى صحيح في الاستقراء العادي فكان ما كان أجرى بالمصلحة وأجرى على جهة التأنيس . المواقفات ج ٢ ص ٩٤

ولم يلبث هؤلاء الرعاة أن راجعوا عمر فيها وبصروه لمغبة فعله أن يعدل معهم الى ما رأوا ويميل في كفة الجور ان كان يريد صلاح البلدان . فكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن : ان أهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور ، سنبا عليهم عمال سوء . وان أقوم الدين العدل والاحسان ، فلا يكونن شيء أهم الى نفسك أن توطنها لطاعة الله . وكتب الى صالح وصاحبه : خبيثين من الحبث رديئين من الرديء تعرضان لي بدماء المسلمين ؟ ما أحد من الناس الا دماؤكم أهون علي من دمه . ٢٨٨

واما أهل البصرة فكتب اليهم عمر يذكركم بجرمة الحر ، ويدعو لهم في آخر كتابه لهم بذلك يقول : أسأل الله أن يزيد المهتدي منا ومنكم هدى ، وان يراجع المسيء منا ومنكم التوبة في يسر وعافية ٢٨٩ . وفرق ما هنالك بين كلام عمر هذا وكلام زياد ابن أبيه . وقد مسح عمر آلام أهل البصرة وفرق بينهم مرة مالا كل إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمى خمسين خمسين ورزق المفطومين ٢٩٠

وأما أهل الموصل فقد كتب يحيى الغساني الى عمر يخبره أنه قدمها والياً فراها من أكثر البلاد سرقاً ونقبا ، وكتب يسأله يأخذ الناس بالظنة ويضربهم على التهمة أم يأخذهم بالبيينة وما

(٢٨٨) ابن الحكم ص ١٢٩

(٢٨٩) ابن الجوزي ص ١٠٢

(٢٩٠) الطبري ج ٥ ص ٣٢٢

جرت عليه السنّة ؟ فكتب اليه عمر يقول : خذ الناس بالبينّة وما جرت عليه السنّة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله ! قال يحيى الغساني : ففعلت ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقبا .

وكان رباح بن عبيدة مع عمر ، فأحب رباح ان يستأذنه ليرى أهله وضيعة بالعراق ، فلما كان اليوم الذي ودعه فيه قال له : يا أمير المؤمنين ، حاجتك ، أوصني بها ، فقال له عمر : حاجتي ان تسأل عن اهل العراق ، وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم . فلما قدم رباح العراق سأل الرعية فأخبرته بالخبر ، فلما رجع الى عمر سلّم عليه وأخبره بحسن سيرة الولاة في العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر : الحمد لله على ذلك ! لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم ولم استعن بهم بعدها ابداً ٢٩١

اهل المدينة

ومرّ الزمن يمضي وعمر يحن الى المدينة ، قد علق قلبه بها ولم يتحول ، وأوصى بها الولاة وفرّق على أهلها حقوقهم ، وما جاءه رجل منها الا سأله عن أهلها كافة : الأشراف والتجار والمساكين والرجال والنساء . ولقد جاءه رجل مرة فسأله عمر قائلاً : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا ؟ فقال الرجل : قد قاموا يا أمير المؤمنين ، واغذاهم الله ! وكان من أولئك المساكين من يبيع الحَبَطَ للمسافرين ، فالتبس ذلك منهم

(٢٩١) ابن الجوزي ص ٩٧ - الخراج لأبي يوسف ص ١١٩

بعد فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر ٢٩٢

وقدم زياد بن أبي زياد المدنيّ رسولاً على عمر لعياش بن ربيعة في حوائج لعياش ، فلما اقبل أسرع فقال لعمر : السلام عليكم - ولم يتنبه الى أنه يسلم على امير المؤمنين - فقال له عمر : وعليك السلام ، ثم تنبه زياد فأعاد السلام بالامارة فقال له عمر : يا بن أبي زياد ، إنا لسنا ننكر الأولى التي قلت ! - وكان الكاتب يقرأ عليه مظالم جاءت من البصرة . فقال لزياد : اجلس ، فجلس على أسكفة الباب - والكاتب يقرأ وعمر يتنفس الصعداء - فلما فرغ أخرج من كان في البيت حتى وصيفاً كان فيه ، ثم قام يمشي الى زياد حتى كان بين يديه ووضع يديه على ركبتيه .

قال زياد : وعليّ مدرعة صوف ، فقال لي عمر : يا بن أبي زياد ، استدفأت في مدرعتك واسترحت مما نحن فيه ! ثم سألتني عن صلحاء اهل المدينة : رجالهم ونسائهم ، فما ترك منهم احداً الا سألتني عنه ، وسألتني عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته . ثم قضى حوائج عياش وأعطى من ماله لزياد عشرين ديناراً وقال له : استعن بهذه ، فإنه لو كان لك في الفيء حق اعطيناك حقه ! فأبى زياد أن يأخذها فلم يزل به حتى أخذها ، ثم كتب الى عياش يسأله ان يبيعه زياداً ليعتقه فأبى عياش أن يبيع زياداً واعتقه ٢٩٣ . وقد قالوا : إن عمر نزل عن موضع كان عليه الى الأرض وقال : إذا دخل عليك

(٢٩٢) ابن الجوزي ص ٧٦

(٢٩٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩

رجل لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس ٢٩٤ ثم قال : اني أعظم ان اكون في موضع اعلو فيه على زياد . فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد وأصحابه يأخذون منه حاجاتهم ، فنظر الخازن فاقتحمته عين عمر ففعل ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه بضعة وثمانين درهماً . فلما رأى الخازن ذلك قال : امير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال ! ٢٩٥

وخرج عمر يوماً فركب هو ومزاحم ، وكان كثييراً ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى ، فلقىهم اراكب من اهل المدينة ، وسألاه عن الناس وما وراءه ، فقال : ان شئنا جمعت لكما خبري ، وان شئنا بعضته تبغيضاً . فقال عمر : بل اجمعه . فقال : اني تركت اهل المدينة والظالم بها مقهور والمظلوم منصور والغني موفور والعائل مجبور ، فسرّ بذلك عمر وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب اليّ مما طلعت عليه الشمس ٢٩٦

ولقد قال رباح بن حيان . وكان على المدينة - : ما قدم علينا بريد لعمر بن عبد العزيز الا باحياء سنة او قسم مال او أمر فيه خير ٢٩٧ ، وقد صارت قریش والانصار تدعو لعمر

(٢٩٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٤

(٢٩٥) ابن عبد الحكم ص ٥٢

(٢٩٦) ابن عبد الحكم ص ١٣٥

(٢٩٧) ابن الجوزي ص ٧٥

بالبقاء حتى يردَّ عنهم المكاره ، حتى قالت فاطمة بنت الحسين :
لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده الى شيء .

قال جرير :

أشبهت من عمر الفاروق سيرته قاد البرية واثمت به الأمم
تدعو قريش وأنصار الرسول له أن يمتنعوا بأبي حفص وما ظلموا
وقال :

يعود الحلم منك على قريش وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد آمنت وحشيتهم برفق ويعبي الناس وحشيتك أن يصادا
وتبني المجد يا عمر بن ليلى وتكفي الممحل السنة الجمادا ٢٩٨

أهل مكة

ولما ردَّ عمر مظالم أهل مكة وزارها ثم خرج ، مضى معه
رجل مع من يشيِّعه وكان أحد الولاة حبسه وأخذ ماله غصباً
واستحلفه ألا يخاصمه أبداً ، فشكا الرجل الى عمر قائلاً : ' ظلمت '
ولا أستطيع أن أتكلم ! فأدرك عمر أنه أخذت عليه يمين ، فبجاء
بالوالي ونكف بالخيزران بين عينيه في سجدة وقال له : هذه
غررتني منك ! ثم قال للرجل : اذهب فقد رددت عليك مالك
ولا حنت عليك ! ٢٩٩

أهل الرقة وأهل البصرة

أما الحسن والحسين فقد رأيا أن طالب الحاجة اليهما لا يستحق

(٢٩٨) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٠١

(٢٩٩) ابن عبد الحكم ص ١٣٨

الا بقدر علمه ، فان كان عالماً كل العلم أخذ كل حاجته ، وان كان عالماً نصف العلم أو ثلثه أو رבעه أخذ بقدر ما يعلم ، وذلك اذا لم يكن من أصحاب الفروض والصدقات . واما عمر بن عبد العزيز فقد امر بال للرفعة وأمر أن يُعطى منه كل من مدّ يده لعلمه بحاجة اهلها واضطرارهم .

اهل سمرقند وازربيجان

وجاء رجل من أذربيجان فقام بين يدي عمر يشكو عامل بلده فقال : انه عدا عليّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم فجعلها في بيت مال المسلمين . فقال عمر اكتبوا الساعة الى عاملها حتى يرده عليه ٣٠٠ . واما اهل سمرقند فأرسلوا وفداً يشكو قتيبة بن مسلم وما فعله معهم من الغدر والظلم فكتب عمر من فوره الى سليمان ابن ابي السرح واليه على سمرقند ان ينصب لهم قاضياً لينظر في امرهم فأجلس سليمان القاضي ورضوا بما قضى .

اهل هراسان

وكتب الجراح بن عبد الله الحكمي الى عمر : اني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد ابطرتهم الفتنة ، فأحب الأمور اليهم أن يعودوا ليمنعوا حق الله عليهم ، فليس يكفهم الا السيف والسوط ، فكرهت الاقدام على ذلك الا بإذنك . فكتب اليه عمر : يا ابن أم الجراح ، انت احرص على الفتنة منهم ، لا تضرب مؤمناً معاهداً الا في الحق ، واسذر القصاص ، فانك صائر الى من يعلم خائنة

(٣٠٠) ابن الجوزي ص ٧٥

الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صفيرة ولا
كبيرة الا احصاها ٣٠١ .

هلبة السباق

لقد استقى عمر على الناس ولكنه ابى ان تخرج بهم الشفقة عن
حدود الخير ، ولم تكن الشفقة إرخاءً للحبل من اعناقهم فان ارخاء
الحبل من اعناق الناس يدفعهم الى الشرور ، ولم يخرج عمر بن
عبد العزيز عن حدود الشفقة غير مرة او مرتين اضطر لها اضطرارا
لأنه رأى إن لم يفعل أن يرجع الناس الى بلادهم مقهورين .

كان سليمان بن عبد الملك قد أمر اهل مملكته ان يقودوا الخيل
لسبق بينها . فأرسل الناس من اطراف الأرض خيلهم تجري في
السباق ، وقلّ ان تكون قرية الا قادت اليه خيلا ، فمات سليمان
قبل ان تجري الحلبة ، وغصت دمشق بالوافدين اليها من الناس
ومعهم الخيل الجياد ، فلما ولي عمر لم تعقد الحلبة ، وابى عمر
ان يجريها ، فاحتال عليه الناس وجعلوا يقولون له : يا امير المؤمنين
تكلف الناس مؤونات عظاماً وقادوها من بلاد بعيدة! وفي جري
الحلبة يا امير المؤمنين غيظ للعدو! فلم يزالوا يكلمونه حتى اجري
الحلبة ، واعطى الذين سبقوا ، ثم رجع فاعطى الذين لم يسبقوا ولم
يخيبهم ولكنه اعطاهم دون ذلك ٣٠٢ . وهذه المرة لم يجاوزها في
امر السباق فانه امر من بعدها الا يركض فرس في غير حق ٣٠٣

(٣٠١) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨١ - ابن الاثير ج ٥ ص ٢٤

(٣٠٢) ابن الجوزي ص ٥٦

(٣٠٣) ابن عبد الحكم ص ٥٥

هذه المجاوزة كانت في السباق ، اما المجاوزة الأخرى فكانت فيما يشبه اللهو ، وتلك ان خلفاء الامويين سنّوا الغناء واباحوه . وكان يزيد بن معاوية اول من سنّ الملاحى واستجلب المغنّين . وشمل عبد الملك برعايته ابن مسجج : واستقدم الوليد ابن سريج ومعبداً الى دمشق ، ثم ناهض سليمان بن عبد الملك المغنين ولكنه استدعى الدلال ~~المغني~~ ^{المغني} سرّاً من المدينة الى دمشق ليغني له . فلما جاء عمر بن عبدالعزيز الخلافة حال بين الشعر والغناء ٣٠٥ .

وانما بقيت في عمر رقة في الطبع وفضل في الحلم ، فسمع للغناء في قضية ذات خبر طريف : قالوا انه اتى من المدينة الى العراق فتى يطلب جارية -- وُصفت له -- قارئة قوالة مغنية ، فوجدها عند قاضي بلدة ، ولم يكن القاضي يعلم صفاتها ، فلما غنّت امام طالبها في حضرة سيدها القاضي تقول :

الى خالد حتى أنحنأ بنحالد فنعم الفتى يُرجى ونعم المؤمل
فرح القاضي بجاربه وسرّ بها وغشيه من الطرب امرٌ عظيم ، وقال لها : هاتي -- بأبي انت وأمي -- شيئاً ، فغنت :

اروح الى القصّاص كل عشية ارجى ثواب الله في عدد الخطى
فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ما صنع ، فجنّا على ركبته وجعل يأتي بحركات ويقول اقوالاً تدل على انه قد سَفِه . فلما امسكت قال القاضي للفتى : انصرف ، فقد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم ، ونحن الآن فيها ارغب ! فانصرف الفتى .

وبلغ عمر بن عبدالعزيز ما فعل القاضي وما قال ، فقال :

(٣٠٤) تاريخ العرب الطول ص ٣٤٨ - معالم الموسيقى العربية ص ٢٩

قَاتِلْهُ اللَّهُ ! لقد استرقه الطرب ! وأمر بصرفه عن عمله ، فلما صرِفَ قال القاضي : نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اكثُر بما قلت ، فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا قال للقاضي : أعد ما قلت ، فأعاده ، ثم قال للجارية : قولي : ففعلت تقول : كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمرٌ بمكة سامر بلى نحن كنا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود والعواثر فما فرغت حتى اضطرب لها عمر اضطراباً بيناً واقبل يستعيدنها ثلاثاً ، وقد بليت دموعه لحيتَه ، ثم أقبل على القاضي فقال : لقد قاربت في يمينك فارجع الى عملك راشداً ! ٣٠٥

درس قاس

ولكن الرقة في موضعها لم ينقلها عمر الى الموضع الذي لا تصلح فيه وانما استخدم العنف . فقد دخل عليه شيخ من اهل المشرق هو وابن اخ له فاختصما عنده ، وكان الشيخ قد اطال شاربيه حتى غطيا فمه وسال شعرهما عليه . وبينما هذا الشيخ يريد الصلوة والصلح اذ التوى به الشر فمال الى اللجاج ثم غضب فدعته نفسه الى القطيعة ، فنظر اليه عمر متعجباً وقال له : ما رأيت احلى منك ولا أمر ولا ابعد ولا اقرب ، بينما انت تريد الصلوة والصلح دعتك نفسك الى القطيعة والظلم ! قال عمر هذا ثم نادى قائلاً : يا مينا ، فانفرج الباب عن حجام لعمر قد أقبل مسرعاً يتلقى امر الخليفة ، فلما رآه عمر قال له : أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذني من شاربيه ثم اثني به ، وفعل مينا الحجام ما أمر به ، ورد الرجل الى مكانه

(٣٠٥) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠

من الخصومة بين يدي الخليفة ، فقال عمر : هذا اطيب ، وأنظف
مع الفطرة . هلم الى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك !
قالا : نعم . فأصلح ذات بينهما ، فرفع يديه الى السماء وقال :
الحمد لله !

رحمة الضعفاء

ولم يقتصر رفيق عمر على فريق دون فريق ، بل كلما ازداد
الناس ضعفاً ازداد عمر بهم رفقاً ، وقد رقّ فوظف القواد
للعميان ٣٠٦ ، وقد أمر أن يعاقب الناس على قدر ذنوبهم - لا كما
فعل وهو والى المدينة ونسبه مزاحم مولاه الى مجاوزته الحد في
العقوبة . وأمر ألا يوثق السجناء فيمنعهم الوثاق من الصلاة وهم
قيام ، وأمر ألا يببت أحد منهم في قيده الا اذا كان مطلوباً بدم
وقد أجرى عليهم من الصدقات ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم ٣٠٧
وحرّم عمر أن يقتل النساء والصبيان والأسرى والجرحى في
الحروب ، وجعل للأسير أن يتصرف في ماله كيف شاء فهو ماله .
ولم يقتل من الأسرى سوى واحد من الترك ، قال له رجل ممن
جاء بهم : يا امير المؤمنين ، لو كنت رأيت هذا وهو يقتل
المسلمين لكثير بكاؤك عليهم ! فأمر بقتله ٣٠٨

وجيء عمر ذات يوم بسارق فشكا اليه حاجته فعذره عمر وعفا عنه

(٣٠٦) ابن عبد الحكم ص ٤٦ ، ١٢٤

(٣٠٧) الخراج لأبي يوسف ص ١٥٠ - حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨ -

ابن الجوري ص ٩٧ .

(٣٠٨) فجر الاسلام ص ٨٧ ط ٦

وأمر له بنحوٍ من عشرة دراهم ٣٠٩

لقد كان عمر اعطف الناس قلباً على الرجال اذا ضعفوا وكثر اولادهم ، وعلى الأراامل اذا اصابتهن الحاجة . وقد جاءه رجل فقام بين يديه فقال له : يا امير المؤمنين ، اشتدت بي الحاجة وانتهدت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فقال له : ما عيالك ؟ فقال : خمسة ، انا وامرأتي وثلاثة اولاد ، ففرض له ولأولاده .

وخرج بريد من مصر فدفعت اليه فرتونة السوداء ، مولاة ذي اصبح ، كتاباً تذكر فيه ان لها حائطاً قصيراً ، وانه يُقْتَحَم عليها منه فيُسرَق دجاجها ، فكتب عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر امير المؤمنين الى فرتونة ... بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وانه يُدْخَل عليك فيه فيُسرَق دجاجك ، فقد كتبت لك كتاباً الى ايوب بن شرحبيل ، أمره ان يبني لك ذلك حتى يحصنه لك بما تخافين ان شاء الله والسلام . وكتب الى ايوب بن شرحبيل - وكان ايوب عاملاً على صدقات مصر وحربها - من عبد الله عمر امير المؤمنين الى ابن شرحبيل ، اما بعد فان فرتونة مولاة ذي اصبح كتبت اليّ تذكر قصر حائطها وانه يسرق منه دجاجها وتسال تحصينه لها . فلما جاء الكتاب الى ايوب ركب بنفسه حتى اتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به امير المؤمنين فيها وحصنه لها .

(٣٠٩) ابن الجوزي ص ٥٧ ، ٧٩ - ابن عبد الحكم ص ٦٥ ، ١٧٧

ولم تكن فرتونة السوداء تعرف حرفاً من حروف العدالة ، ولكنها كانت تذوق لها نفس المعنى الذي يذوقه الفلاسفة والعلماء ، فشكت الى الخليفة بدمشق ، وربما لم تكن تعرف المسافة بين دمشق وجيزة الفسطاط .

وقدمت الى عمر امرأة من العراق ، فلما صارت الى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فلبجي ان أحبيت - وكان لمثلها ان تدخل من غير اذن - فدخلت المرأة على زوجته فاطمة وفي يدها قطن تعالجه ، فسلمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئاً له بال ، فقالت : انما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : انما خرب هذا البيت عمارة بيوت امثالك .

وأقبل عمر حتى دخل الدار ثم اقبل على المرأة فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : امرأة من اهل العراق ، لي خمس بنات كُسُل كسد قد رغب عنهن الأزواج لفقرهن فبجئتك ابتغي حسن نظرك لهن . فأخذ الدواء والقرطاس وكتب الى والي العراق فقال : سمي كبراهن ، فسمتها ففرض لها ، ثم فرض للثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله . فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له دون ان تحمد الله ، فرفع يده وقال : قد كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله ، فمري هؤلاء الأربع ان يفضن على هذه الخامسة بما اعطاهن الله ، فمضت المرأة بالكتاب الى العراق .

الخواارج والحرورية

ورفق عمر بالحرورية والخواارج حتى امتلك قلوبهم : ودخل

عليه ناس من الحرورية فذاكروه شيئاً ، فأشار إليه بعض جلسائه
 ان يرعبهم ويتغير عليهم ، فلم يزل عمر يرفق بهم حتى أخذ عليهم
 ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي ، فخرجوا على ذلك .
 فلما خرجوا ضرب عمر ركة رجل يليه من أصحابه فقال :
 يا فلان ، اذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الصبي ،
 فلا تكوينه أبداً ٣١٠

أهل الذمة

هذه التسمية تشرى للنصارى ابتداء لهم الاسلام اذا دخلوا
 في عهده ولم يجاربوا المسلمين ، وهؤلاء عاملهم عمر معاملة قامت
 على اساس الاحترام والود ٣١١ . بل ان حرسه كانوا يدفعون عن
 اهل الذمة المظالم دون ان يأذن لهم عمر ، ولقد تفقد يوماً حارسه
 عمرو بن مهاجر ثم جاءه فقال له : اين كنت ؟ قال : كنت
 خارجاً ادفع مظلمة عن رجل من اهل الكتاب ٣١٢ .

كان عمر حقاً يعامل اهل الذمة على اساس الود والاحترام
 فلم يجب ان ينسب اليهم انهم غير امناء كما فعل الحجاج ، وكان
 الحجاج قد ابتدع ان 'يختم' على بيادرهم حتى يؤدوا الجزية ، فكره
 عمر ان يفعل فعل الحجاج وان يؤذي كرامة اهل الذمة ٣١٣
 وما أراد عمر ارهاق اهل الذمة وهم دافعوا الجزية وزارعو

(٣١٠) ابن الجوزي ص ٦٢

(٣١١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨٤

(٣١٢) ابن عبد الحكم ص ١٦٤

(٣١٣) ابن الجوزي ص ٨٨

الأرض وإنهم لا يعاشرهم المسلمون سنة أو سنتين ، وإنما هو لبقية الزمن كله^{٣١٤} وما ونى عمر في تعليم الولاة حقوق الذميين وقد أمر زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة أن يكف عن ارهاقهم فكف ، وكتب الى عبد الرحمن بن نعيم : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ،^{٣١٥} . وحين اراد أمراء بني أمية أن ينساحوا في البلدان أخذ عليهم ألا يفسدوا على أهل الذمة ، وألا يتناولوا أحدا من الأمة^{٣١٦} .

وخفف عمر من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في كل بلد حتى في قبرص وأيلة^{٣١٧} ونجران في جنوبي بلاد العرب^{٣١٨} وكان على أهل أيلة ثلثائة دينار حين قدم يوحنا بن رؤبة على النبي صلى الله عليه وسلم من أيلة وهو في تبوك ، فصالح على الجزية ، وقرر على كل حاكم بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلثائة دينار ، واشترط عليهم قرى من مرتبهم من المسلمين ، وكتب لهم كتاباً أن يحفظوا ويمنعوا ، فكان عمر لا يزداد على أهل أيلة عن الثلثائة دينار شيئاً^{٣٢٠}

ولم يكن عمل عمر في عزل اسامة بن زيد صاحب خراج مصر

(٣١٤) ابن عبد الحكم ص ٦٧

(٣١٥) الطبري ج ٥ ص ٣٢٤

(٣١٦) ابن الجوزي ص ٧٧

(٣١٧) أيلة هي العقبة اليوم.

(٣١٨) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨١

(٣١٩) معجم البلدان ج ١ ص ٣٩١

الا مؤازرة لقطبها . ولما كان زريق بن حيان على مكس مصر كتب اليه عمر يأمره ان ينظر في الصدقات فيأخذها من الأموال العينية وما ظهر من التجارات ، من كل اربعين ديناراً ديناراً ، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً ، فان نقصت تلك الدنانير فلا يأخذ منها شيئاً . وأما أهل الذمة فيؤخذ بما يدبرون من تجارتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم يدعها فلا يأخذ منها شيئاً ٣٢٠



ويبدو أن زيف التاريخ على عمر فيما يتصل بأهل الذمة جاء من انه كان قد نزع قبط مصر عن كُورها ، وكانت في أيديهم حصة المواريث . ولما كانت حصة المواريث عملاً يتصل بالدين فقد نزعها عمر عنهم واستعمل عليها المسلمين لأنه عمل أشبه بعمل القاضي منه بعمل المحاسب . ولما لم يكن هناك تشريع للمواريث بين النصارى فقد جعلهم يتوارثون كما يتوارث أهل الاسلام . ٣٢١ أما ما عدا ذلك فلا .

ولم يغب عن بال عمر ان بقاء دور العبادة من صلاح الأمة ، وأن الكنائس من دور العبادة التي تتهدب فيها النفوس وتصفو ، وقد قدم عليه اثنان من الخوارج فسألاه عن أهل اليهود

(٣٢٠) الخراج لأبي يوسف ص ١٣٧

(٣٢١) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٨ - الخراج لأبي يوسف ص

فقال لهم عهودهم ، فسألوا هل يكافئهم فوق طاقتهم؟ فقال : لا يكافئ الله نفسا الا وسعها ، فسألوه أن يخرب الكنائس فأبى عمر عليهم وقال لهم : هي من صلاح رعيتي! ٣٢٢ ثم لم يهدم عمر كنيسة قديمة قط ولكنه هدم ما استحدث عمال بما كان مسنونا حين ذلك في العهود ٣٢٣

الرفق بالحيوان

وما زال رفق عمر يمتد به حتى أصاب الحيوان منه حظ ، وكان ظلم النفوس أطغاها فشدت الناس اللجم الثقيل على الخيل وحملوا الدواب ما لم تحمل ونخسوها بالحديد لتسرع ، وأركضوا الأفراس في اللهو واللعب ، فنهى عمر أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة . ونهى عن اللجم الثقيل ٣٢٤ . ونهى عن ركض الفرس في غير حق . وكان فيما كتب الى عبد الرحمن بن 'نعميم' : ولا تجر الشاة الى مذبحها ، ولا تحددوا الشفرة

(٣٢٢) ابن عبد الحكم ص ١٧٤

(٣٢٣) أكثر صاحب تاريخ العرب المطول من اتهام عمر بالاساءة لاهل الذمة وكرر ذلك في مواضع كثيرة من كتابه . والحق ان عمر لم يحدث في معاملتهم شدة من عنده ، وانما كانوا هم الزموا انفسهم شروطا عند الفتح اشتراطوها لعمر بن الخطاب وكان عليهم عهود للني من قبل فلما جاء عمر أكدها . وقد ذكر ذلك ابو يوسف انقاضي لهرن الرشيد - الخراج لأبي يوسف ص ١٢٧ ، ١٣٠ - العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٦ - تاريخ العرب المطول ص ٣١٢ - تاريخ دمشق ص ٥٦٩ ، ٥٧٤

(٣٢٤) الخراج لأبي يوسف ص ١٨٦

على رأس الذبيحة ٣٢٥ . وكتب الى والي مصر يقول : إنه بلغني
أن بمصر ابلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا أتك
كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير اكثر من ستمائة رطل ٣٢٦

الاصلاح

وما يعمر الناس الا لأمرين : أمر يراد به الزينة والأبهة
وآخر يراد به زيادة الخصب والانتاج . أما ذاك فيحشد عمر له عزماً
وشدة ، ولو لم تعترضه بعض الأمور لقضي عليه في جميع البلدان
وقوض منه كل بنيان . وأما هذا الذي يراد به الخصب فقد جعله
كل همهم ، ولم يأمر باستنباط ماء أو انشاء خان أو اصلاح ارض
الا اذا وثق أن الماء والخان والارض ستنفع الناس . ولقد جاءه
عدي بن الفضيل يستحفره بئراً بالعذبة فقال له : وأين العذبة ؟
قال عدي : على ليلتين من البصرة ، فتأسف عمر ألا يكون بمثل
هذا الموضع ماء ، فأحفره واشتروط عليه ان يكون اول شارب
ابن سبيل ٣٢٧

ولما أمر عمر بعمل الخانات في البلدان القاصية كتب الى سليمان
ابن أبي السري : ان اعمل خانات فمن مرت بك من المسلمين فأقرؤه

(٣٢٥) الطبري ج ٥ ص ٣٢٤

(٣٢٦) ابن عبد الحكم ص ١٦٦

(٣٢٧) اول شارب : اكثره . الكامل للمبرد ج ١ ص ٩١ - وعذبة هذه

موضع على ليلتين من البصرة كانت فيه مياه طيبة : ذكره لقيط بن يعمر الايادي
فقال : تأمت فؤادي بذات الجزع خربة * مرت تريد بذات العذبة البيعة : معجم

البلدان ج ٦ ص ١٢٠ واظنها من بلاد مملكة الحيرة التي دمرت مدينتها .

يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم . ومن كانت به علة فأقروه يومين ،
وان كان منقطعاً فابلغة بلده ٣٢٨

أما اصلاح الارض للزراعة فقد جعله جلّهم . وبما كتب الى
عبد الحميد بن عبد الرحمن في امر الحراج : وانظر الحراب فان
أطاق شيئاً فيخذ منه ما أطاق واصليه حتى يعمر ٣٢٩

مسجد دمشق

كان المسجد الجامع في دمشق في أقدم الأزمنة « بيتاً للمشتري »
أحد آلهة الكلدان اذ كان المشتري طالع الديانات والتأله ، ثم صار
هذا البيت في العهد النصراني كنيسة لأهل دمشق ، وجعلت للقديس
يوحنا . ولما فتح المسلمون دمشق فتحوا شطراً منها عنوة وشطراً
منها صلحاً : دخل أبو عبيدة من غربيها بالأمان ودخل خالد بن
الوليد من شرقيها بالسيف ، ثم التقى الجيشان بالكنيسة الكبرى ٣٣٠ ،
ولكن المدينة عدت مفتوحة كلها صلحاً إشفافاً بأهلها واكراماً
لهم . هذا في المدينة ، أما من خارج أسوارها فقد عدّ كلّه
مفتوحاً عنوة .

وأبقى المسلمون على الكنائس القديمة في الأرض المفتوحة
بدمشق عنوة او صلحاً لم يمسوها . وأبقوا حرية العبادة في داخلها
لأهلها ، وكتب خالد بن الوليد لأهل دمشق : اني قد أمنتكم

(٣٢٨) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤

(٣٢٩) الحراج لابن يوسف ص ٨٦

(٣٣٠) مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٣

على دمائكم وذرائكم واموالكم وكنائسكم ان تهتدم او تسكن ...
وشهد على ذلك أبو عبيدة عامر بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان
وشرحبيل بن حسنة ٣٣١

اما الكنيسة الكبرى فقد شطرت شطرين ، إشارة للعنوة
والصلح ، فبقي نصفها للنصارى وصار نصفها مسجداً . وأقيمت العبادة
متجاورة في النصفين من الفريقين ، فتأذى المسلمون لمجاورة النصارى ،
وتأذى النصارى لمجاورة المسلمين في العبادة . وظل الأمر على حاله
منذ الفتح الى أن جاء الوليد بن عبد الملك فاحتال للأمر حتى
خلص المسجد كله للمسلمين برضا أهل دمشق .

وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام من افضل خلفائهم ،
فقد بنى المساجد ووضع بها المنابر : مسجد دمشق ومسجد المدينة
والمسجد الأقصى ، وبنى قبة الصخرة . وحين أراد أن يبني مسجد
دمشق هدم النصف الذي كان كنيسة وأدخله في المسجد بعد رضا
الدمشقيين حيث صالحهم على كنيسة مريم ٣٣٢

(٣٣١) تاريخ مدينة دمشق ص ٦٩ هـ

(٣٣٢) ابن الاثير ج ٥ ص ٤ - حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦ - هذه
الكنيسة تسمى اليوم بالمريمية وهي عند الباب الشرقي لدمشق القديمة قريباً من
الغوطة ، وفي المدخل المؤدي اليها منارة مسجد قد عطل . وقد زرتها في يوم
السبت الرابع عشر من حزيران سنة ١٩٥٣ ودخلت اليها فرأيت في جدارها
الامامي تجويفاً كتجويف الحراب وضعت فيه صورة للسيد المسيح عليه السلام .

وكانت هي الاخرى شطرين في يد المسلمين والنصارى . فلما
تراخوا شرع الوليد في بنائه وتحسينه وتحصينه بنائه ، أبقى منه ما
أبقى وجدّد ما جدّد ٣٣٣ .

وبدأ الوليد في بناء الجامع في السنة التي تولى فيها عمر بن عبد
العزيز المدينة ، ودام العمل في بنائه وزخرفته بالجد والاجتهاد
أكثر من عشرين عاماً ، وتم في عهد سليمان ، وعمل في بنائه اثنا عشر
الف صانع حتى صار أحد عجائب الدنيا القديمة ، وكان كذلك من
قديم لتوكيبه على الفلك ٣٣٤ .

وكان جدار المسجد قصيراً فأعلاه الوليد ، ولما احتاج الى
الصناع من خارج بلاده تهدّد ملك الروم بالغزو اذا لم يعنه بالعمال
فاستجاب له فوجه إليه مائتي صانع كما سأل ٣٣٥ وبينما كان العمال
يبنون سقطت قبة الجامع ، وكانما قد خان عمال بيزنطة فتمهاونوا

وتجويف المحراب كله مغطى بالقاشاني الملون بالزرقة والبياض . وكانت جدران
الكنيسة كلها كذلك غير ان حريق سنة ١٨٦٠ م اتى عليه . وقد سألت فليل
لي ان مساحة الكنيسة تقرب من مساحة المسجد الاموي ولها ارض زراعية
حولها تسمى ارض البطيركية صارت بها الان مباني كثيرة .

ولا توجد كنيسة باسم توما ولكن حيا بكامله في دمشق يقال له باب توما
وبه ما يقرب من سبع كنائس للطوائف المسيحية المختلفة . وهذا الحي يمتد حتى
يجاور الكنيسة الريمية .

(٣٣٣) مسالك الابصار ج ١ ص ١٧٩

(٣٣٤) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٧

(٣٣٥) مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٣

لنسقط القبة وشيكاً إذا غادروا دمشق ، ولكن الوليد فطن لذلك
فرجع فأقامها ، وأقام على الصنّاع أخاه سليمان ، لا يبرح حتى
يتموا ما يبنون باتقان ، فبنيت القبة مرة ثانية بناءً محكمًا ، وعقد
رأسها بالذهب وسقّف المسجد بالرصاص .

وقد أسهم في بناء المسجد أهل دمشق ونواحي الشام ثم الجند
من أهل مصر وأهل العراق ، وكان يفضّل عند الرجل من أهل
الشام الفلّس ورأس المسمار فيجىء به حتى يضعه في الحزانة من
أجل المسجد ، وحشد الناس ليجمعوا له الرخام والمرمر ما لا
تدرى قيمته ، وزينت جدرانها بالنقوش والفسيفساء .

انفق فيه الوليد أربعمائة صندوق ، في كل صندوق أربعة
عشر ألف دينار ، ثم بلغ الوليد أن أهل دمشق أرجفوا به وتكلموا
فقالوا : محق الوليد بيوت الأموال في نقش الحشْب وتزويق
الحيطان ! فقال لهم : يا أهل دمشق ، إني رأيتم تفخرون بمائكم
وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فاحببت أن يكون مسجدكم
الخامس ! ثم مات الوليد ولم يتم بناء المسجد فأثمه أخوه سليمان .
ولما تم البناء والزخرف كان فيه ستمائة سلسلة من الذهب تحمل القناديل
وما زالت به حتى جاء عمر بن عبد العزيز ٣٣٦



فلما جاء عمر بن عبد العزيز ومضى قدماً في تحقيق العدالة
والرفق بالناس قالت النصارى : يا أمير المؤمنين ، قد علمت حال
كنيستنا ! قال : إنها صارت الى ماترون ، وان ما كان خارج

(٣٣٦) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦

المدينة فتح عنوة ، ونحن نرد عليكم كنيسةكم ونهدم كنيسة توما فانها فتحت عنوة ونبنينا مسجداً ! فقالوا : بل ندع لكم هذا ودعوا كنيسة توما .

قال ابن المعلّى : وبلغني عن الوليد بن مسلم عن ابن جابر انهم رفعوا الى عمر بن عبد العزيز ما أخذوا عليه العهد في كنائسهم ، فكلهم ورفع لهم الثمن حتى بلغ مائة الف فأبوا ، فكتب الى محمد ابن سويد النهري أن يدفع اليهم كنيسةهم الا أن يرضيهم فأعظم الناس ذلك - وفيهم بقية أهل الفقه - فشاورهم محمد بن سويد متولي دمشق فقال الفقهاء : هذا امر عظيم ! تدفع اليهم مسجدنا وقد أذننا فيه بالصلاة ؟ يهدم ويصير كنيسة ؟ فقال رجل منهم : ها هنا خصية ، لهم كنائس عظام حول المدينة : دير مرّان وباب توما والراهب وغيرها ، ان أحبوا ان نعطيهم كنيسةهم ، ولا يبقى حول دمشق كنيسة الا هدمت ، وان شاءوا تركت هذه الكنائس ونسجل لهم سجلاً . ثم عرضوا عليهم ذلك فقالوا : انظرونا ننظر في امرنا ، فتركهم ثلاثاً ، فقالوا لمحمد بن سويد : نحن نأخذ الذي عرضت علينا ، ونكتب الى الخليفة نخبره بذلك ويسجل هو لنا بامان على ما في الغوطة ، فكتب الى عمر فسرّه ذلك وسجل لهم كنائسهم انهم آمنون ان تخرب او تسكن ، وأشهد لهم شهوداً بذلك ٣٣٧

ولم يغب الزمن كثيراً ، وفكر عمر في الاصلاح . فذكر الكعبة ومسجد المدينة ومسجد دمشق ، وذكر صفائح الذهب وسلاسل

(٣٣٧) ابن الاثير ج ٥ ص ٥ - مسالك الابصار ج ١ ص ١٩٠

القناديل والرخام والفسيفساء ، وكان العدل عنده واسعاد الناس
اولى من هندسة المدن وتنظيمها وترميم المساجد وتذهيبها فقال :
رأيت أموالاً انفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك منها فرادته في
بيت المال ! : أعمد الى ذلك الفسيفساء والرخام فأقلعه وأطينه ،
وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً ، وأنزع تلك البطائن
وأبيع جميع ذلك من مسجد المدينة ومسجد دمشق . ثم امتدت
يد عمر الى السلاسل الذهبية اول ما امتدت لأنها أنفق في سوق
الشراء ، فأخذها وباعها وجعلها في بيت المال ، واتخذ عوضها
'صفراً وحديداً' ٣٣٨

وعرف اهل دمشق فاشتد عليهم الأمر ، وبينما كان عمر في
دير سمعان ذات زيارة خرج اليه أشرافهم وفيهم خالد بن عبد الله
القسري فقال لهم خالد : ايذنوا لي حتى اكون انا المتكلم ، فأذنوا
له ، فلما أتوا دير سمعان استأذنوا عليه ، ثم قال له خالد : بلغنا
يا أمير المؤمنين انك هممت بكذا وكذا ، قال : نعم ، فقال
خالد : والله مالك ذلك ! فغضب عمر وعادت اليه حديثه فقال له :
لمن هو ؟ لأملك الكافرة ؟

وكان خالد القسري من أم ولد نصرانية ، ولم يكن من حق
عمر ان يقول له ذلك الا انها الحدة ظلت معه تلازمه ، وقد نبهه
من الزلل . فقال له خالد : ان كانت كافرة فقد ولدت مؤمناً !
فاستجيا عمر وقال : صدقت ! فما قولك والله ما ذاك لي ؟ قال
خالد : لأننا كنا معشر أهل الشام واخواننا من أهل مصر والعراق

(٣٣٨) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦

نغزو فيفرض على الرجل منا ان يحمل من ارض الروم قفيزاً
بالصغير من فسيفساء وذراعاً في ذراع من رخام فيحمله اهل العراق
وأهل حلب الى حلب ويستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل
اهل حمص الى حمص فيستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل
اهل الشام ومن وراءهم حمتهم الى دمشق . فذاك قولي . اذاك
لك ! فسكت عمر .

وفيا كان عمر لا يزال مصرأً على ما نواذوقد اراد المضي ورأى
ان يبدأ بتجريد قبلة المسجد من الذهب محتجاً بأنه يشغل عن
الصلاة قالوا له : يا أمير المؤمنين ، انه أنفق عليه فيء المسلمين
وأعطياتهم ، وليس يجتمع منه شيء ينتفع به ، فأراد أن يبيضه
بالجص ، ف قيل له : تذهب النفقات فيه ، فأراد أن يستره بالخزف
ف قيل له : ضاهيت الكعبة ، فبينما هو كذلك اذ جاءه بريد من والي
مصر يخبره أن قارباً ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم
يريدون الوصول الى امير المؤمنين فأذن لهم ، وأمر أن يوجه معهم
عشرة من المسلمين يحسنون الرومية ، لكل واحد واحد - ولا
يعلمونهم أنهم يعرفون لغتهم ، حتى يحملوا إلي كل كلامهم ، الا
الرئيس ، فساروا حتى نزلوا دمشق خارج باب البريد . فسأل
الروم رئيس العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم في دخول المسجد
فأذن لهم ، فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه
القبلة ، فكان اول ما استقبلوا المقام ، ثم رفعوا رؤوسهم الى القبة ،
فقال رئيسهم : كم للاسلام ؟ قالوا : مائة سنة . فقال : كيف
تصغرون أمرهم ؟ ما بنى هذا البنيان الا مالك عظيم ! ولم ينته من

قوله حتى خرّ مغشياً عليه ، فحمل الى منزله ، فأقام ما شاء الله ان يقيم ، ثم افاق ، فقال له أصحابه بالرومية : ما قصتك ؟ وما الذي عرض لك ؟ قال : كنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء للعرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها ، فلذلك أصابني ما أصابني !

فلما قدموا على عمر اخبروه ، فقال : أما إذ غايظ العدو فإني أدعه . فتروك ما كان همّ به من أمره ٣٣٩

من البياه

كره عمر اللحن ومجاوزه الحق في القول وكره جفوة الكلام ومن أجل اللحن كره الوليد ، ومن مجاوزة الحق كره الحجاج ، ومن الجفوة اخذ يؤدب الجافين ولا يستكتب واحداً منهم . وقد دقّ ذوق الرجل للكلام لانه حسب له حسابه في امور السياسة وامور الاجتماع . وكان انكبابه على علوم الدين والحديث والقرآن ، منذ اول ، سبباً لارهاق حبه اللغوي بين قوم من خالصة العرب كلهم مرهفون .

ولقد ارتعد عمر حين قال رجل لرجل في حضرته : تحت ابطك ، فقال عمر : وما على احدكم ان يتكلم بأجل ما يقدر عليه ! قالوا : وما ذاك ؟ قال : لو قال تحت يدك كان أجمل !

وجيء بكتاب بخط بين يديه ، وكان مسلماً من أب لم يسلم ، فقال عمر للذي جاء به : لو كنت جئت به من أبناء المهاجرين ! فقال الكاتب : ما ضرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر أبيه ! فقال

(٣٣٩) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢

عمر : قد جعلته مثلاً ؟ لا تخطّ بين يدي بقلم أبداً ٣٤٠

ولم يؤمن عمر بقول لا يحقّقه العمل ، بل كان يرى القول والعمل شيئاً واحداً وانما أحدهما بعض الآخر ، ومن لم يجعل كلامه من عمله كان مذنباً كثير الذنوب ٣٤١ ، ولعله لم يفتن الى ذلك كل الفطنة الا بعد ان تلقى الناس على الحجاج بن يوسف فنون الأكاذيب وزور الحديث ، فنهض عمر من بعده يقعدهم عن الاقتداء به ويردّهم الى الحياة الحقة التي لا يختلف فيها طريق القول وطريق العمل اذ هما طريق واحد لمن أراد ان يكون على الهدى والسداد . أما الكلام الحقّ فسماه عمر سحراً حلّالاً ، وأما هو فقد اصر عن نية صارمة وقلب صادق حين تكلم ، ولذلك سمعت آذان الناس في مدته ومنه صوتاً صارخاً لم تسمعه من قبل الا في صوت رسول الله وبعض أصحابه ، وحتى العظة الخالصة وقراءة القرآن كانت منه تثير القلوب والأشجان . وقد خطب مرة بالقرآن فقرأ « اذا الشمس كورت » وكان يقرأها بصوت يبكي ودمع يشور ، فارتج المسجد كله بالبكاء حتى ظننت حيطان المسجد كأنها تبكي معه ومع الناس .

حتى اذا رأى الناس قد أخذوا بقوله وافتتوا ببلاغته قطع كلامه مخافة ان يطغى رنين الكلام على معناه ومخافة المباهاة ، ومع أنه كان شديد التحفظ في كلامه عظيم الحرص على الحق فيه حتى قيل : ما روي رجل أشد تحفظاً في منطقه من عمر بن عبدالعزيز -

(٣٤٠) ابن الجوزي ص ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢

(٣٤١) الطبري ج ٥ ص ٣٢١

مع ذلك كله كان يقطع كلامه اذا فتن به الناس . وقد خطب يوم عيد فأرقّ كلامه فأبكى الناس جميعاً يميناً وشمالاً ، ثم قطع كلامه والناس ينتظرون ان يكمل ، ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلمت الناس بما أرقّ قلوبهم وأبكائهم ثم قطعته أحوج ما كانوا اليه ، فقال : يا رجاء ، اني أكره المباهاة ٣٤٢

وكما كان عمر صادقاً في قوله كان حسن الاداء حتى انه ليفتن المسافر عن سفره فيقيم لسمعه ، ومن أقام لسمعه المرة تلو المرة ودّاً ألا يرتحل . ولقد سمعه رجلٌ يقال له عدي بن الفضيل ، وكان ممن يعجبه القول البليغ والاداء الحسن - سمعه في يوم جمعة رهـوـ بخطب ، وكان عديّ مسافراً فأقام ، وما زال مقيماً شهراً ما به الا انتظار الجمعة او انتظار الفرصة لاستماع كلامه ٣٤٣

وما من خطبة لعمر ولا كتاب ، ولا كلام ولا توقيع الا وهو يضرب في البلاغة بسهم . وقد اشتهرت له كلمات صار لهنّ مقام الحكمة وبليغ الأثر . وذلك مثل قوله : ما بسط أمل ان لا يدري ، لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا - ألا واني لست بمبتدع ولكني متبع - لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق - انما هي خطايا مطوقة في اعناق الرجال ، وان الهلاك كل الهلاك الاصرار عليها - اتقوا الله واجملوا في الطاب - ما قرن شيء الى شيء أحسن من

(٣٤٢) ابن الجوزي ص ١٦٣، ١٦٥، ١٨٥ - العقد الفريد ج ١ ص ٩٢

(٣٤٣) الكامل للعبد ج ١ ص ٩١

علم الى علم ، ومن عفو الى مقدرة — لقاء الرجال تلقيح لألبابها —
ان رجلا ليس بينه وبين آدم أب حيّ لمعرق في الموت — من
جعل دينه غرضاً للخصومات أسرع التنقل ٣٤٥

وله توقيعات على كتب العمال تدل على صدق قراءته وفهمه
وبصره بالدليل ، وما سمع انه هاب ان يوقع على كتاب للخليفة
حتى وهو وال تحتة ، فقد وقع على رقعة للوليد بن عبد الملك حين
كان عاملاً له على المدينة يقول : الله اعلم أنك لست اول خليفة
يموت . وقد وقّع في قصة متظلم : العدل أمامك . وفي رقعة
رجل شكازوجته : أنما في الحق سيّان . وفي رقعة رجل يشكو
ابنه : ان لم انصفك منه فأنا ظلمتك !

وكان عمر مع تحفظه في المنطق وحرصه على الحق سريع
الخاطر في سبك الكلام ، فالعدة لديه حاضرة والصدق يعينه ،
فلم يكن ليحتال او يبطىء اذا أعوزه القول الحاضر والأمر
الحازب ، وطالما كانت اجاباته المرتجلة على الوليد مقنعة له ولأولاده
بخاطر عمر وشدة حذقه . وكانت اجاباته السريعة للناس اهون
عليه من اجاباته للوليد ، وقد قال له رجل : نحن نجير ما ابقاك
الله ! فقال له : انت نجير ما اثقيت الله تعالى ! ٣٤٦

ولما آمن عمر أشد الايمان بفعل البلاغة في نفوس الناس ، لم

(٣٤٥) عيون الاخبار : كتاب العلم والبيان ص ١٢٦ - ابن الجوزي
ص ٦٣ ، ٢١٧ - الموافقات ج : ص ٣٢٠
(٣٤٦) انظر باب التوقيعات بالعقد انقريد ج ٤ ص ٢٠٨ - المحكمة
الحالدة ص ١١٧

تخدم همته فيها ، ورأى حسن البيان شرطاً لازماً للحاكم عامة ،
فاذا تولى الحاكم هداية الناس وكان زعيم ارشادهم كانت البلاغة له
ألزم ، وقوة البيان أولى ، ولم يغب عن عمر - راشداً - أن
لأجادة القول سيطرة على القلوب وهيمنة على النفوس ، وقد يقاد
بها الناس كما تقاد الابل الآنفه لتحمل على الطريق .

دعوة الخسنة

القمريّة والعصاة

لقد اضطرب قلب عمر للرعية تأخذها الضلالة ويردّها الزيف ،
فحشد نفسه وبلاغته لها لعله يهديها ، وحارب ضلالة الناس باعتقاده
السليم ، وثبت لديه أن عذاب هذه الأمة إنما يكون بالفتن بينهما في
الدنيا ، وكره أن تبدأ الضلالة بالكلام في القدر والتكذيب به . وقد
حدث عمرو بن مهاجر أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : ما هلكت أمة بعد إيمانها إلا بشركها ، وما
كان بدء شركها إلا التكذيب بالقدر ^{٣٤٧}

ورأى عمر في أهل الكلام بالقدر أن يستتابوا ، فإن تابوا خلي
سبيلهم وإلا نفاهم . ولم يكن عمر مبتدع هذا الرأي ولكنه تأثر
خطى عمر بن الخطاب الذي كان يقول : إنه لا عذر لأحدٍ عبد الله

(٣٤٧) تاريخ دارياص ٨٣ ، ٩٢

بعد البيّنة بضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا في هدى حسبه ضلالة
فقد تبينت الامور وثبتت الحجة وانقطع العذر ، فمن رغب عن
انباء النبوة وما جاء به الكتاب تقطعت من يده أسباب الهدى
ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى ٣٤٨

وكان هناك بناحية سجستان وهرارة وخراسان فرقة من الخوارج
تقول بتكفير الأمة وتبرأ من الحثين عثمان وعلي ، ويتولون الشيخين ،
ويسبون ، ويستحلون المحارم ، يأخذون ببعض القرآن ولا
يقولون بالسنة أصلاً ، وكانوا مع ذلك شجعاناً تقاتل نساءهم على
الحيل مضمرات كما يقاتل رجالهن .

وبناحية هرة واصطخر جماعة من الشراة يكفرون اصحاب
المعاصي في الصغائر والكبائر ، ويرون رأى الحرورية في الخلفاء
ولكنهم يستحلون الأموال ولا يسبون النساء ، ولا يخالفون في
دين ولا سنة ، وكانت لهم دنيا واسعة ولهم خصب ومروءة ٣٤٩ .

واشتعلت في الشام فتنة غيلان الدمشقي فانه كان من أهل
القدر والمتكلمين فيه . وكان أهل القدر يقولون بارادة الانسان
كما قال أهل الاعتزال من بعد - فقد عمر ذلك غلواً في القول ،
ورأى أنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله لكان له شركاء تنفذ
مشيئتهم في الخلق دونه . ٣٥٠ وكان هنا وهناك وفي كل مكان
بدلة واضطراب وزيف وضلالة ، فرأى عمر ان يجادل كل هؤلاء

(٣٤٨) ابن الجوزي ص ٦٨

(٣٤٩) التنبيه والرد ص ٥٦ ، ٥٧

(٣٥٠) ابن الجوزي ص ٦٩

ليهديهم سواء السبيل .

أما غيلان فأتى به عمر وحاجته فلزمته الحجة فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد جئتُك خالاً فهديتني ، وأعمى فبصرتني ، وجاهلاً فعلمتني والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر ابداً . وأدرك عمر خبث غيلان فهدده وتوعده فقال : والله لئن بلغني أنك تكلمت في شيء منه لأجعلنك نكالاً ! فلم يتكلم غيلان في شيء حتى مات عمر ، فلما مات سال فيه غيلان سيل الماء او سيل البحر ٣٥١ .
وأما خارجة الحرورية بناحية الموصل فأخافت الطريق وأراقت الدماء ، فأرسل عمر فحملهم على مراكب البريد ، ثم أذن لاثنتين منهم ان يخاصماه ، فلم يدع لهما حجة حتى كسرها فقالا : نرجع على أن نسيح في الارض ، وأقسموا على ألا يخيفوا سبيلاً ولا يريقوا دماء ، فان فعلوا فقد أذنوا بالحرب ، فساح أحدهما فأراق الدماء وأخاف السبيل ، فبعث اليه عمر بسعيد الجرشي في اهل الكوفة فقتلوه وقتلوا اصحابه .

وكتب عمر الى بعض العاصية الذين خرجوا : من عبد الله عمر ابن عبدالعزيز أمير المؤمنين الى يحيى بن يحيى والعاصية الذين خرجوا ، سلام الله عليكم ، اما بعد ، فان الله عز وجل يقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . ثم جعل يلزمهم الحجة ثم قال : واني أقسم بالله لو كنتم ابكاراً من ولدي وتوليتم عما دعوتكم اليه ولم تجيبوا للدفت دماءكم التمس

(٣٥١) التنبيه والرد ص ١٥٨

بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، فهذا النصح ان اجبتم ،
وان استغششتكم فقد بئاً استغش الناصحون ٣٥٢

وخرج في سنة مائة بسطام شوذب اليشكري في نواحي
العراق ، وكان في ثمانين رجلاً ، فكتب عمر الى عبد الحميد بن عبد
الرحمن ألا يحركهم حتى يسفكوا دمًا ويفسدوا في الارض ، فان
فعلوا وجه اليهم رجلاً صليباً حازماً في جند ، فبعث عبد الحميد
محمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين وأمر بما كتب عمر .

وارسل عمر الى بسطام كتاباً يسأله فيه عن سبب خروجه ،
فبلغه الكتاب والبجلي بالجند في وقتٍ معاً ، وقام البجلي بأزائه لا
يتحرك كما أمر ، وكان في كتاب عمر : بلغني انك خرجت غضباً
لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك مني ، فسلم إليّ أناظرك ! فان
كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك
نظرنا في أمرك . فرضي بسطام بما رأى عمر ورأى انه انصف
وعدل فأرسل اليه برجلين يناظرانه أحدهما مولى حبشي لبني شيبان
اسمه عاصم ، وآخر يشكري ، فقدما على عمر بمخاضرة فدخلا اليه
فناظرهم وناظراه .

وجاءه الخارجيـان بسب بني أمية ، وطلبوا منه ان
يتبرأ منهم - ولم يكن السب من شأن عمر - فجادلهم فيه
حتى رضوا برأيه وأقروا أدبه ، وأراهم أنه لا يستطيع أن يتبرأ
من أهله ، وقد اكتفى بافقارهم وحمل العباد منهم ، ولم يرَ عمر
أن يجري في المضمار بأكثر من ذلك ، فان في أهل بيته المحسن

(٣٥٢) التنبيه والرد ص ١٧٤ - ابن الجوزي ص ٧٧

والمسيء ، والمصيب والخطيء .

وجاء الخارجيان باقرار عدله وإنصافه ، ولكنها طلبا إليه أن
يخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ، وجاءهم عمر بأن يُنظروه
لينظر في خلع يزيد من بعده إن حانت له الفرصة .

أما عاصم فشهد بأن عمر على الحق وأقام عنده ، وأما اليشكري
فرأى أن يرجع ليرى رأي من بعثوه . وأما البجليّ فأشد جند
عمر فظل قائماً مقابل الخوارج لا يتعرض لهم ولا يتعرضون له .
كلّ منهم ينتظر عودة الرسل من عند عمر . فتوفي عمر والأمر
على ذلك . وأسرع بنو أمية إلى دس السم لعمر مخافة خلع
يزيد ٣٥٣ .

جند المسلمين

وهكذا انطلق الشرّ والهوى في بلاد المسلمين وأمرائهم .
وكانت على الثغور والآفاق جيوشٌ تتعثر وأخرى تتمزق وتذوب .
فرأى عمر أن تمسك الأقواس عن سهامها حتى تقوى الدولة من
داخلها ويتعلم الناس في البلاد التي فتحت حقيقة الاسلام ، وذلك
خير من أن يتسع الحرق على الراقع .

حقاً إنه لم يشتهر عن عمر بن عبد العزيز انه على علم بفنّ الحرب ،
ولم يسبق له ان اشترك في غزوات مع الجيش سوى ما قبل من
انه سار مع سليمان مرة الى الصائفة ثم اختلفا فرجع عمر ومضى
سليمان . ولقد قبل لذلك ان عمر أخطأ حين ردّ جيوشه من الثغور

(٣٥٣) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٣

فمطّل الفتوح التي كانت تؤشك ان تخترق اوروبا من الشرق
 والغرب وتلتقي في قلبها على أشلاء الروم والقوط وسائر الفرنجة ثم
 يلفظ الشرك انفاسه في خضمّ الارض . لكن عمر جاء يخالف بني امية
 في سياسة الفتوح . لأنه كان يشهد من بُعد ان الفتوح لم تأت بما
 يُرجى منها للدين إذ كان الغرض الأول من الفتح أن يُدعى
 الناس الى السلم فيؤمنوا ، ولكن الفتوح ارتدت كلها تطلب الغنى
 والثروة والسبايا والعبيد . ولبت الأمر اقتصر على ذلك بل انما
 ارتدت الى الضدّ مما كانت ، فقد صارت مربحة للأمراء والولاة
 على البلدان ، لا يضعون الجزية عمن يسلمون لئلا يُقفر بيت المال
 كما يقولون ، فلم يعد الناس يرون من فائدة لهم اذا دخلوا في الاسلام .
 وكانت طبقة القواد والجنود التي تتولى الفتح اليوم غير الطبقة
 الاولى من الاصحاب والتابعين ، فلم تكن تدرك تمام الادراك
 حماسة هؤلاء لدينهم الذي انساحوا من اجله لفتوح البلدان ، وكانت
 الفتوحات العسكرية تثقل كاهل الفاتحين ، وما يأتي منها من غنائم
 يوزع على السادة دون العبيد ، ولا يدخل الاسلام هذه الارضين
 الا قلقاً غير معروف . وان النطاق الضيق الحصين لأفضل
 للاسلام نفسه من هذا النطاق الفسيح الذي اصبح كله محوطاً
 بأضعف الثغور . هكذا رأى عمر او لعله ، فردّ الجند عن الثغور .
 واهتدى بما رأى الى الصواب كله ، فان الأمر كان اكثر بما
 يُظنّ ، ولم تكن البلاد التي تواجه الفتح بالهبة السهلة حتى يضحى
 أمام أسوارها بالجنود والمال ثم لا تُفتَح ، وإن فتحت فانها لا
 تزيد المسلمين إلا عبثاً وهماً ثقيلاً .

ومضى عمر في رأيه فردّ من فوره جند المسلمين عن الآفاق إلا ما كان في معركة يخوضها أو على ثغر يخاف عليه^{٣٥٤}. وكان أول ما خيف عليه جند مسلمة بن عبد الملك، وكان قد حاصر القسطنطينية في أيام سليمان أشد حصار فرضه العرب عليها وتوالت فيه امدادات البر والبحر، ونصب المنجنيق، ورَمَى العرب الروم بالنفط وأسرع أسطول مصر للنجدة، وكادت القسطنطينية تسلم لولا ان الامبراطور «ليو الايصوري» السوري الأصل وفق في انقاذ المدينة من مسلمة.

ثم استعان الروم والبلغار بالجماعة والأوبئة وأهوال البرد فزادت بلية المسلمين. ومات سليمان بن عبد الملك حين ذلك فلم يثبط موته من عزيمته أخيه مسلمة، وظل يحاصر المدينة وجيشه يذوب ويهلك، فأرسل اليه عمر يأمره بالقفول بمن بقي معه مخافة هلاك الجند كافة، فصدع مسلمة بالأمر وقفل في معونة من الخيل والطعام من قرى الناس فأتت على البقية الباقية معه وهو قافل عاصفة هوجاء^{٣٥٥}. ثم أمر عمر جند طرندة بالقفول عنها الى ملطية^{٢٥٦}.

أما الحرب في أقصى الشرق وأقصى الغرب فقد استمرت في نطاق ضيق، وقد ظل السمع بن مالك الحولاني يحارب في الاندلس

(٣٥٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٧٦

(٣٥٥) تاريخ العرب المطول ص ٢٦٧

(٣٥٦) طرندة بلدة من ملطية على ثلاث مراحل داخلية في بلاد الروم -

النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٢

حتى استولى على « سبتمانيا » ثم نزل « اربونة » التي صارت حصناً منيعاً للعرب فيما بعد وصارت دار صناعة ومستودعاً للمؤن والمعدات ٣٥٧ وقاتل حاتم بن النعمان الباهلي عن أذربيجان وطردها المغيرين ٣٥٨ .

بدعة معاوية

وكانت سرت في البلدان بدعة قد وُقِّحَتْ فكَشِفَتْ عن وجهها ثم سارت ، سارت تطأ كل المنابر وتصرخ في كل الآذان ، ولم تستح فصعدت في مسجد رسول الله وبين أهله وعلى منبره ، كان ابتدعها معاوية بن أبي سفيان ، وأصدر أمره الى الولاة ان يجعلوها تقليدا في خطب الجماعة ، وظن معاوية أنه ما يزال يدق بها الآذان ويقذف بها في الصدور حتى تميل اليه .

وأراد معاوية أن يشيد ملكه ويقرر في انفس الناس أن بني هاشم لا حظ لهم في هذا الامر ، وأن سيدهم الذي به يصلون ويفخروه يفخرون هذا حاله وهذا مقداره فيكون من ينتمي اليه ويدلُّ به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول اليه أشحط وأنزح ٣٥٩ . وظن معاوية أن الناس اذا كرهوا وجه السوء في بدأة الرؤية فانه حين يعود ويشمل ويتكرر تذهب عنه الوحشة ويتوارى منه القبح ، وظن معاوية انها ستكون غداً عادة مألوفة وسنة شريفة فاذا غابت عن الناس يوما اشتاقوا لها وحنوا اليها . وأخطأ معاوية الرأي وجاوز الحلم الذي قالوا إنه وُسِمَ به ،

(٣٥٧) تاريخ العرب المطول ص ٥٩٥

(٣٥٨) حجة الاسلام ج ١ ص ١٧٦

(٣٥٩) خطط الشام ج ١ ص ١٥٥ عن أبي الحديد .

وعادت البدعة بغير ما ظنّ ورأى ، فانها كانت تحدث في نفوس
الناس وجة غيظ واستغفارة ندم يفتن لها الخطيب الفطين فيعثر
ويتلعم ، وتغيب عن غير الفطن فتنتطلق اللعنة عليه جارفة
صارخة من القلوب .

وقدّم معاوية الخطبة على صلاة الجمعة لأن الناس كانوا يكرهون
سماع اللعن فكانوا اذا أدّوا الصلاة خرجوا من المسجد ، فألزمهم
بتقديم الخطبة سماع المسبّة ، ولكنهم كانوا اذا فرغوا من سماع
الخطبة اجتمعوا - ولا سيما الطالبيون - بعد كل صلاة وصبّوا
لعناتهم على بني أمية جميعاً .

وخاض خطباء البلدان في دم البدعة فسبّوا علي بن أبي طالب
على المنابر بأمر الأمير ، وجاوز خطباء بني أمية حدّ النهيّة والمروءة
في الجهر بها ، ونطق بها عبد العزيز بن مروان فيمن نطق على منبر
المسجد الجامع بفسطاط مصر ، ولكنه كان فطناً فقلق ورجف
وتعثر وتلعم كما همّ بها فأحسّ القلوب تغضب ورأى الوجوه
تشبح وسمع الأفواه تزفر ، ولكنه كان تقليدًا مرسومًا ، ولم ينه
أحدٌ عنه ، ولو وجد من يكفه لكفّ أو لعلّه !

وقد قال عمر بن عبد العزيز : كان أبي اذا خطب فقال من
عليّ رضي الله عنه تلجلج ، فقلت : يا أبت إنك تمضي في خطبتك
فاذا أتيت عليّ ذكر علي عرفتك منك تقصيرا ! قال : أوفطنت
الى ذلك ؟ قلت : نعم ، فقال :

يا بني ، ان الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرقوا عنا
الى اولاده .

ولكن عمر بن عبد العزيز لم يتعظ بما فعل أبوه ، وغلبه الصبا والنسيان ، فحين عاد الى المدينة يتعلم خاض في البدعة ونزع إليها منازع أهله ، ولم يكن يعرف في نفسه حباً لعلي بن أبي طالب حتى دله عليه راهب قريش .

قال عمر : كنت بالمدينة أتعلم العلم ، وكنت ألزم عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود فبلغه عني شيء من ذلك فأثبته يوماً وهو يصلي فأطال الصلاة ، فقعدت أنتظر فراغه ، فلما فرغ من صلاته التفت إليّ فقال لي : متى علمت ان الله غضب على اهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم ؟ قلت : لم اسمع ذلك ، قال : فما الذي بلغني عنك في علي ؟ فقلت : معذرة الى الله واليك ، وتركت ما كنت عليه ! ٣٦٠ .

وكان نشأ عن فتنة عثمان وفتنة يزيد أن سب بعض الناس عثمان مع تورع السلف الناجين عن سبّه ، ومدح بعضهم يزيد بن معاوية مع اجماع الناس على ربه بالخطأ ، قد اختلف الناس هكذا ، ولم يكن لهم أن يختلفوا في الرجلين هذا الاختلاف حتى لو كانت اختلافهم للتعصب والعناد ، فالحلال بين والحرام بين ، ولكن الناس في الأرض عشاق ضلالة وأنصار خلاف .

وقد جيء عمر برجل سب عثمان فقال : لم سببته ؟ قال الرجل : أبغضته ! فقال له عمر : أو كلما أبغضت رجلاً سببته ؟ ثم ضربه

(٣٦٠) ذكر الحضري في تاريخه ج ٢ ص ١٨٤ ان ذلك حدث من عمر وهو في امرة المدينة وهو وهم من الحضري ترده شهادة عمر نفسه كما ذكرنا - ابن الاثير ج ٥ ص ٢٠

ثلاثين سوطاً . ثم سمع رجلاً يتشدد ويقول : أمير المؤمنين
يزيد بن معاوية فضربه عشرين سوطاً .

بدعة الناس

وأثرت بدعة معاوية في الناس فابتدعوا سب الخلفاء أو بعضهم .
وحار سب الناس بعضهم بعضاً عادة . وكما سببت امية علياً سب
الطالبيون بني امية ، وحيث هانت مقادير الرجال فقد صار السب
لمن دون العظماء أهون وأسهل ، وقد جهد عمر في ان يمتنع الناس
عن عادة السب حتى ان الرجل كان يأتيه مظلوماً فيشكو له ظلمه
فيهم ان يقضي له فاذا سب خصمه لم يقض . وتركه ومظلمته .
إنه كان يعتقد ان السب ينتقص الحق ، ولقد مات الحجاج
وهو يقول : اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون انك لا تفعل ،
فنفسها عليه عمر وظنها منجاة له وأمسك دونه . وحين دخل عليه
رياح بن عبيدة وذكر عمر الحجاج شتمه رياح ووقع فيه ، فقال
له عمر : مهلاً يا رياح ، إنه بلغني ان الرجل ليُظلم فلا يزال المظلوم
يشتم الظالم ويتنقصه حتى يستوفي حقه ويكون للظالم الفضل عليه .
ولما استوى عمر خليفة رأى ان يحو البدعة ويدفع الناس عن
سفساف الأمور ، فكان أول ما أمر به ان منع الناس عن سب
علي في الخطبة على منابر البلدان ٣٦١ . وأثبت عمر في مكان السب
قوله تعالى : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ،

(٣٦١) الفخري ص ١٧٦ - التنبيه والرد ص ٥٢ - النجوم الزاهرة

ج ٦ ص ١٣٤

وكتب بذلك إلى الأمصار .

ولما أبطل سبّ عليّ أقبل عليه كثير عزّة ينشده ويقول :
وليتَ فلم تشتم عليّاً ولم تحف بريّاً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلّمتَ بالحقّ المبين وانما تبين آياتُ الهدى بالتكلم
وصدّقتَ معروف الذي قلت بالذي فعلتَ فأضحى راضياً كلّ مسلم
فلما أتم كثير عزّة إنشاده قال عمر : أفلحنّا اذن ! ٣٦٢

وكان الخلفاء يغفلون في العقوبة لمن يسبّ أحداً لا يرضون
سبه ، ولم يكن عمر يرى هذا التجاوز والغلو في عقوبة السبّ وإن
كان يكرهه . وكان يرى خير رادع للسبّ أن يعلم الناس الدين
ويبصروا به حتى يرتدعوا من انفسهم ويكون الخلفاء لهم في ذلك
قدوة ، فلما صارت له الخلافة جعل من نفسه خير قدوة فامتنع عنه
حتى لمن يستحق أن يسبّ وحمل الناس على ما رآه . وكذلك لم
ير في السبّ قتلاً كما فعل الوليد ، وقد كتب اليه عبد الحميد بن
عبد الرحمن صاحب العراق يقول له : إن رجلاً شتمك فأردت أن
أقتله ، فكتب اليه : لو قتلتَه لأقدتكَ به !



وغنّى رجال من القصاص السنّة التي كان الناس عليها ،
وأحدثوا من الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل ما يصلون على
النبي وآله والمؤمنين ، فكتب عمر إلى أمراء الاجناد يقول فيما قاله :
إن رجالاً من القصاص قد أحدثوا صلاةً على خلفائهم وأمرائهم

(٣٦٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥٣ - ابن الاثير ج ٥ ص ٢٠

عدل ما يصلون على النبي وعلى المؤمنين ، فإذا أذك كتابي هذا
فردوا قصاصكم فليصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليكن
فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ، ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات
وليستنصروا الله ، ولتكن مسألتهم عامة للمسلمين ، وليدعوا
ما سوى ذلك ٣٦٣

شبهة على

وكان عمر بن عبد العزيز في سياسته بين الحفاظ على أهله
وسلطانهم ، وبين ترضية بني هاشم ومسح جروحهم وآلامهم .
وقد راودته فكرة خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ثم زال
عنها ، ولم يسمح لأحد من كبار أهل البيت أن ينزل معه دمشق
لئلا يعرف فضله ، فسرتحه سراخاً جميلاً . قد بقي عمر على عرقه
الأموي . وقد حدث فيما كان يرى في مناهه عن الخلاف بين علي
ومعاوية بأن علياً 'قضي له بالحق وان معاوية 'غفر له ، وقال عمر
ذلك عن رؤيا رآها ولم يقله عن رأي ارتآه ٣٦٤

وكانت سنة الأموية لا ينزل معهم بالشام أحد من أهل
البيت لما كان هؤلاء من الفضل والعلم ومحبة الناس ، وقد سار على
هذه السنة عمر لم يفارقها إما مخافة أهله وأما مخافة عليهم ، وقد
قالوا انه لما قدم عليه عبد الله بن حسن كره عمر مكانه بالشام وعرف
سنه وعقله ولسانه وفضله ، فلم يكن شيء أحب إليه من ان لا

(٣٦٣) ابن عبد الحكم ص ٩٠ وهو مذهب عمر كما يقول ابن قيم
الجوزية - انظر جلاء الأفهام لابن قيم .
(٣٦٤) ابن الجوزي ص ٢٤٨

يراه احد من أهل الشام ، فقال له : اني اخاف عليك طواعين
 الشام - وكانت الشام كثيرة الطواعين - وانك لم يغنم اهلك خيراً
 منك فالحق بهم فان حوائجك ستتبعك ! فكان ظاهر كلام عمر
 حسناً مشكوراً ، وباطنه أجود التدبير في تسريحه سراحاً جميلاً ٣٦٥
 ولكن عمر مع سياسته هذه جاهد في مداواة جراح بني
 هاشم ما وسعته المداواة ، وحامى عنهم كثيراً ، وكان ذلك منه
 قديماً ، ولكنه فشا وكثر حين صار خليفة . وقد كان سليمان بن
 عبد الملك وقّع على كتاب من زيد بن حسن الى الوليد يخضع فيه
 سليمان من ولاية العهد ويبيع لعبد العزيز بن الوليد ، فأمر سليمان
 ابا بكر بن حزم واليه على المدينة ان يضرب زيداً مائة سوط .
 فطلب عمر من الرسول ان يتريث في السفر حتى يكلم الخليفة
 ويستطيب نفسه لعلها تطيب فيعفو عن زيد . وما لبث سليمان
 ان مات ولم يذهب الرسول الى المدينة وافضى الامر الى عمر فدعا
 من فوره بالكتاب فحرقه حين عاد من جنازة سليمان ٣٦٦
 ولم يكن بنو امية قد اكتفوا بسب علي ، بل انهم حرّموا
 ان يذكر اسمه بين أيديهم . وكان زريق مولى علي بن ابي طالب
 قد حفظ القرآن والفرائض ولكنه لم يرزق شيئاً من بيت المال ،
 فوفد على عمر فقال : يا امير المؤمنين ، اني رجل من اهل المدينة
 وقد حفظت القرآن والفرائض ، وليس لي عطاء في الديوان ،
 فقال عمر : ولم يرحمك الله ؟ من اي الناس انت ؟

(٣٦٥) ثمار القلوب ص ٣٥ :

(٣٦٦) ابن عبد الحكم ص ١٢٢

قال زريق : رجلٌ من موالي بني هاشم ، فقال عمر : مولى من ؟ فسكت زريق وهم واحد من الناس ان يجيب ، فقال عمر لزريق : اليك اسألك ! وصاح به : اتكتمني من انت ؟ فقال زريق بصوت خافت كأنه نجوى : انا مولى علي بن ابي طالب — قد خاف ان يجهر — فقال عمر رافعاً صوته : وأنا مولى علي ! أتكتمني ولأء علي ؟ حدثني سعيد بن المسيب عن سعد بن ابي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه . وقال عمر بن 'مورق : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس فتقدمت اليه فقال لي : من انت ؟ قلت : من قريش ، قال : من أي قريش ؟ قلت : من بني هاشم ، قال : من أيهم ؟ فسكت ، فقال : من أي بني هاشم ؟ قلت : مولى علي بن ابي طالب ، فوضع يده على صدره وقال : أيا مولى علي بن ابي طالب ، حدثني عدة أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنت مولاه فعليّ مولاه ! ثم قال : يا مزاحم ، كم تعطى أمثاله ؟ قال مزاحم : مائة درهم او مائتين ، فقال : اعطه خمسين ديناراً لولائه لعلي بن ابي طالب عليه السلام ، ثم قال له عمر : الحق ببلدك فسيأتيك مثل نظرائك ٢٦٧



وكان لون البطولة قد تغير فصار الرجل يفخر بما سفك من دم اخوانه في وقائع المسلمين ، وكان الرجل قديماً يفخر بغزواته والمشركين وفتح البلدان . ثم اختلط الامر فلم يعد هناك من

(٣٦٧) ابن الجوزي ص ١٥ ، ١٦

يفرق بين غازي أعداءه في الثغور وباطش بأهله في بلادهم ودورهم .
 هذا كان إثم بني أمية ، ولا محيص من ان يتحملوه . ولم يكن
 عمر يرى رأيهم في أبطال الحروب وشجعان القتال ، وإنما كان
 يرى البطولة في مثل غزوات النبي وحروب الخلفاء الراشدين .
 وقد جاءه يوماً شيخٌ وجعل يعدد له غزواته بدير الجماجم وغيره
 مع مروان في مصر ، وجعل يفخر بعمله فيها ، فقام غلام من
 الأنصار - وكان حاضراً - فذكر انه ابن رجل شهد بيعة العقبة
 وشهد بدرًا وأحداً ، فقال عمر : هذه المكارم لا ما تعدّه ايها
 الشيخ منذ اليوم ، وقضى حاجة الفتى دون حاجة الشيخ ^{٣٦٨}



بن عمر بن عبد العزيز ما كان يسره ألا يختلف آل محمد في
 آرائهم وفقههم ، فقد رأى من وراء الخلاف في الرأي والفقه خيراً ،
 ولو لم يختلفوا فيما بينهم لكانت الامور كلها عزائم ولم تكن لهم
 رخصة تخفف عنهم . أما ما عدا ذلك فقد بالغ عمر في اطفاء الفتن
 بين الناس . وقد سئل عما يقوله فيما شجر بين الصدر الاول وعن
 قتال اهل صفين فقال : تلك دماء طهر الله يدي منها ، أفلا
 أطهر منها لساني ؟ أمثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أمثل العيون ، ودواء العيون تركٌ ^{٣٦٩} .

(٣٦٨) دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف النهر
 للسالك إلى البصرة ، والشيخ يشير إلى اشتراكه في الواقعة التي كانت بين الحجاج
 الثقفي وعبد الرحمن بن الأشعث وقتل فيها الفراء - معجم البلدان ج ٤ ص

١٣١

(٣٦٩) الانصاف ص ٦٠ - الواثق ج ٤ ص ٣٢٠

وهكذا مضى عمر يؤلف بين الأحزاب ويطفىء ثائرة
 الشيعة والعلوية ، ويؤدب الخوارج ، ثم أخذ يبيت
 عصبية الجاهلية التي استيقظت بين اليمنية والمصرية ٣٧٠ .
 وفي ظل هذه السكينة التي نزلت القلوب في مدته بدأت دعوة
 بني العباس ، فوجده محمد بن علي بن عباس دعائه إلى الآفاق ٣٧١ .

قصة فداءك

وفدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة ، وفيها
 عين فوارة ونخل كثيرة ، أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحاً ،
 وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم
 يبق إلا الثلث ، أو كان حاز كل شيء إلا حصنين يقال لهما الرطيح
 والسلام ، فلما أيقنوا بالهلكة ٣٧٢ واشتد الحصار راسلوا النبي
 يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وحقن الدماء ، وفعل ، وبلغ ذلك
 أهل فدك فأرسلوا إلى النبي أن يصالحهم على النصف من ثمارهم
 وأموالهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وبعث إليهم محبصة بن مسعود
 فنزلوا على ما نزل عليه أهل خيبر ، على أن يصونهم ويحقن دماءهم ،
 فأقرهم رسول الله على مثل معاملة أهل خيبر ٣٧٣ ، وقسم رسول
 الله أرض بني النضير وأرض بني قريظة ولم يقسم فدك ٣٧٤

(٣٧٠) المرشد ج ٤ ص ١٢٨

(٣٧١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٥

(٣٧٢) الخراج للقرشي ص ٤٣

(٣٧٣) الخراج لابن يوسف ص ٥١

(٣٧٤) الخراج للقرشي ص ٤١

وما كانت فذك بما لم يوجف عليه بخيل ولا ركب ، فقد
صارت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق ما يأتيه منها
على اهله ثم ينفق ما تبقى في أبناء السبيل .

ثم قيل ان فاطمة الزهراء سألتها أباها فأبى وقيل بل رضي
فأعطاهما ، فلما قبض صلى الله عليه وسلم اختلف على فذك رأي فاطمة
ورأي أبي بكر ، ولعل أبا بكر ابقاها بيده حتى اذا احتاج اليها
المسلمون - وكانوا في مبدأ أمرهم وضيق ذات ايديهم - وجد ما
يعينه . ومع ان ذلك العمل من أبي بكر لم يرض فاطمة فقد
صارت فذك في أيدي الخلفاء يتولون امرها ٣٧٥ .

وقد أدّى اجتهاد عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة وفتحت
الفتوح واتسعت على المسلمين أن يردّها إلى ورثة الرسول فكانت
علي والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، وكانا يتخاصمان إلى
عمر فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتم أعرف بشأنكما .

ثم صارت فذك الى مروان بن الحكم قد وهبها له معاوية ، ثم
وهبها مروان لولديه عبد الملك وعبد العزيز ، ثم صارت اثلاثاً بين
عمر بن عبد العزيز والوليد وسليمان ، فلما ولي الوليد أعطى نصيبه
منها لعمر . فلما ولي عمر الخلافة كتب الى عامله بالمدينة يأمره برد
فذك الى ولد فاطمة عليها السلام ، فكانت في ايديهم في مدة عمر
ابن عبد العزيز ... ثم صارت تنتقل منهم واليهم كما شاء الولاية ٢٧٦

(٣٧٥) فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٥٨ نقلا عن شرح أبي الحديد على

نهج البلاغة - ابن الجوزي ص ١٠٩ ، ١١٠

(٣٧٦) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٤٣

وقيل لم يردها الى ولد فاطمة وانما ردها الى بيت المال ، قال عمر :
وما كان لي مال أحب إلي منها ! وانا أشهدكم اني قد رددتها الى ما
كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^{٣٧٧} وأبي بكر
وعمر وعثمان ثم كتب الى والي المدينة : فاقبضها وولتها رجلاً يقوم
فيها بالحق ، وسلام عليك^{٣٧٨}

علوم الدين

كان عمر يفسر غريب القرآن ويروي الحديث ويتفقه ، ويعنى
بما تعلق من الفقه بالزهادة والعدل والنصح للناس ، ثم في شتى
الأخبار والعبادات . وقد كتب الى ابي بكر بن حزم ان يجمع
الحديث ويكتبه مخافة ان يدرس العلم ويذهب العلماء ، كما كتب
الى اهل الآفاق ان ينظروا الى الحديث ويجمعه . وحمل علم القرآن
والفقه في عهده الى أقصى الشرق وأقصى الغرب ، وكانت اول نهضة
بمغرب افريقية بين البربر المسلمين . ولم يهتم أحد من خلفاء بني أمية
بالتشريع والفقه كما اهتم بها عمر . وقد كان رقي الفقه والنشريع
قبل عمر في حلقات الدروس المستقلة عن الخلفاء^{٣٧٩}

ورأى عمر العلم الحق ما دعا الى القناعة وصد صاحب به عن الطمع
وكان يقول : تعلموا العلم فانه زين للعني وعون للفقير ، لا اقول
انه يطلب به ولكنه يدعو الى القناعة . ولم ير احداً في غنى عن العلم
فكان يقول : إن استطعت فكن عالماً ، فان لم تستطع فكن

(٣٧٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥ ؛

(٣٧٨) ابن الجوزي ص ١١٠

(٣٧٩) فجر الاسلام ص ٢٢١ — ٢٤٨

متعلماً ، فإن لم تستطع فاحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم ٣٨٠
 واول أمره كان يدرس شريف العلم : هذا الذي هو حول
 القرآن والحديث والفقه . ثم ادرك انه على اضطرار لما يتعلم
 اكثر مما تعلم . لم يكن يدري غير هذا العلم الشريف بين جدران
 المساجد والمجالس حيث ينقطع عن جمهور الناس ، فلما صار والياً
 وخليفة عرف ان ذلك العلم لا يكفي ، وعلم ان مصاحبة سراة
 الناس لا تغني عن رعايهم ، وان شريف العلم لا يغني عن سفاسفه ،
 فجعل يقول : كنت اصحب من الناس سرائهم ، واطلب من العلم
 شريفه ، فلما صار لي امر الناس احتجت الى ان اعلم سفاسف العلم ،
 فتعلموا من العلم جيده وورديته وسفاسفه .

واهتم عمر بنشر العلم فكتب الى اهله ان ينشروه في مساجدهم
 فان السنة كانت قد أميتت . وخطب ذات مرة فقال : ايها الناس ،
 انما يراد الطبيب الوجع الشديد ، الا فلا وجع اشد من الجهل ،
 ولا داء اخبث من الذنوب ، ولا خوف اخوف من الموت ٣٨١
 وكانت دفعة عظيمة في رسوخ اصول العلم حين خاف عمر
 غائلة النسيان فأوصى ان يقيد العلم بالكتابة مخافة الضياع ، ولذلك
 قيل انه اول من دون الحديث .

عنوم الدنيا

وكما اهتم عمر بعلوم الدين اهتم بعلوم الدنيا ولا سيما الطب
 لحاجة الناس اليه في اول معاشهم . وليس يخفف عن الناس اعباء

(٣٨٠) ابن عبد الحكم ص ١٣٧ ، ١٧٩

(٣٨١) ابن الجوزي ص ٩-٩٣-٢٠٧-٢٣٩

الحياة لا اذا سعدوا بالعدل وتنوروا بالعلم في صحة ابدان وسلامة
 ايمان ، وكذلك كان عمر بن عبد العزيز اول من حارب فقر الناس
 وجهلهم وأمراضهم ، وحاربها بقوة في مختلف بلاد المسلمين .
 وكان عبد الملك بن أبجر او ابن بجر الكناني طبيباً عالمًا ماهراً ،
 وكان يتولى تدريس الطب بمدينة الاسكندرية ، وصحبه عمر في
 شبابه واستطبعه . وقد تأثر ابن ابجر بعمر فأسلم على يديه ، فلما صار
 عمر خليفة استعان صاحبه واعتمد عليه في تفريق علم الطب
 وتدريسه بانطاكية وحرّان وغيرهما من البلدان ، فانتقلت بذلك
 صناعة الطب اليوناني الى بلدان المسلمين وكانت لم تزل قوية زاهرة
 في الاسكندرية ٣٨٢

وقد أمر عمر باخراج كتاب في الطب ، أخرج به « مناسرجويه »
 الطبيب البصري الاسرائيلي ، أخرج به للناس وبثه في ايديهم ٣٨٣
 العلماء والمعلمون

وكرم عمر العلماء ومجث عنهم في كل موطن ، وجعلهم سنده
 واعوانه في مجلسه وعلى عماله وقضاته ، وارسل قوماً كثيراً منهم
 لنشر الاسلام والعلم ، وجعل لمن انقطع الى القرآن والحديث
 نصيباً من بيت المال ، وفرض لمن نصبوا انفسهم للفقه وحبسوها
 في المساجد عن طلب الدنيا - لكل منهم مائة دينار قبضاً عاجلاً ،
 وقد كتب الى والي حمص ليغني اهل القرآن والحديث فلا

(٣٨٢) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٦٤ - تاريخ العرب

المحول ص ٣٢٥

(٣٨٣) فجر الاسلام ص ١٦٣

يشغون عنهما .

وأجرى عمر على المعلمين الأرزاق والأجور ، وكان فيمن أرسله لتعليم يزيد بن حبيب أرسله عمر إلى مصر قاضياً ومعلماً^{٣٨٤} وفيمن أرسله لتفقيه البدو يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث ابن سجد الأشعري ، وأجرى عليهما رزقاً ، فأما يزيد فقبل الأجر والرزق ، وأما الحارث فأبى أن يقبل على عمله أجراً ، وكتب إلى عمر ببائئه ، فكتب عمر : إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن سجد .

وفتح الضحاك بن مزاحم في عهده كتاباً للتعليم دون أن يتقاضى على تعليم الناس أجراً .

وأشدق عمر على عماله وقضائه ومعلميه حين ضيق على نفسه وولده ، فدخل عليه ابن أبي زكريا فقال له : يا أمير المؤمنين ، اني أريد أن اكلمك بشيء ، قال : قل . قال : قد بلغني أنك توزق العامل من عمالك ثلثائه دينار ، قال : نعم ، قال : ولم ذلك ؟ قال : أردت أن اغنيهم عن الحيانة ، فقال : فأنت يا أمير المؤمنين أولى بذلك ؟ فأخرج عمر ذراعه من ثيابه وقال : يا ابن أبي زكريا ، ان هذا نبت من مال الفيء ، ولست معيداً اليه منه شيئاً أبداً . ولم يكن هذا غاية أجر العامل عنده ، بل كان يرتفع عن ذلك كثيراً حتى يبلغ ألف ألف درهم في العام^{٣٨٥}

(٣٨٤) الطبقات ج ٦ ص ٢١٠ - تاريخ العرب المطول ص ٣٢٣

(٣٨٥) ابن الجوزي ص ٧٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ - ابن عبد الحكم ص ٤٣ -

الكامل للبرد ج ١ ص ٢٦٨

المعلم ومنهجا الدراسة

وكما عني عمر بتعليم اولاده اختار لهم المؤدب الصالح ، واختاره بعد العلم به والثقة فيه ، ولم يدعه دون ان يزوده بنصيحه ، ويثبته برأيه وخبرته . وحين اختار سهلاً مولاه لتأديب ولده قائل له : اني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي ، فصرفتهم إليكَ عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي .

ثم رسم له طريق التأديب ومنهجا الدراسة ، فطلب اليه ان يجفو في كلامهم حتى يكون ذلك أمعن لاقبالهم ، وطلب اليه ألا يصحبهم كثيراً لتظل له مكانته ، وطلب اليه أن ينهأهم عن كثرة الضحك حتى لا تموت قلوبهم ، وان يبعث إليهم الملاهي فان حضور المعازف واستماع الاغاني والالهي بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء . وهو أمر حق فمتى استرسل الانسان للشهوة وانقاد للهوى ولم يؤدب نفسه كان في مسلاخ البهيمة ، وخرج به مزاجه عن الاعتدال وجمحت به نفسه الى أقبح مذهب واستوأ طريقة . ومن شأن المضحك ان يتطلب اموراً معدولة عن جهاتها ليستدعي بذلك تعجب السامع وضحكه ، وهو النفاق .

وأما منهجا الدراسة فقد طلب اليه ان يفتتحوا كل يوم بجزء من القرآن يتثبتون في قراءته ، ثم يتناولوا بقية العلم ، حتى اذا شرغوا تناولوا القسي والسهام وخرجوا الى الغرض حفاة فرموا به سبعة أرشاق وانصرفوا الى القيلولة ليستريحوا . ٢٨٦

وكان هذا منهجاً جيداً يجمع بنيه على الدين والدنيا ، ويرواح بين البدن والروح والقول والعمل . وكان كلام عمر

(٣٨٦) ابن الجوزي ص ٢٥٧

في الغناء واللهج به كلام العليم الخبير .

واختار عمر المعلم لدينه وعلو نفسه ثم لفقهه ورأيه وجوده وكرمه وكثرة معرفته ، ولم يفرق بين معلم عربي وآخر عجمي ، ولا من كان أصله حراً وأصله عبداً . وقد صارت في يده طبقة من مؤلفيه كثير عددها وذاع فضله ، فاختار منهم رجالاً الباء وأرسلهم لأقصى البلدان ، فاستوطن كثير منهم البلاد التي هجروا اليها ، وماتوا بها ، واعتقبوا بها ذرية صارت من أهلها .

الزكاة

لم تكن همة عمر بعد ردة المظالم الا القسم في الناس ٣٨٧ . أما الأغنياء فحين رأوه مهتما بهذا القسم فقد تسارعوا من انفسهم يؤدون الزكاة والصدقات ، وجاءوا العمال بقطع كبيرة من أموالهم ليجعلوها في الفقراء حيث يرون . وزكاة الفطر التي هي في ضمانه الناس انفسهم تسارعوا بها كذلك .

ومنذ جاء الأغنياء بهذه الزكاة انفقت في وجوها من غير بطة ، فانه لا نفع من زكاة ما لم تصل الى ايدي الناس في حينها حتى يسدوا حاجاتهم وشيئكم . ولم يكن للعمال اذا تولوا قسمها ان يبطئوا ، فاذا فعلوا اسرع اليهم عمر يحشهم على الاسراع . وقد جاء احد العمال في عيد فطر من هذه الزكاة شيء كثير فحبسها حتى يرى رأي عمر فيها ، فكتب اليه عمر يقول : لعمرى ، ما وجدوني واياك على ما ظنوا ! وما حبسك اياها الى اليوم ؟ فاخرجها حين تنظر في كتابي . وألزم عمر العمال أن يأمروا من قبلتهم من الناس فلا يبقى أحد إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان ، لا يعفى منها حر ولا

(٣٨٧) الخراج لابي يوسف ص ١٦

عبد ولا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا انثى ، مدّين من قمح او صاعاً من تمر أو قيمة ذلك نصف درهم - حسب رضاء الأسعار في مدته - فاما اهل العطاء ٣٨٨ فيؤخذ ذلك من اعطياتهم عن أنفسهم وعماليتهم .

وكن يقوم على كل قوم من الأغنياء رجالان من اهل الامانة ينصبهما العامل ، يقبضان ما اجتمع من الزكاة ثم يذهبان به فيقتسمانه في مساكن اهل الحاضرة . اما البادية فكانت في غنى ولم يشع التمر في اهلها كما شاع في المدن التي ازدحم فيها الناس . وكثيراً ما كان يذهب العامل على الصدقات أو البلد الى احياء المدن والقرى ثم يأخذ من الأغنياء صدقاتهم ، ويجمع فقراء الحي ويقسم بينهم من فوره . وعادت هذه الشدة في اخراج الزكاة والسرعة في قسمها وجودة المراقبة - عاد كل اولئك على الناس بالغنى والميسرة ، بل استغنى كثير من الناس من أول قسم حدث لهم في مدة عمر بن عبد العزيز ، فعفوا حين استغنوا ، وكان الفقير الواحد يصيب الفريضة والفريضة والثلث ، فما يفارق احد مكانه وهو فقير . حتى اذا جاء العام القادم ونودي على الفقراء لم يوجدوا .

حدث يحيى بن سعيد قال : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقترضتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها ، قد اغنى عمر الناس ، فاشتريت رقاباً فأعنتهم وولأوهم المسلمين .

(٣٨٨) اهل العطاء : الموظفون ومعنى ذلك ان زكاة فطرتهم تستقطع من اجورهم .

وحدث رجل من ولد زيد بن الخطاب فقال : انه وني عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا عذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله ، قد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس (٣٨٩) . وقد اغنت زكاة الفطر وحدها فقراء المسلمين .

الدعوة الى الاسلام

ولم يكن احب الى عمر من ان يعم الاسلام بقاع الارض وان يهتدي به الناس ، مهما اصاب بيت المال من النقص والخسارة . وكان ملحاً يطلب الى عماله ان يدعوا اهل الذمة الى الاسلام فاذا اسلموا وشكا العمال اليه نضوب البيوت الاموال كتب اليهم يلومهم على الشكوى . وقد كتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن يقول له : كتبت اليّ تسألني عن اناس من اهل الخيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة ، تستأذني في اخذ الجزية منهم ، وان الله جل ثناؤه بعث محمد داعياً ولم يبعثه جابياً ، فمن اسلم من اهل تلك الملل فعليه في مال الصدقة ، ولا جزية عليه ، وميراثه لذوي رحمه اذا كان منهم ، يتوارثون كما يتوارث اهل الاسلام ، وان لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بينهم ، وما احدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام ٣٩٠

(٣٨٩) ابن الجوزي ص ٨٥ . ٨٧ - ابن عبد الحكم ص ٦٩ ، ١٢٨

العند القريدج ٤ ص ٤٣٦

(٣٩٠) الخراج لأبي يوسف ص ١٣١

وكتب عدي بن أرطاة الى عمر : اما بعد فان الناس قد كثروا
في الاسلام ، وخفت ان يقل الخراج . فكتب اليه : فهمت كتابك ،
والله لو ددت ان الناس كلهم اسلموا حتى نكون انا وانت حراطين
نأكل من كسب ايدينا .

وقد اخذ خراج مصر ينقص في عهده لأقبال القبط على الاسلام ،
وكان خراجها في عهد عثمان اثني عشر ألف ألف دينار وفي عهد
معاوية خمسة آلاف ألف ، ثم نقص في مدة عمر ، فاقترح واني مصر
عليه الا يعفي الداخلين في الاسلام من المصريين من الجزية ، فأبى
عمر وارسل اليه يقول له قولته المشهورة : ان الله بعث محمدا هاديا
ولم يبعثه جابيا .

انه لا جزية عنده على من اسلم من اهل الارض ، وما اجذب
من العامر من الخراج يؤخذ في رفق وتسكين لاهل الأرض ٣٩١
وارسل عمر عشرة من التابعين كافر اس الرهان ليفقهوا اهل
افريقية ويعلموهم دينهم ويحثوهم على الجهاد في سبيل الله ، فاذا
طلبهم الجهاد جاهدوا بانفسهم . فكل منهم مثل وقادة ، ويتولون
مع ما ركل اليهم امور القضاء والفتوى ، وقد حملوا معهم الى المغرب
علماء كثيرأ .

وكان هناك جماعة من البربر اسلموا من قبل على يد موسى بن
نصير ، وتعلموا القرآن والفقه من العرب الذين كانوا مع موسى ،
فالما تولى افريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة مائة ،
وكان على حربها وخراجها وصدقاتها ، وكان حسن السيرة فيهم

(٣٩١) ابن الجوزي ص ١٠٠ - الدعوة الى الاسلام ص ٩٣ - خراج
لأبي يوسف ص ٨٦

أسلم البربر جميعاً ولم يبق أحد منهم الا أسلم (٣٩٢)

أما العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا البربر فقد ألفهم من القبائل حتى يكون لكل منهم صوت في ناحية من الناس . كان منهم اثنان من معافر ، وواحد من نجيب ، ومن كل من مخزوم وجذام وتنوخ وبني عبد الدار والانصار واحد ، ولم يكونوا جميعاً من العرب ومن الاحرار ، وانما كان من الموالي واحد ومن الفرس واحد . وألفهم عمر كذلك حتى يتفرقوا على جميع الناس ، وقد نسل معظم هؤلاء من القبائل التي نزلت بصر في أول الفتح . عبد الله بن يزيد وموهب بن حي من معافر ، وسعد بن مسعود من نجيب . وابن أبي المهاجر القرشي من مخزوم ، وأبو ثمامة بكر ابن سودة من جذام ، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع من تنوخ ، وإسماعيل بن عبيد من الانصار . أما يمثل الموالي فكان حيان بن أبي جبلة ، ويمثل الفرس فكان طلق بن جابان . وعاشرهم أبو سعيد جعفل .

وقد هاجر إلى الله من هؤلاء هجرتين رجلان ، هاجرا إلى العلم والتعليم ، فلما أديا ما عليهما حضرتها نية الجهاد فهاجرا إليه محاربين فغرقا في البحر ، هما أبو ثمامة الجذامي وابن عبيد الانصاري . وكان يسمى تاجر الله لكثرة ما حمل من علم وفقه وما فعل من صدقة وعرفة .

وكان سعد بن مسعود التجيبي معلم علماء لا تأخذه في الله

(٢٩٢) فتوح مصر واخبارها ص ٢١٣ - ابن الانير ج ٥ ص ١٠ -

الدعوة إلى الاسلام ص ٢٦٦ ، ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٩٣

ملامة ، ولا تغشاه من مالك مهابة . ارسل اليه الريان بن عبد العزيز ذات مرة يدعوه الى داره من جامع الفسطاط فابى ان يذهب وقال لرسول الريان : ليس لي اليه حاجة فأتي له ، فإن تلك له حاجة فنيأت بها . وبلغ ذلك الريان فجاءه مغضباً فلما عاتبه قال له : أصلح الله الأمير ! دعوتني الى ما يشينني ودعوتك الى ما يزينك ! فقال له : فكيف ذلك ؟ قال : إنه من رآك ماشياً الى مدحك وقال ذاك طالب علم وخير ، ومن رآني ماشياً اليك رآني طالباً حطاماً وعرضاً من أعراض الدنيا فشانني ! فقال الريان : سلمت والله ما كان بقلبي ونورته ، نور الله قلبك وعلمك ٣٩٣

•

وكان حتماً مقضياً ان تدخل افواج من الناس في دين الغزاة الفاتحين متى عاملوا الناس بالحسنى ، وكذلك استجاب كثير من امراء السند لدعوة عمر حين دعاهم الى اعتناق الاسلام وتسموا باسماء العرب ٣٩٤ ، واسلم ملك الهند نفسه سنة تسع وتسعين ، وأهدى الى عمر هدية من المسك والعنبر والند والكاפור ٣٩٥ . وفيما وراء نهر السند دان كثير من الناس بالاسلام تلبية لدعوة عمر . واجتهد الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان في الدعوة واخلص لها فأقبل على الاسلام نحو من اربعة آلاف . ثم كتب اليه عمر : انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية ، فسارع الناس

(٣٩٣) رياض النفوس ج ١ ص ٦٤ - ٦٨

(٣٩٤) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٧ - الدعوة الى الاسلام ص

٢٣٢

(٣٩٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٠

الى الاسلام^{٣٩٦} . وبلغت الرغبة من عمر في الدعوة ان أرسى الى
«لاون الثالث» ملك الروم يدعو به الى الاسلام .



وكانما عاد في مدته حق المؤلفه قلوبهم بعد ان منعه عمر بن
الخطاب ، فكان ذلك سبباً الى الاقبال على الدين في حركة منظمة
ملؤها الحماسة في نشر الدعوة وقبولها . ورأت الشعوب المختلفة من
الخليفة وعماله ضروباً من الاغراء والتجيب ، حتى إن عمر لم يأل
جهداً في الهبات لتأليف القلوب حتى انهم ليقولون إنه أعطى
بطريقاً نصرانياً يتألفه بالعطاء الف دينار .

ومع أن المسلمين حديثاً لم يكونوا يُعَفِّسُونَ من ضريبة العشر
فقد لقي عمر بن عبد العزيز نجاحاً رائعاً في اتمام ما قام به جده عمر
ابن الخطاب ، فبادرت جموع هائلة الى الدخول في زمرة المسلمين^{٣٩٧} .
وكان الاعفاء من الجزية وابقاء الارض في يد اهل الذمة
ومعاملتهم بالحسنى - كل اولئك كانت عوامل دافعة الى الدخول
في دين الله افواجاً^{٣٩٨} .

واستطرد بما عمل عمر اتساع رقعة الارض التي ينتشر فيها
الاسلام ، واستمر الصلاح يتسرب الى الأمة الاسلامية ، واتخذ
العلم الديني والديني سبيله الى الانتشار وسُلِّمَ الى الارتقاء .
وسلِّمت الأمة من داخلها واستعدت نواتها للبقاء اذا لم 'ترو' من ظمأ
وتنتعش في نور ، ولارقي والنماء إذا خصب لها الزمان وعمت العداة
وانطلقت انفاس الحرية وأشعة الضياء .

(٣٩٦) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٤

(٣٩٧) الدعوة الى الاسلام ص ٧٦ .

(٣٩٨) تاريخ العرب المطول ٢٧٥

دير سمعان

رباربات سمعان

في شتى بلاد الشام أديرة كثيرة متفرقة يسمى كل منها دير سمعان :
في ظاهر انطاكية واحد ، وفي اعمال المعرة ار حمص واحد يقال
انه كان بين جبل 'عليم والجبل الاعلى ، وفي جبل لبنات واحد ،
وقيل ان بالغوطة واحداً^{٣٩٩} ولكن العمري انكر ان يكون
بالغوطة دير يقال له دير سمعان وقال انه لم يسمع بدمشق لهذا الدير
ذاتة ، ولم يعرف لمكانه في غوطتها خضراء ولا يابسة .^{٤٠٠}

رقد نبهت هذه الاديار كلها لان واحداً منها نُسب ذكره ونُسب
شأنه ، هو دير المعرة او دير حمص ، كان منذ اقدم الازمنة مرعياً
مزوراً ، وقد انعطف عليه في عصر بني امية جرير بن عطية الشاعر
الاموي ، وكان انعطافه اليه في يوم عيد ، فلما رأى اهله وتقليدهم
فيه انشد في الدير شيئاً من شعره ، ولكن الدير ظل انبه من شعر

(٣٩٩) معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٩ — غوطة دمشق ص ٢٣٩

(٤٠٠) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

جرير وأذهب منه في صيت الزمن ، وحتى بعد ان مسته يد العفاء
فخرب بنيانه ونسي مكانه ، فقد ظل الدير عالي الصوت في التاريخ ،
ولم تطغ على شرفه ومنهته اخواته الاخرى وان كانت لم تزل باقية
المعالم مخطوطة البناء .

كان من اعظم الشرف الذي أصاب هذا الدير ان عمر بن
عبد العزيز الخليفة الخامس الراشد ، مرض به مرضاً مروعاً ثم دفن
في أرضه ، وبقي قبره بهام معلماً مشهوراً حين امتدت يد التدمير الى
قبور الملوك والخلفاء من اهله ، وظل واضحاً معروفاً على بيّنة من
الطريق حتى أتى الزمان على الخير فمجاه كاه ، وحين طغى الجهل
فشمل هذا الشرق العربي ولف ارجاءه في شملته ، وحين زحفت
جيوش المغيرين فطمست في طريقها المعالم ومحت المنابر ، وتاه القبر
والدير عن عيون أهل الحاضرة والبدو ، ونسوا أنهم كانوا يفقدون
عليه أزماناً طويلة يعظمونه لمدفن عمر به ، من أصابه خير منه في
حياته ومن لم يصبه ٤٠١

وقد وقف به وهو معلم مشهور أحد بني خزاعة يرثي عمريقول :
أما القبور فانهم أناس بجوار قبور والديار قبور
جلت رزيتهم فعم مصابه فالناس فيه كلهم مأجور
ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور
والناس مأثمهم عليه واحد في كل دار رنة وزفير
يشي عليه لسان من لم توله خيراً لأنك بالثناء جدير ٤٠٢

(٤٠١) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩

(٤٠٢) الكامل للبرد ج ٢ ص ٢٦٧

مخافة الموت

كانت مخافة الموت قد هيمنت على عمر بن عبد العزيز حتى شملته كله وغمرت قلبه وعقله ، غمرته مذ كان صبياً صغيراً ، فجعل يبكي كلما لاح له فاعترضته المخافة . وبلغ أمته يوماً أنه بكى ، ولم يكن بكاؤه من شيء أساءه ، وقد جمع القرآن في صدره ، والقرآن يشفي كل صدر من حزنه ، فأرسلت إليه تسأله عن سبب بكائه ، فأرسل إليها يقول : قد ذكرت الموت ! فلما جاءها الرسول برده بكت هي أشدّ مما بكى ابنها ، بكت لأنها ذكرت الموت ، وبكت لأن ابنها يفكر وهو صغير في زحفة الزوال ٤٠٣

وجعلت دائرة المخافة تكبر في نفسه وتتسع كلما شب وأينع ، وهي حال لا تسير الى جانب النعمة والشباب في كل الناس ، ولكن الأمرين المختلفين سارا معاً في عمر وهما متقاربان او بمتزجان . بل ان مخافة الموت كانت تفعل وتضخم كلما تمكّن عمر من الدنيا وقبض على متاعه منها ، ولم يعد لفكرة أخرى أن تحل مكانها في موطن قلبه وعقله أو تزيجها لتستقر قليلاً ثم تروح .

ولعل الأحداث التي جرت حوله في الحجاز وهو صبي ، وفي مصر والشام وهو غلام ، كان لها ذلك القهر على نفسه ، فقهر بها أكثر بما قهر بأقوال الفقهاء ونصائح الوعاظ والزهاد الذين أحاطوا به كحلقه الحديد حين حباً وحين درج وحين شب ثم صار رجلاً . وقد قضى أمام عينيه من الخلفاء عبد الملك والوليد وسليمان وواراهم التواب بيده . ومع أنه كان يكره الوليد فإن موته كان له عظة

(٤٠٢) ابن الجوزي ص ٩

وكان كثيراً ما يخلو لنفسه ويبكي فيسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول :
أبعد الثلاثة الذين وارىتهم بيدي : عبد الملك والوليد وسليمان !
وقضى امام عينيه سهل^{٤٠٤} أخوه ومزاحم مولاه وعبد الملك ابنه
ولم تكسر الرزايا طبعه . وأصلب الطباع ينكسر ولو مرة واحدة
وقد يلزمه الانخزال والانكسار . ولكن مصائب المنايا زادت
نفس عمر ايماناً بالموت وحجاً فيه واصراراً على طلبه^{٤٠٤} ،

وقد اقترنت مخافة الموت في نفسه بايمان خالص بقرب البعث
كانما قنطرة القبر نومة ليلة ثم يفيق على جنة أو نار ، وكما أخبر
الاسلام بالعقاب والمثوبة باتت نفس عمر على رهبة أخرى هي أشد
هولاً من رهبة الموت في نفوس من يفكرون في الموت وحده
دون أن يؤمنوا ببعث أو حساب .

وكذلك صارت للموت رنة صارخة في جوفه وهزة راجفة على
بدنه . فاذا ذكر لفظ الموت على سمعه ، أو حانت منه حومة على
خاطره ارتجفت اعضاؤه واضطربت أوصاله . ولم يكن قد بقي
في زمانه راهب يرهب الموت مثله الا واحد ، هو الحسن البصري
كان يرتجف منه مثل رجفته ، حتى قال يزيد بن حوشب : ما
رأيت اخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز للموت ، كأن النار
لم تخلق الا لها^{٤٠٥} .

ولما وطئن عمر نفسه للموت قبل ملاقاته سهل عليه ان ينفذ
عنه غبار الشهوة ، ثم لم يلبث حين تدرب على احتمال الشدائد ان
ضحى بذات نفسه لاسعاد الناس وردّ حقوقهم واكثر منها ، فاتخذ

(٤٠٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

(٤٠٥) ابن الجوزي ص ١٨٣ ، ١٩١

لنفسه جسراً من السعادة لا يهنا في السير عليه إلا كل صبار. ولقد استولى الايمان عليه مستيقظاً وناثماً يقول له : اثبت على ما انت عليه ! ولم يصبح نزول القبر عنده الا زيارة يخفف الميت بعدها وشيكاً الى داره التي ينزل بها من جنة او نار.

ولما خلع عمر من نفسه حب العاجلة واقتلع الطبع المبذور في طبيعتها ، وأقصى عنها لذات البدن واستراحاته إنقاد لنفسه الناطقة حين قويت وتقبل تأديبها بالدين والآداب وصمم على ان يخط طريقه الى الجنة ، وبينها وبين المرء عقبة مزرسة كثود لا يجوزها الا الضامر المهزول .

ولم يكن شيء يغير من لون عمر ويهد من قوته ويكسر من عذوانه اكثر من رؤيته القبور ومروره عليها . وقد حدث ميمون ابن مهران انه خرج معه الى المقبرة ، فلما نظر الى القبور بكى ، ثم أقبل على ميمون فقال له : يا أبا ايوب ، هذه قبور آبائي من بني امية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ! اما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلاث واستحكم فيهم البلى ، واصابت الهوام في أبدانهم مقبلاً ! ثم بكى وأطال ، فلما افاق قال لميمون : انطلق بنا ، فوالله ما أعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وأصغى عمر بسمعه وقلبه لا قوال الوعاظ في الموت : دخل عليه الرقاشي يوماً فقال له : عظمي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انت اول خليفة يموت ! قال : زدني . قال : ليس بين الجنة والنار منزلة ! وأما هو فقد صار أول وعاظ الموت في زمانه ، وكان كثيراً ما يتمثل

بقول القائل :

من كان حين تطلع الشمس جبهته أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فسوف يسكن يومار اغماجدثا^{٤٠٦} .
ومما وعظ به في خطبة له قوله : أيها الناس ، إنما الدنيا أجل
مخترم وأمل منتقص ، وبلاغ الى دار غيرها ، وسير الى الموت ليس
فيه تعريج ، فرحم الله امرأاً فكر في امره ونصح لنفسه وراقب
ربه واستقال ذنبه ونور قلبه . أيها الناس ، قد علمتم أن اباكم قد
خرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن
أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل^{٤٠٧} .

ولقد ظل عمر يبكي مخافة الموت حتى صار البكاء طابعاً له فبكي
من غير سبب^{٤٠٨} . ولما سئلت فاطمة بنت عبد الملك عن عبادته
قالت : والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياماً ،
ولكن والله ما رأيت أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله في
فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول :
ليصبحن الناس ولا خليفة لهم !^{٤٠٩}

النفوس الترافة

وكان من خير الناس - ولو في مدة واحدة قد مرت كما يمر
الطيف - أن تصيب مخافة الموت نفس واحد منهم يتولى شئونهم ،
من حيث لم ترده المخافة إلا خفة لنجدتهم ، فلم يبطلوا عن الاجتهاد

(٤٠٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٧٥

(٤٠٧) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٣١٧

(٤٠٨) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٨

(٤٠٩) ابن عبد الحكم ص ٤٧

لهم ، ولم تقعهده المهابة عن أن يعمل لخيرهم مع نفسه أو قبلها كما أقعدت غيره من الزهاد الذين لم تلتق عليهم مسئولية الناس ورعاية العباد .

وقد خلا الزهاد إلى أنفسهم في خلواتهم للخوف والعبادة . أما عمر فقد اقتحم ولم يفر كما فر معاوية الثاني حين ولّوه الخلافة وأدرك أنه ليس صاحب الأمر . ومضى عمر يحمل العبء ويضيف على كاهله الاثقال حتى لا ينجو ، وكلما انحط عنه واجب تأقت نفسه إلى واجب .

وهفت نفسه إلى الولاية حتى يكون أقدر على العمل وأمكن من النفع . فلما كان والياً على المدينة تأقت نفسه إلى الخلافة - ولم يكن يدري أنها قدرته له - فلما تولّاها تأقت نفسه إلى الجنة . ولم يكن توق أمان باطلا لا يتقدم العمل الصالح بين يديها ، بل عمل جهده وأنفد اضطباره حتى لم يصر أحداً أولى بها منه ، وعمل للخلافة حتى لم يبق من يتناول لها غيره ، وعمل للجنة حتى 'ظن' الحساب أنه قد سقط عنه .

ولم يصدأ خاطر عمر أو يخمد شعوره مهما طال به الشجن ، كما يبلد شعور الملوك والرؤساء حين يصيرون إلى الملك والرياسة فيظنون أنهم بلغوا الغاية فيهمكون في ملذاتهم وكأنهم آمنوا بمكر الدنيا جملاً منهم وغروراً ، ولكنه استمر لامعاً متدفق الحياة تواقاً إلى المعالي عاملاً لها ، وقد أقر هو على توق نفسه ودل على طموحها حين قال : ان لي نفساً ذواقة تواق ، كلما ذاقت شيئاً تأقت إلى ما فوقه ، ولقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم

تاقت نفسي إلى العلم بالعربية فالشعر فأصبت منه حاجتي ، ثم تاقت نفسي إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت إلى الإمارة فوليتها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها ، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها تاقت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة ١٠

بغاء الروح

واستبصر عمر فرأى حياته - وإن انقطعت في الدنيا - لا محالة مفضية إلى وجود سرمدي ، فليست في الموت نهاية المخلوق ، وإنما هي نقلة من حياة إلى حياة - كما صور الاسلام - فهو مخلوق للأبد مصنوع للخلد ، ولكن من دار إلى دار ينتقل . وليس بالجسد يخلد الانسان ، وليس للجسد أن يكرم أكثر من الوقت الذي تنتثر فيه عظامه وينتهك عنها اللحم وتنفك العروق . فالشيود التي يشيدها الناس لقبورهم في الأرض ، والمعالم التي ينصبونها شواهد تدل وتشهد ، لم تكن في رأي عمر إلا وهماً باطلاً وظلاً حائلاً . فليس سوى عام واحد تبقى الجنة ثم يجب أن تحرث الأرض وتسوى لينتفع الناس بالأرض ، وحتى لا يعلق الزهو بالنفوس ويتشبث الناس بالدنيا فيخافوا أن يزولوا .

محبة الأرض

وكان عمر - من كثرة ما مثل امامه الموت - كلما نزل أرضاً يظن أن الموت ملاقيه بها ولن يبرح ؛ فكان يود كلما نزل أرضاً فأحبها . أن يلقى بها منيته وأن يُدفن في أرضها . أحب أرض المدينة أول

(٤١٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠ - ابن الجوزي ٦٦ - وفيات

الأعيان ج ٢ ص ٦١

ما أحب وطالما عاوده الشوق إليها وحنّ لها ، وودّ لو رجع لئلا يكون بمن نفت المدينة ، ثم ألف الاسكندرية حين زارها وراها فأحب لو عاش ثم مات بها ، وقد قالوا إنه قال لزهرة بن معبد أحد فضلاء المؤمنين وأحد غزاة إفريقية في البر والبحر : أين تسكن ؟ فقال زهرة : بالفسطاط ، فقال له عمر : وأين انت عن الطيبة ؟ قال : وأين الطيبة ؟ قال : الاسكندرية ، فأنتك تجمع فيها دنيا وآخرة . إنها الطيبة الموطن . والذي نفس عمر بيده لو ددت أن قبري يكون بها ! فسكن زهرة الاسكندرية بعد قول عمر له وترك سكنى الفسطاط . ٤١١

فلما كان عمر خليفة ومكث في الخلافة سنتين واشهرًا قليلة ، ذهب في زورة له إلى الشمال ثم نزل بدير سمعان في جانب قرية عرفت بالبقرة من قبليّ معرة النعمان في انحراف الى حلب ٤١٢ نزل به يستجهم من علة تحركت به كأنها علة سمّ قاتل يدب خفيًا وهو سريع ، ولم يلبث الداء ان فشا فيه ، فظل يشكو عشرين يوما ثم الحت عليه الشكوى تسعة ايام ٤١٣

ومنذ بدأته العلة في خناصرة وأيقن بالموت نهض بخطب بها ويقول : واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافداً بباقي ، وقليلًا بكثير ، وخوفًا بأمان . . . فلما انتهى من خطبته رفع طرف ردائه فبكى حتى شق وأبكى الناس حوله ثم نزل فكانت

(٤١١) رياض النفوس ج ١ ص ٩٠

(٤١٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

(٤١٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٤٠

أيها ٤١٤ ، ولم يُرَ بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله ٤١٥ ، ثم أحسّ أنه في حاجة ليستجتم فأسرع إلى دير سمعان .

وعرف عمر أن السّم من يد خادم دسّته يزيد بن عبد الملك ، أوقيل ، وأتى بالخادم فأعترف بأنه وضع له سمّاً على طرف إبهامه ودسّته في الماء وسقاه له فتركه عمر . ومن غريب أمره أنه كان يكره الخوارج ولكنه صار كالخارجي في حرصه على الموت ، وكانت الرجل منهم إذا طعن قنّع فرسه ليسبح في الرميح ويفتحي إلى طاعنه وهو يقول : وعجلت إليك ربّ لترضى !

وقالوا لعمر : لو تداويت ! فقال : لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها ! نعم المذهب إليه ربي !

وكان عمر بعث من قبل إلى عبد الله بن أبي زكريا ، وكان رجلاً من صلحاء أهل الشام فقال له : يا بن أبي زكريا ، هل تدري لم بعثت إليك ؟ قال : لا . فقال : لأمرٍ لست ذاكره لك حتى تحلف لي . قال : لا تسألني شيئاً إلا فعلته ! فقال عمر : فاحلف لي ، فلما حلف له قال : ادع الله أن يميتني .

قال الرجل : بئس الوافد أنا للمسلمين ! وأنا إذن عدو لأمة محمد ! فقال عمر : هاه ! قد حلفت لي ، فلم يجد الرجل الصالح ابن أبي زكريا بداً من الوفاء فدعا لعمر بالموت ! ولم يلبث أن عز عليه ما فعل فرفع يديه داعياً يقول : اللهم لا تبقني بعده ، وبينما هو يدعو كذلك إذ أقبل صبي صغير لعمر ، فقال لابن أبي زكريا : وهذا

(٤١٤) الطبري ج ٥ ص ٣٢٣

(٤١٥) الاغانى ج ٨ ص ١٥٢

فأني أحبه ، فدعا له ابن أبي زكريا . ثم لم يلبث حين مات عمر ان
مات ابن زكريا ثم مات الصبي ٤١٦

و حين وثق عمر من انه ميت في مكانه لا محالة نام لليلة ولنهى
الحاطر في قميص من شعر مايلي جسده ، يمتد الى ركبتيه ، أما كتهاه
فقد بلغا مرفقيه ٤١٧ واشير عليه أن يخلع قميصه ذاك فأبى ، وجعل
يتلقى به عرقه وجهده ، ورفض ان يؤتى له بشيأ أخرى من بيت
المال ، وهي مرة فريدة في حياته امتنع فيها عمر أن يخلع قميصا لم يغسل
لأنه لم يجد له من بقاء ، وإنما يُبقي على جديد الدنيا من يأمل فيها
البقاء .

ولما ثقلت به العلة دخل عليه صاحب الدير يطرفه بهدية من
فاكهة مما أثمر شجر الدير ، فتقبل عمر الفاكهة بقبول حسن ، وأمر
له بالثمن ، فأبى الديراني ، فلم يزل به عمر حتى رضي وقبل ثمن
الفاكهة . ثم قال عمر لصاحب الدير : اني ميت من مرضي هذا !
فحزن الديراني ، وبكى لركة في قلبه ونبل في نفسه وقرب في
مودته ثم قال له عمر : قد بلغني أنك تملك هذه الارض - وأشار
له نحو أرض الدير - فبعتني موضع قبوري من أرضك لعام واحد ،
فاذا حال الحول فانبش الارض وازرعها وانتفع بها . وتم البيع
على ثمن لم يدور بعد كم كان ، أكان دينارين أم كان أربعين ٤١٨

(٤١٦) ابن عبد الحكم ص ١١٥

(٤١٧) ابن الجوزي ص ١٤٨

(٤١٨) اختلفت الروايات في ثمن قبر عمر اختلافاً كبيراً ولكنه انحصرين

دينارين وخمسين - مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥٣ - معجم البلدان ج ٤
ص ١٤٨

ان الاسلام نظر الى ما بعد الموت ، وجعل الثواب والعقاب في الخلد بعد ، ورفع الاسلام أبصار الناس وافكارهم عن تقديس الجسد حياً وميتاً ، ولذلك نهى عن زيارة القبور الا للعظة ، فالركون الى القبور وتكريم اجساد الموتى يقف القلوب دائماً عند حد الحياة الدنيا . وقد ابصر عمر ذلك فطلب الى الديراى ان يحرق الارض بعد عام .

المال الموروث

واسرع الى عمر فيمن أسرع اليه حين علموا بمرضه عدل له ، فقال له عمر : نزل بي الموت ولم أتأهب له ، اللهم انك تعلم أنه لم يسئح لي أمر ان لك في احدهما رضا ولي في الآخر هوى الا آثرت رضاك على هواي فاغفر لي ٤١٩ . ثم جاء مسلمة بن عبد الملك - والصرعة تهلكه فيظن من يراه انه لا يفيق - وافاق عمر فرأى مسلمة فأوصاه ان يحضر موته وأن يلي غسله وأن يمشي معه الى قبره وأن يكون بمن يلي ادخاله في لحده . ورأى مسلمة الفرصة قد سئحت ليفرض عمر شيئاً لأولاده فقال : يا امير المؤمنين ، انك أفرغت أفواه ولدك من هذا المال وتركتهم عيلة لا شيء لهم ، فلو وصيت بهم اليّ والى نظرائك من أهل بيتك ! فسكت عمر : فقال مسلمة : ألا توصي يا امير المؤمنين !

قال عمر : فيم أوصي ؟ فوالله إن لي من مال ! فقال مسلمة : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت ! قال عمر : أوتقبل يا مسلمة ؟ قال : نعم ، فقال عمر : تَوَدُّ عَلَى مَنْ أَخَذْتَ مِنْهُ ظُلْماً ! ثم غاب

(٤١٩) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧٣

عمر غيبته فبكى مسلمة وقال : يرحمك الله ، لقد ألت منا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً ٤٢٠

ولم يكن عمر ممن يرضى أن يورث أبناءه مالاً فإن الولد الصالح لا حاجة له في مال موروث ، والولد الطالح يفسده مال أهله حين يرثه . فلما أفاق عمر مرة ثانية قال : اسندوني ، ثم قال لمسلمة : أباالفقر تخونني يا مسلمة ؟ أما قولك اني أفرغت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله اني ما منعتهم حقاً هو لهم . وأما قولك لو أوصيت بهم فإن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وان بنيّ احد رجلين : اما رجل يتقي الله فسيجعل الله له رزقاً واما رجل مكبّ على المعاصي فاني لم أكن لأقويه على معصية الله . وكان اولاد عمر قد اسرعوا الى الديار فيمن أسرع ، كانوا احد عشر بقوا من أربعة عشر ، فدعاهم فنظر اليهم ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ! أي بنيّ ، لقد تركتكم وتركتم لكم خيراً كثيراً ، لا تمّروا باحد من المسلمين وأهل ذمتهم الا رأوا لكم حقاً . يا بنيّ ، ان أباكم مثل بين امرين : اما ان تستغنوا ويدخل ابوكم النار ، او تفتقروا ويدخل ابوكم الجنة ، فكان ان تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه ! قوموا يعصمكم الله ! قوموا يرزقكم الله ٤٢١ ودخل رجاء بن حيوة على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين ، اكتب الي يزيد بن عبد الملك توصيه وتخوفه فقال : والله اني لأعلم أنه من ولد مروان ! فقال له رجاء : يكون حجة عليه وعذراً

(٤٢٠) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٤٠

(٤٢١) ابن عبد الحكم ص ١١٧ ، ١٢٧

لك عند الله ! فامر كاتبه أن يكتب اليه : أما بعد يا يزيد فإتق
الصرعة عند العفلة فلا تُقال العثرة ولا يُقدر على الرجعة وتترك ما
تترك لمن لا يحمدك ، وتنقلب الى من لا يعذرك والسلام . وكانت
صبيحة في واد .

ثم اشتدت الصرعة بعمر وجاء الهول ، ولم يبق حول ببريره الا
فاطمة بنت عبد الملك وزوجه ومسلمة أخوها ووصيف له يقال له مرثد
فسهر وسهر وا معه ثم تفرقوا عنه حين طلع النهار . قالت فاطمة :
اشتد عزلته ليلة فسهر وسهرنا معه ، فلما أصبحنا أمرت وصيفاً له
يقال له مرثد ، فقلت له : يا مرثد ، كن عند أمير المؤمنين ، فإن
كانت له حاجة كنت قريباً منه ، ثم انطلقنا فضربنا برؤوسنا لطول
سهرنا ، فلما انتفخ النهار استيقظت فتوجهت إليه فوجدت مرثداً
خارجاً من البيت نائماً فايقظته فقلت : يا مرثد ، ما اخرجك ؟
قال : هو اخرجني ! قال : يا مرثد ، اخرج عني فوالله اني لأرى
خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ، ما هم بانس ولا جن ، فخرجت
فسمعتة يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في
الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

فدخلت فاطمة مسرعة فوجدته قد وجد نفسه وأغمض عينيه
وإنه لميت . رحمه الله ٤٢٢ .

عن الأربعة

كان عمر يستعجل الموت ، ولقد أحسن حين دنا من الأربعين
— وكانت اعمار بني امية في معظمها قصاراً — انه قد بلغ حدّه ،

(٤٢٢) الطبري ج ٥ ص ٤٢٤

وكان عمر قد جعل هذه السنّ غاية لم يَعُدْ بعدها عذر لانسان ان يسرف ويعصي ربه ، فكان يقول : تمت حجة الله على ابن الاربعين . ثم مات لها او حولها بقليل من الشهور والايام بعد ان أبلى عذره واستقال ذنبه . ابن اربعين او اقل منها ، ولكنّ الناس باتوا يظنون زهده اشق على ابن السبعين او الثمانين ، وعمله أشق على ملكٍ عُمِّرَ في ملكه عهداً طويلاً ٤٢٣

ومات عمر في أخريات رجب لسنة إحدى ومائة ، وخمس أو ست او عشر بقين من الشهر ، وكان موته يوم الجمعة ، وتقدم للصلاة عليه الخليفة من بعده يزيد بن عبد الملك . وكان يزيد متهماً في مميّه ، قالوا انه دسّ الى خادم يخدم عمر ، فوضع الخادم السمّ على ظفر ابهامه ، فلما استسقى عمر غمس ابهامه في الماء ثم سقاه فمرض مرضه الذي مات فيه ، وكان موته من السم من قريب ٤٢٤ ولو لم يعجل السمّ على عمر لعجلت عليه الخفاة ، فقد كان مرضه 'جلثه من كثرة الخوف من الله . كانت اقوى سبباً من السمّ الذي ادعوا أنه استقاه مع الماء فمات به ٤٢٥ بعد خلافة دامت سنتين وخمسة اشهر أو ستة ومعهن أيام كما كانت خلافة أبي بكر الصديق . ٤٢٦ سنتان وقايل من الأشهر ظنّها الناس اعواماً طويلة لكثرة ما أصابهم من خير ووفرة ما عمّتهم من عدل وانصاف .

(٤٢٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٣٢ - تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٤

(٤٢٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢ ، ٤٣٩

(٤٢٥) طبقات الشعرا ج ١ ص ٣٣

(٤٢٦) الصفوة ج ٢ ص ٧٢ - شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩

وعاطفة الخفاة متى صارت مألوفة فانها تصبح قادرة على احداث انقلاب نفسيّ ومرض حقيقيّ ، فاذا انضم الى الخوف تفكير لا ينقطع وشعور بالمسؤولية والعاقبة فان الموت قادم لا محالة مسرعاً على رجلٍ لم يبلغ من السن غير قليل .

نبش القبور

ودفن عمر في مكانه الذي اشتراه من أرض الدير ، ٢٧ ، ووقف عليه مسلمة بن عبد الملك يقول : اما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر ! و امر الحول على دفنه ، وصار لصاحب الدير أن ينبش القبر ويزرع الارض . ولكنه لم ينبشه ولم ينتفع بها ، بل ابقى عليه وصانه وجعله معلماً على الطريق يفد اليه الناس فيدعون له ويترحمون عليه ويبلون ترابه ، وكان الناس فيه جميعاً كما قال جرير :

لو كنت أملك والاقدار غالباً تأتي رواحاً وتبييتاً وتبتكر
رددت عن عمر الخيرات مصرعه بدير سيمان لكن يغلب القدر
وأحب الناس عمر لأنه تعفف عما في أيديهم وقل رزؤه ، وكما ازداد الزاهد تمنعاً ازداد الناس في حبه حاجة ، فاذا مات اتخذوا قبره مصلى . واذا عرّض لهم من يأكل الكثير ويتذرع في اللقم مقتوه ونبذوه وكرهوا قربه واستسرفوا أدبه . ولعلّ ما هجر الناس زيارة مقابر الملوك والخلفاء ولهجوا بزيارة قبر عمر بن عبد العزيز . قال هشام بن الغاز : نزلنا منزلاً مرجعنا من دابق ، فلما ارتحلنا مضى مكحول ولم يعلمنا أين ذهب ، فسرنا كثيراً حتى رأيناه فقلنا : أين

(٢٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧

ذهبت ؟ فقال : أتيت قبر عمر بن عبد العزيز وهو على خمسة أميال
من المنزل فدعوت له ، ثم قال : لو حلفت ما استثنيت ، ما كان
في زمانه أخوف لله عز وجل من عمر ، ولو حلفت ما استثنيت ،
ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر ٤٢٨ !



لَمَّا مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ أَوْصَى أَنْ يُدْفَنَ بِالْمَقَطَمِ مِنْ نَاحِيَةِ
يُقَالُ لَهَا الْفَجَّ ، وَكَانَ هَذَا الْمَكَانَ طَرِيقَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْحِجَازِ
فَوَاحِبٌ أَنْ يَدْعُو لَهُ كُلٌّ مِنْ مَرٍّ بِهِ ! ٤٢٩

أما عمر فتوارى عن الطريق وصار أبعاد القبور عن مزدحم
الأرض وملتقى الناس . وكان جهم التواضع ، إذ آثر أن يكون
في أرض دير ، ولكنه كان متعاضداً إذ دلّ على ما بين المسلمين
وأهل ذمتهم من مودة ، وعلى ما كان بين عمر نفسه وبين أهل الذمة
من صفاء ، وهو المتهم ظمناً بالشدّة فيهم والقسوة عليهم .

وظل القبر حيناً طويلاً في أرض الدير يعلو بتواضعه على القبور
المعلّمة ، ويقصده الناس حين ينكرونها ، حتى قامت الدولة العباسية
على سنان منشبة في اكباد الأمويين الأحياء ، ثم غلا النار الجامح
غليانه فخرج بأهله عن الوقار ، وثار أهل الشام مع الثائرين لما ملّوا
امية فنبشوا مع العباسيين قبور الأموات ، وأخرجوا الجثث
يجلدونها بالسياط ويحرقونها بالنار .

وأمن العباسيون بعد مذبحّة الأمويين في « أبي فطرس »

(٤٢٨) ابن الجوزي ص ٢٩

(٤٢٩) فتوح مصر وأخبارها ص ٢٥٣

بقلسطين في نحو آثار الموتى بدمشق وقنسرين ودابق والرصافة ،
وأخرجوا جثة سليمان بن عبد الملك من قبره بدابق وجلدوها ،
وجثة هشام من مدفنه بالرصافة - وكانت جثته لم تزل متمسكة -
فأحرقوها وذرروا رمادها .

ولكن قبر عمر بن عبد العزيز سلم من البطش ، وجاوزته حمى
الغضب ورحضاًؤه فلم تمتد اليه يد بالأذى . وضاعت معالم القبور
المشهورة ، وبقي القبر المتواضع مُعَلِّماً مشهوراً . وكان زهد عمر
وورعه وعدله منجاة لعظامه ومأمناً لآثاره ٤٢٩ . وظل القبر سنين
طوالاً يحج اليه المقيمون والوافدون ، ثم دهم الشرق ما دهمه فنهب
الدير وضاعت معالم القبر وانقطع عنه الناس ، وبقيت كل اديار
سبعمان تعرف إلا دير سبعمان المعروف .

عظة المنصور

قال الخليفة المنصور لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن ابي بكر :
عظني ، قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال المنصور : بما رأيت ،
فقال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابناً ،
وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً ، كفن بخمسة واشتري له موضع
قبره بدينارين ، وقسم الباقي على ولده ، فأصاب كل ذكر منهم
تسعة عشر درهما .

ومات هشام بن عبد الملك ، فقسمت تركته على أولاده ، فأصاب كل
واحد منهم أثنى ألف ، ورأيت رجلاً من ولد عمر قد حمل في يوم

(٢٩٤) تاريخ العرب الطول ص ٢٨٩ ، ٣٥٧

واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدق عليه الناس ٤٣٠ .

عظمة المرهر

ولقد ظلت الدولة الأموية تملك الخلافة مائة عام أو نحوها ، وهذه المدة اقصى مدة تعيشها دولة يتردى امرؤها في حماة الانحراف ، وكان خليفاً بهذه الدولة - في المظهر - ان تعيش أطول بما عاشت بسبب الفتوح الضخمة التي تمت في عهدها ، ولكن الفتوح لم تكن مقياساً صحيحاً لها لتبقى أو تزول ، فانما كانت امتداداً للدفعة القوية الجبارة التي دفعتها غزوات النبي وسراياه ، ثم لما فعل أبو بكر وعمر من بعد .

أما المقياس الحق لبني أمية فكانت سياستهم في داخل البلاد المفتوحة ووطأتهم على العراق والحجاز خاصة ، وعلى أصحاب النبي وأهل بيته على الأخص الأخص . ومن المؤسف أن فتوحهم لم تقم شفعاً لهم في مسلكهم وسياستهم ، فانهارت الدولة برغم ما أصابها في بعض الاحيان من نوبات للخير والعدالة . الا أن النوبات لم تطرد ولم تمتد ، وانما كانت تفد مع مزاج صاحبها وتزول بزواله ، ثم ترجع الامور الى سفسافها . لذلك ولغيره لم تظل الدولة غير مائة عام أو نحوها ، وهي اقصى المدة لدولة يتردى امرؤها في حماة الانحراف عن جادة الصواب .

ولم تفقد الامة العربية في دولة بني أمية صلاحها وتقواها ولا

علمها وفقهها ولا جهدها وكسبها ، وان ظل أكثر الفقهاء والعلماء
بمعزل عن الخلفاء ومنأى . وبينما كانت قصور الامراء تنحل وتسلم
أقدامها للزوال كانت الأمة تعمل على أن تعيش وتبقى في ظل دينها
الجديد . ولم يسلم من البيت الاموي غير اوائك الافراد الذين
سلكوا مسالك الزهاد وانخرطوا في نظام الفقهاء والعلماء فأبقوا على
أنفسهم وأولادهم مع الأمة الحية الصالحة التي كانت تحارب وتستشهد
وتتفقه وتعلم حتى تبقى على كيانها أن ينحل وعلى ملكها المكسوب
أن يزول .

مراجع الكتاب

•

- ١ الأغاني لأبي الفرج
- ٢ الاحاد في الاسلام لعبد الرحمن بدوي
- ٣ البيان والتبيين للجاحظ
- ٤ تاريخ آداب العرب للرافعي
- ٥ داريا للقاضي الخولاني تحقيق سعيد الافغاني
- ٦ « الشعوب الاسلامية لبروكلمان ترجمة منير البعلبكي ونبيه فارس
- ٧ تاريخ الطبري
- ٨ « العرب مطول لفيليب حتي (ترجمة)
- ٩ « مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق صلاح المنجد
- ١٠ « اليعقوبي
- ١١ تذكرة الحفاظ للذهبي
- ١٢ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية لعبد الرحمن بدوي
- ١٣ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملقب الشافعي

للشعالي	ثمار القلوب	١٤
لابن قيم الجوزية	جلاء الأفهام	١٥
لمسكويه تحقيق عبدالرحمن بدوي	الحكمة الخالدة	١٦
	حماة الاسلام	١٧
للدميمري	حياة الحيوان	١٨
لابن آدم القرشي	الخراج	١٩
لأبي يوسف	الخراج	٢٠
لكرد علي	خطط الشام	٢١
لسير توماس أرنولد (ترجمة)	الدعوة الى الاسلام	٢٢
لأبي بكر المالكي	رياض النفوس	٢٣
للمرزوقي الاصفهاني	الأزمة والأمكنة	٢٤
للحصري	زهر الآداب	٢٥
للمؤلف	زين العابدين	٢٦
لابن الجوزي وأشرنا إليه بابن الجوزي	سيرة عمر بن عبدالعزيز	٢٧
لابن عبد الحكم	سيرة عمر بن عبدالعزيز	٢٨
» » بابن عبد الحكم		
لابن العماد	شذرات الذهب	٢٩
للقلقشندي	صبح الأعشى	٣٠
لابن الجوزي	صفة الصفوة	٣١
لابن سعد	الطبقات	٣٢
للعمراني	الطبقات الكبرى	٣٣

طريق الهجرتين	لابن قيم الجوزية	٣٤
ظهر الاسلام	لأحمد أمين	٣٥
العقد الفريد	لابن عبد ربه	٣٦
عمر بن عبد العزيز	لأحمد صفوت (سلسلة أقرأ)	٣٧
عيون الاخبار	للدينوري	٣٨
غوة دمشق	لكرد علي	٣٩
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس العقاد (سلسلة دارالاهلال)	٤٠
فتوح مصر وأخبارها	لابن عبد الحكم (طبعة ليدن)	٤١
فجر الاسلام	لاحمد أمين	٤٢
الفخري في الآداب السلطانية	لابن الطقطقى	٤٣
قصص العرب	لحامد المرلى وصاحبه	٤٤
القومية المصرية الاسلامية	لابراهيم جمعة	٤٥
الكامل	لابن الاثير وأشرنا إليه بابن الاثير	٤٦
الكامل	للمبرد	٤٧
محاسن السلوك	لمحمد غنيم	٤٨
محاضرات تاريخ الامم الاسلامية	للخضري	٤٩
المرشد في الدين الاسلامي	لجماعة من الاساتذة المصريين	٥٠
مروج الذهب	للمسعودي	٥١
مسالك الابصار	للعمرى	٥٢
المطالعة التوجيهية	لجماعة من الأساتذة المصريين	٥٣
المعارف	لابن قتيبة	٥٤
معالم الموسيقى العربية	لنسيب الاختيار	٥٥

٥٦	معجم البلدان	لباقوت
٥٧	الموافقات في أصول الشريعة	للشاطبي
٥٨	الموشح	للمرزباني
٥٩	النجوم الزاهرة	لأبي المحاسن
٦٠	الانصاف	للباقلاني
٦١	وفيات الأعيان	لابن خلكان

حماما — لبنان

في يوم الثلاثاء ٥ من صفر سنة ١٣٧٣ ،
الموافق ١٣ من تشرين اول — اكتوبر — سنة ١٩٥٣

تصويب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
بني هلال	فتاة بني هلال	٩	١٦
عمر نفسه	ورأى عمر نفسه	٦٧	٥
ما علم	ما علمنا	٩٧	١٣
تركهن	تركها	٩٩	١٣
من	بعض	١٠٠	٢٣
أزه	إزه	١٠٢	٥
ومرود	مرود	١٠٢	١٥
يريد أن	يريد إن	١١١	١٩
الشاعر : أو	الشاعر أو	١٢٦	١٥
نوس	النفوس	١٢٧	٢٢
فأكتب	فاكتب	١٣٨	٢١
فعله أن	فعله ورأوا أن	١٦٥	١
ابن مسجح	ابن مسجح	١٧٢	٤
المتي	المغني	١٧٢	٦
حا كم	حالم	١٧٨	١٢
عسّ	تمسّ	٢٢٩	٢
وأنفذ	وأنفذ	٢٣٠	١٣
فتزوجها	فتزوجتها	٢٣١	٢

الفهرس



١ الباب الاول : نبعة السهام ٦

عمر بن الخطاب ٦ أولاد عمر ٨ عاصم بن عمر ٨ فتاة
بني هلال ٩ ام عاصم ١١ عبد العزيز بن مروان ١٢ عمر
ابن عبد العزيز ١٤ نشأة عمر ١٦ رؤيا صادقة ١٩ الجوهر
السليم ٢٣ علم عمر ٢٤ فاطمة بنت عبد الملك ٢٦ القطائع
٢٧ قطائع عمر ٣٢ إمرة خنصرة ٣٣

٢ الباب الثاني : ولاية المدينة ٣٤

بداية الفطنة ٣٤ مشورة الفقهاء ٣٥ ميول عمر ٣٩
غضبة على فقيه ٤٢ الأمير الأمير ٤٣ مسجد المدينة ٤٣
اصلاحات شتى ٤٥ زيارة الوليد ٤٦ سعيد بن المسيب
٤٧ خطبة الوليد ٥٠ مفترق الطريق ٥٢ عزل عمر ٥٧
عهد جديد ٥٨

٣ الباب الثالث : منزل السويداء ٦٠

رحلة ليل ٦٠ الفقه الأصغر ٦٣ الظلم الشامل ٦٤ اول

التوبة ٦٦ الى دمشق ٧٠ عمر والوليد ٧١ عمر
وسليمان ٧٥ مرضة سليمان ٨٢ رجاء بن حيوة ٨٤

٤ الباب الرابع : يوم عصب ٨٦

موت سليمان ٨٦ بيعة عمر ٨٨ ثلاثة كتب ٩١ هبوب
العاصفة ٩٣ مطامع النساء ٩٥ بيت سليمان ٩٧ أول
العدالة ٩٨ فته جديد ٩٩ أمراء بني أمية ١٠٠ ارباح
التجار ١١٢ عزل الولاة ١١٣ مسلمة بن عبد الملك ١١٤
مشية الرهبان ١١٥ حنين عمر ١١٦

٥ الباب الخامس : طريق العدالة ١١٨

المستول الأول ١١٨ عبد الملك بن عمر ١١٩ عزيمية
صادقة ١٢٥ الذوق والكسب ١٢٦ أصحاب عمر ١٢٦
الفقه الأكبر ١٣٤ شروط العامل ١٣٥ القضاة والعمال ١٣٦
بلال بن أبي بردة ١٣٧ صورة العدالة ١٤٠ ما ليس من
العدل ١٤١ تنفيذ الأحكام ١٤١ انواع المحاكم ١٤٥ مراقبة
العمال ١٤٦ الشكاوى ١٤٩ فن جديد ١٤٩ أثر العدالة ١٥١
٦ الباب السادس : سياسة الناس ١٥٥

الزمان الأول ١٥٥ بيت المال ١٥٧ القصد والاسراف
١٦٠ الرفق بالرعية ١٦٢ أهل العراق ١٦٤ أهل المدينة ١٦٦
أهل مكة ١٦٩ أهل الرقة وأهل أيلة ١٦٩ أهل سمرقند
وأذربيجان وخراسان ١٧٠ حلبة السباق ١٧١ درس
قاس ١٧٣ رحمة الضعفاء ١٧٤ الحوارج والحرورية ١٧٦
أهل الذمة ١٧٧ الرفق بالحيوان ١٨٠ الاصلاح ١٨١

مسجد دمشق ١٨٢ حسن البيان ١٨٩

٧ الباب السابع : دعوة الخير ١٩٤

القدريّة والعصاة ١٩٤ جند المسلمين ١٩٨ بدعة معاوية ٢٠١
بدعة الناس ٢٠٤ شيعة علي ٢٠٦ قصة فذك ٢١٠ علوم
الدين ٢١٢ علوم الدنيا ٢١٣ العلماء والمعلمون ٢١٤
المعلم ومنهاج الدراسة ٢١٦ الزكاة ٢١٧ الدعوة الى
الاسلام ٢١٩

٨ الباب الثامن : دير سمعان ٢٢٤

ديارات سمعان ٢٢٤ مخافة الموت ٢٢٦ النفس التواقة
٢٢٩ بقاء الروح ٢٣١ محبة الأرض ٢٣١ المال
الموروث ٢٣٥ سن الأربعين ٢٣٧ نبش القبور ٢٣٩
عظة المنصور ٢٤١ عظة الدهر ٢٤٢

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطابع دار الكشاف - بيروت

في الرابع من شهر ربيع الثاني ١٧٧٣ هـ
والعاشر من شهر كانون الاول ١٩٥٣ م